حنّا مينه



ناظم حكمت

السجن . المرأة . الحياة

دار الآداب

ناظم حكمت

حنّا مينه

١

ناظم حكمت

السّجن . المرأة . الحياة

دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

شباط ١٩٧٨

القِسمُ الأوّل

١

تيمورلنك ــ ويا للذكرى الكئيبة ــ أقام يوما احتفالا في وادي كانيجولا الاخضر المزهر الذي اطلق عليه شعراء سمرقند اسم « وادي الازهار » . وكانت منائر المدينة الكبيرة الزرقاء ، وقباب المساجد تتراءى للناظر من الوادي ، حيث انتشرت على شكل مروحة ، خمسة عشر ألف خيمة كأنها خمسة عشر ألف سوسنة ، وفي الوسط نهض خباء غوروغان تيمورلنك . كان الخباء مربع الزوايا ، يقوم على اثني عشر عمودا من الذهب ، وكانت جنباته مصنوعة من حرير مقلم ، يثبته الى الارض خمسمئة حبل قرمزي ، وتقف عند زواياه اربعة نسور فضية ، وتحت القبة ، على دكة وسط الخباء ، جلس النسر الخامس تيمور غوروغان ، ملك الملوك ، نفسه . وكان وجه الفاتح الاعرج أشبه بسكين عريضة النصل ، صدئة بالدم الذي أغمدت فيه آلاف المرات . وكانت عيناه فتحتين ضيقتين ، بريقهما أشبه ببريق الزمرد البارد ، ومن أذنيه يتدلى قرطان من جواهر سيلان ، في لون شفتي عذراء بارعة الجمال .

وفي أرض الخباء ، على سجاد لا يضارع روعة وبهاء ، انتصب ثلاثمئة ابريق ذهبي من اباريق الخمر ، وكل ما يليق باحتفال ملكي . وخلفه جلس الموسيقيون ، وعند قدميه جلس أنسباؤه وجماعة من الملوك والامراء والزعماء ، وكان أدناهم اليه كرماني ، الشاعر الذي سأله تيمور وقد اخذه العجب بنفسه :

ــ يا كرماني ، بكم تشتريني لو عرضت في سوق البيع ؟

فأجابه قائلا : بخمسة وعشرين دينارا .

قال تيمورلنك في كثير من الدهش :

ــ ولكن حزامي وحده يساوي هذه القيمة !

فأجابه كرماني : انما كنت أفكر بحزامك وحـــده ، لانك انت نفسك لا تساوي فلسا واحدا .

كذلك خاطب الشاعر ملك الملوك ، رجــل الهول والشر تيمورلنك . فليرفع مجد الشاعر ، صديق الحق ، فوق مجد تيمورلنك ، ولنسبح بحمد الشعراء الذين لا يعرفون غير كلمة الحق الجميلة التي لا تهاب (١) .

ان الحق ، في شرف الكلمة ، هو الشعار الذي يرفـــع ، على سارية عالية مغروزة في زنار الذين أعطوا أن يقولوها ، ثم يتقدمون ولا يهابون .

في تاريخنا ، في تاريخ الامم ، عشرات من الـذين قالوا كلمتهم ، ثم عانقوا الالم والموت على شرف ما قالوا . ان الخشبـــة ، والبئر ، والتنور ، والسيف ، لم تثنهم . فوق المسامير والماء والنار والنصل هم : أصحـاب كلمة ! وتعصف ريح الايام بالممالك والتيجان والعروش والسلطات جميعا ، وتبقى الكلمة .

ان الكلمات مواقف ، وقد وحّد هؤلاء بين كلماتهم ومواقفهم ، ومن هنا عظمتهم ، من هنا وعت ـ وحفظت ـ ذاكرة التاريخ ذكراهم ، ونبتت قصص الشهادة رواية عن حكايتهم .

كرماني كان صاحب شعر ، وصاحب موقف أيضا ، وناظم حكمت كان شاعرا ، وكان مناضلا ايضا ، جمع بين الكلمة والموقف في كلّ واحد ، خال من الازدواجية المقيتة ما بين فن الفنان وسلوكه ، الازدواجيـــة التي هي ، في جوهرها ، عجز عن المواجهة ، حين يكون على المرء أن يعيش ما قاله .

وليس عيش الحق ، في الكلمة والموقف ، هي الميزة الاساسية لناظم حكمت وكفى . كثيرون غيره جمعوا بينهما ، ولكن الـــذين صمدوا حتى النهاية كانوا قلة ، والذين صمدوا عن وعي مثله كانوا قلة القلة .

ولئن تحدى كرماني هيبة فرد سفاح هو تيمور غوروغان ، فقد تحدى ناظم حكمت نظاما سفاحا هو الاقطاعية التركيـــة المتحالفة ـ آنذاك ـ مـع الراسمالية الفاشية . وحين كانت هذه تنتشر كطاعون أصفر في الارض ، فتقتل الاحرار وتستعبد البلدان ، كتب ناظم ملحمته « تارنتا بابو » مصورا مأساة الفتى الاسود القادم من جالا على أيدي زبانية موسوليني في روما .

---

(١) مكسيم غوركي ـ « حكايات من ايطاليا » .

وحتى قبل أن يعتقل ناظم بقليل ويحكم عليه بالسجن الطويل ، وجد وسيلة اخرى لتحدي الفاشية وفضحها على أوسع نطاق . حدث ذلك عندما كان يترجم ، في احد استديوهات استانبول ، فيلم « سيبيون الافريقي » ، الذي استغلت الدعاية الفاشية فيه التاريخ الروماني على هواها . وقد كانت مفاجأة كبيرة عندما سمع صوت قاهر هانيبال يخطب في جنوده عن نعم المدنية الرومانية على الارض الافريقية ، بالعبارات التالية التي وضعها ناظم حكمت في الترجمة : « أيها الجنود الرومان ، انكم هنا في افريقيا ، لتمتصوا دماء المغلوبين والضعفاء ، فامضوا الى القتل والسلب والسرقة وانتهاك الاعراض » .

وقد لا يكون الفاشيون في افريقيا وأوروبا ، والاميركيون في فيتنام ، والاسرائيليون في الاراضي العربية المحتلة ، قالوا هذه العبارات علنا ، ولكنهم قالوها ، من غير شك ، سرا ، وطبقوها تطبيقا ، لان سلوك العدوان واحد في كل زمان ومكان ، وكلمة المجابهة واحدة في كل زمان ومكان ايضا.

ونحن لا نعرف ما صنع تيمورلنك بالشاعر كرماني ، لكننا نعرف ما صنعته الرجعية والفاشية بالشاعر ناظم حكمت ، ونعلم ما قاله ناظم فيهما ، لان هذا سيكون ، في شعره ، المحور كله ، والحياة كلها ، المحور والحياة اللذين في القرن العشرين ، صنعا مع غيرهما ، مجد هذا القرن : وجهه الكفاحي ، وانتماءنا الفخور اليه بثباتنا على ارضه البركانية .

ــ ان ننام الآن ،
لنستيقظ بعد مئة عام ، يا حبيبي »
ــ لا ،
عصري لا يخيفني ، ولست هاربا
انا لم أندم يوما لكوني أتيت هذا العالم باكرا ،
انني من القرن العشرين ،
وانا فخور بذلك ،
حسبي ،
ان اكون من القرن العشرين ،
ومع الرجال الذين انا معهم ،
وان اقاتل في سبيل عالم جديد .

فهل كان ناظم حكمت من القرن العشرين ، في التطابق العملي للشعر

وقضيته ، وبعيداً عن العزاء اللفظي ، الذي تستدعيه المسافة بين القول والعمل ، ونحتاجه للتعويض عما هو كائن بما نرغب أن يكون ؟

قبل الجواب ، لنتوقف عند القضيــــة الشعرية لدى ناظم حكمت ، ما هي ؟ ما دعوتها ؟ ما هي الرسالة التي حملهــــا قاربه في « بحر خزر » الوجود ، مقاوما ومكتسحا العواصف والصعاب ، وصامدا للهول الاكبر : العدم في الموت ، ثم مانحا الحياة لمن هم بعده ، عن وعي بقيمة التضحية ، وتصميم في الاحتراق لانارة الآتي ، المجهول ؟

في المطلق : الشعر وسيــلة تعبيرية ، ذات وظيفــــة جمالية ودلالة اجتماعية . ومنذ البدء ، حين كان السحر ترجمانا عن الذات الخائفة امام الظواهر الغيبية المخوفة ، ثم كانت المناجاة ، في الطقــــوس الاكثر قدمــا ووثنية ، ابتهالا للمخلوقات الضعيفة أمام الآلهة القويــــة ، يمكن ملاحظـة حقيقة كبيرة هي ان العقل ، في اللاوعي ، كان يحاول بأظافر طفلية أن يخدش السور النحــاسي للغيب ، ليرى ما وراء سطحه الظاهر ، باحثــا بدافع الخوف أو الفضول ، عن سر الوجود والصيرورة ، لكي يخرج بنفسه من متاهة العدم .

وقد تغيرت طرائق التعبير عن الذات ، وارتقت التساؤلات والابتهالات عبر العصور ، فكان عـــلى السحر والمناجاة والابتهالات أن تخلي مكانها ، شيئا فشيئا ، لاداة تعبيرية أسمى هي الشعر . وراح الشاعر ، مع تطور الوعي ، لا يكتفي بالتساؤل الخائف ، المموه ، عن سر الوجود والصيرورة ، بل يسعى ـ ولكل شاعر طريقته الخاصة ـ للنفاذ الى ذلك التركيب القائم بين الوجود والصيرورة ، أي النفاذ الى المصدر والغايــــة ، وترسم آفاق المستقبل عبر التشكلات الفكرية عن الماضي . وصار للشعر طموحه الانساني الى الجمال والكمال والتناسق ، ولم يعد الشاعر انسانا يتلقى الوحي من شيطانه ، ولا مجرد مجنون يهذي بأبيات هي من أحلام اليقظة ، واستقر الآن ، في الاذهان ، ان للشعر قضية وغاية .

ومن قراءة شعر ناظم حكمت يتضح لنا ان القضية الشعرية عنده هي : التعبير عن التوق للمستقبل ، بقوة الكشف والصمود في الحاضر . وغايته هي الدعوة لعالم جديد ، مؤسس على نظريــــة جديدة ، وصياغة ذلك من السنة الحرائق الشعرية في النفس ، حيث يتحد ، في كل موحد ، وعي الذات وما خارجها ، وتنصهر التجربة الشعرية في نار الاحاسيس ، لتكون

من بعد تعبيرا عن هـذه الذات ومن خلالهـا ، من داخلها ، من معاناتهـا وانعكاسات الوجود والصيرورة فيها .

قارب ناظم حكمت الشعري شقّ بحورا تجيش بأنواء التجارب عـلى مدى عمره كانسان ، ومدى وجـوده كوريث للمعرفـة الانسانية ، ورغم صحارى الماء ، وجزر المصاعب ، ومتاهات الابحار على خريطة لا تغطي الا القليل من مساحة الرحلة ، واصل طريقه مهتـديا بالمادية الديالكتيكية ، المنارة التي ستكون مرشـدا لاعظم شعراء عصرنا : ماياكوفسكي ونيرودا وايلوار ولوركا واراغون .

ان هدم الوجود واعادة خلقه ، قد كانا ، في حضارة الغرب الحديثة، المحاولة المثيرة والمحزنة للفن ، في سعيه لابتداع قيم أصيلة . لقد « حمل الفن الحديث اثم بروميثيوس لتحديه الآلهة ومنافسته لها في مهمة الخلق. والشرط الاول لهذه المحاولة رد الاشياء الـى حكم العدم » (١) الى البياض الذي لا شيء قبله . ولكن المحاولة كانت باطلة ، اذ لا شيء قبـل المادة ، فالمادة تتحول ولا تفنى ، وحتى في مفهـوم افلاطون المثالي ، كانت المادة تملك في حال العدم قابلية وجود ، هي نوع من الوجود ، وقد قررت هذه الحقيقة القديمة الفلسفة اليونانية ، وقال شكسبير ، في صيغـة اثباتية لها : « ان شيئا لا يخرج من لا شيء » (٢) .

واذا كان مللرمه ، في خداع مسكين لذاته ، قد قال : « عندما وجدت العدم وجدت الجمال » (٣) . فقد كشف ، في نصيحته الى تلميذه فاليري ، عن انه لم يجد عدما ولا جمالا ، وحلمه بتفسير أرقى للكون ، انطلاقا مـن العدم ، قد « استحال الى حسرة اشتدت مـع الزمن حتى انتهت بـه الى مرارة اليأس » (٤) ، فنهى تلميذه فاليري عن اتباعه « عـلى طريق الهـلاك المحتوم » . ورامبو ــ السطوع الشعري الذي بهر العالم في حينه ــ اتخذ موقفا قاده الى المأساة ، برغم وصفه الرائع للطبيعة ، ورغم يقظته وهتافه في النهاية : « الحيـاة جميلة ، انني أبارك الحيـاة » . لقد أراد تفسير الاشياء بالمطلق ، عبر الهذيان والفوضى ، وبفصل الـذات عن ماضيها ، وفصم المواثيق العاطفية التي تشدّ الفرد الى بلد ومجتمع وعائلة ، والغاء الحركة في عالم الطبيعة ، ليتحرر من محدودية الزمان والمكان ، ويستسلم

---

(١) الدكتور خليل حاوي في «فلسفة الشعر الغربي الحديث» ــ مجلة «الاداب» اذار ١٩٦٢ .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر السابق .

الى السكون حيث التأسنية واللاغائيـــة ، فانتهى بدوره الـــى الاخفاق فالصمت ، لان « الفوضى تولـــد الفوضى ولا تكشف عـــن المطلق » (١) . وقد ظلت اللاشيئية سائدة زمنا ، وتفرعت عن اصطنـــاع بعض الشعراء لحالات الجنون المتحررة من الرؤية الواعية وتمجيـــد الهستيريا . وقامت حركة شعرية معاصرة في أميركا عرفت باسم جيل « قرع الطبل » وفـــي أساس برنامجها « الولوغ بالاقذار ورائحـــة الفضائح والشتـــائم والغضب الاعمى الذي يأكل ذاته بذاته » (٢) ، وخير ما أنتجته : قصيدة « النبـــاح » للشاعر جيسنبرغ . وجاء شعراء محـــدثون من امثال اليـــوت وكلودويل اللذين حاولا الارتفاع عن هاوية العدم بالعودة الى الايمـــان القديم ، والايغال في الميتافيزيقية .

في هذا الوقت ، ورجوعا الى قرون ، كان الشعر التركي يحتضر في جو البلاغة والرتابة والذاتية . لم يكـــن يتشنج في العدميات والبحث عن المطلق ، بل ظل مقطورا الى عربة الآداب الشرقية ، أو كما قال الناقد التركي (صدري أدهم ارتام) « ظل جثة بين جثث النظم المتشابه النغم » يواصل نسج شرنقة المواعظ والآهات والمدائح الصوفية ، مؤرجحا جذعه ، كما في حلقات الذكر ، على « دربكة » فاعلاتن فاعلاتن ..

ويطل القرن العشرون ، حيث سيكـــون للينين شرف ايقـــاظ تنين الثورة الراقد في كتب ماركس وانجلز ، وبعثه حيا في اللينينية التي يسبح فيها المضطهدون بالثورة كما تسبح الاسماك في الماء ، وحيث ستوجه المادية الجدلية ضربة قاصمة الى المثالية الميتافيزيقية . ومع اطـــلالة هذا القرن ، تشهد مدينة سلانيك التركيـــة ولادة ناظم حكمت عام ١٩٠١ (٣) ، لأبوين ثريين عريقين . هما حكمت ناظم بك ، مـــدير المطبوعات العام ، وعايشة جليلة خانم ، الرسامة . وكان الجد ، محمد ناظم باشا ، واليا على سوريا في وقت من أوقات الحكم العثماني ، ومن هنا جاء اتصال واهتمام وتقدير هذه الاسرة ، وخاصـــة ناظم حكمت ، لتراث الادب العربي . وقد أكمل ناظم دراسته الابتدائية في مدرسة « طاش » بـ « كوزتبه » ثم درس فـــي تجهيز « غلطة سراي » في استانبول ، وانتقل الى مدرسة « نيشان طاش »

---

(١) و (٢) المصدر السابق .

(٣) هذه المعلومات مقتبسة من كراس صغير ليالشين قيا ، وقد خالفه حسن غرة ، فـــي الترجمة الفرنسية لاشعار ناظم حكمت ، فذكر انه ولد في استانبول عام ١٠٠٢ .

النموذجية ، ومنها الى المدرسة الحربية في « هيبلي » باستانبول ، ليهجر الحياة العسكرية بعد خمس سنوات بسبب اصابتـــه بمرض ذات الجنب للمرة الثانية ، ويختار بعد ذلك طريقه في الحياة ، كمناضل وشاعر .

ويجمع النقاد الاتراك على انه كان ، منذ البدء ، مجددا ، لا في الشكل الشعري وحده ، بل في المضمون ، واللغة ، والنظرة الـى الكون ، وزوايا النظرة نفسها . وقد كتب الناقد التركي فروزان خسرونكيه يقول : « ناظم حكمت أول من حطم ناب الفيل في شعرنا .. لقـــد أتى بشعر ذي مفاهيم حية ، عطرة ، مقابل ذلك الشعر الذاتي الفردي . وقد دبت الحياة فـي اللغة التركية على يديه ، فانبعثت وتطورت ونبضت فيها الرجولة ، وأتت بصوت يحق لجيل الشباب أن يقول : انه لي » . وقال صدر الدين ارتام : « وجد ناظم حكمت قناعته في المادية الديالكتيكية التي وضعت الحركـــة ازاء مبدأ السكون » . وقال أمين يالمن : « ناظم حكمت ابن نادر المثال لهذه الامة التي كان أحسن من نطق بلسانها ، واحس بعذابها من أعمق أعماقه. انه شديد الاعجاب بتراثها الثقافي الذي يملك خبرة واسعة فيه ، ومُثـله تملأ خياله وقلبه معا ، وهي تتحرك باتجاه تخليص الانسان من ظلم الانسان ومن البؤس والعبودية » (١) .

والواقع ان ناظم حكمت لم يحطم ناب الفيل في الشعر التركي وحده. لنقل باطمئنان انه ساهم ، مع ماياكوفسكي ولوركا ونيرودا وغيرهم ، في تحطيم نيوب فيلة الشعر وقيمهم « العدمية الاصيلة » . انالثورة الاجتماعية لقرننا ، على الصعيد السياسي ، كان لا بد لها من ثورة على الصعيد الفني ، وقد نهض لهذه المهمة ، في نطاق الشعر ، ماياكوفسكي ، وحملها لـوركا وناظم ونيرودا ، مما سمح لشعراء هذا القرن أن يجدوا أنفسهـــم واصالة قيمهم ، بعد قرنين من ضياع أبرز الشعراء ، واكثرهم طنينا ، في عوالم بودلير وماللرمه ورامبو .

ومن متابعة الخط الحياتي لناظم حكمت ، نجـــد انه عاش تجربتــه الشعرية على نحو عميق ونادر . فخلال حرب التحرير بقيادة أتاتورك ، عبر الى الاناضول واشترك في القتال الدائر هناك ، واتصل ب « أتاتورك » الذي

---

(١) المصدر السابق .

قدّر موهبته الشعرية (١) ، وساعد في ايفـــاده الى الاتحـاد السوفياتي لدراسة الاقتصاد السياسي . وقد عمل ناظم حتى عام ١٩٣٦ في الصحف والمطابع والاستديوهات ، واصدر خلال هـــذه الفترة ما يقرب من عشرة دواوين وثلاث مسرحيات ، ونشر كثيرا من الاشعار الساخرة وقاد حمـلة ضد « اصنام الشعر » . وكان يكتب باسم مستعار هو « اورخان سليم » ويعمل لاجل تركيا جديدة ، متحررة ، متقدمة ، اشتراكية ، ويكرّس وقته وطاقاته للتبشير بآرائه ، وفضح الفاشية التي يتصاعد خطرها ، الامر الذي أحقد الرجعية التركية عليه ، وهي تعد نفسهـــا لزواج متعة مع النازيـة الالمانية ، فأوقفت ناظم والقت به في سجن بروصه بتهمة نشر « المبـادىء الهدامة » في صفوف الجيش . وفي جو من السرية التامة ، جرت المحاكمة ، وصدر الحكم بسجنه ثمانية وعشرين عاما ، فارتفعت الاحكام بذلك الـــى ستة وخمسين عاما ، قضى منها ثلاثة عشر عاما حبسا متصلا ، انفراديا في اكثر الاوقات ، حتى ذابت قواه وانهكه المرض ، فاضرب عن الطعام حتـى الموت عام ١٩٥٠ ، وهبّت عاصفة من الاحتجاج شملت العالم ، انتزعته من ايدي جلاديه ، ليتخطى من ثم حدود تركيا قاصــــدا الاتحاد السوفياتي « وطنه الثاني » كما دعاه ، ومثواه الاخير أيضا ، لان بلاده رفضت أن يدفن فيها كما جاء في وصيته .

ولقد تابع ناظم ، من عام ١٩٥٠ حتى وفاته عام ١٩٦٣ ، حمل قضيـة وطنه والانسانية في قلبه ، وطلع على العالم بروائع الشعر الانساني الذي تغنى فيه بالحب والسلم والحرية ، وسالت كلماته قطرات ملتهبة ، حانية ، عذبة ، في القصائد الموجهة الى زوجـــه (منور) وابنه محمد ، اللذيـــن انفصل عنهما بعد خروجه من تركيا ، وانقطعت أخبارهما عنه ، ولم يعثـر عليهما الا قبل وفاته بقليل ، كما سيأتي .

ان هذه الملامح من حياة الشاعر تسمح لنا أن نحكم ان ناظم حكمت ، الابن المحبوب لعائلة عريقة ، « والجميل مثل اله » (٢) ، بقامتـــه الفارعة

---

(١) ذكر فالح رفقي اتاي في جريدة « الجمهورية » التركية ان اتاتورك تاق الى سماع شعر ناظم حكمت ، فاحضروا له تسجيلا ، وقد حمله اعجابه عـــلى رؤية الشاعر فاستدعاه .. وذكر يالشين قيا ان ناظم حكمت جيد الالقـــاء ، قويه ، حتـى ان شركة كولومبيا للاسطوانات سجلت له قصيدتي « بحر خزر » و « الصفصاف الباكي » على اسطوانتين بيعت منهما ملايين النسخ .

(٢) حسن قرة ، مجموعة اشعار « ناظم حكمت » بالفرنسية ، ترجمة الدكتور علي سعد .

ووجهه البدري ، وعينيه الزرقاوين ، قد عاش الحياة شعرا ولم يعش الشعر نزوة حياة ، ولهذا فالصورة الشعرية عنده « فعل شعري » اكثر مما هي تشبيه وتخيلات وقرن مفردات . . . فعل شعري يرتكز على التجربة والمعاناة ووضوح الرؤية . وتجربته ، في قلب فرديتها ، تعكس ملامح من تجارب الآخرين ، وهذا ما جعل لشعره صفة الشمول الانساني ، وهي نقطة الثقل فيه ؛ وهذا ، أيضا ، ما جعلَ قارئه يَمس بالتيار المكهرب للقضية الشعرية كأنما هي قضيته . والى جانب الشمول الانساني ، جاءت النزعة البيئية ، والينابيع الشعبية لامته : حكايات واساطير وتعابير وصور وامثال ، ترسخ واقعيته وتزهرها ، وتشيع فيها الطلاوة والعفوية ، هذه التي « أبغضها بودلير وتحسر عليها طيلة حياته » (١) . لقد امتزجت «الانا» و «النحن» و «الكل» في شعر ناظم حكمت امتزاجا عضويا في وحدة غير قابلة للانفصام ، عصية على التمييز بين الشكل والمضمون . والحقيقة الشعرية التي تولد من شعر كهذا ، وتحمل طابع الاصالة الشعرية نفسها ، « تستطيع أن تدخل في التراث الثقافي الانساني ، وأن تفعل فعل الخميرة في تحول العالم » (٢) .

لقد أفلت ناظم حكمت من فخ جعل التلقي والاداء معادلة شعورية لصيغ الفكر الذهنية . الشعر لا يجانب الفلسفة ، ولكنه ، بالمقابل ، لا يحتويها على شكل مقومات ومفاهيم منظومة . الافكار ، في الشعر ، ضمنية ، رموز ، ايماءات ، أحاسيس نتلمس في ثناياها الفكرة الشعرية ، ونستخلصها من الالفاظ في صيرورتها تعبيرا . وفي قصيدته « الى بركلي » التي يدحض فيها مزاعمه حول أولوية الفكر على المادة ، نجد مثلا مقنعا على المقدرة الفذة في جعل الفكرة تعبيرا شعريا عن طريق الرموز والامثال :

أيا بركلي !
يا أسقف فلسفة القرن الثامن عشر ،
يا ثعلب سلاطين الثعالب .
ها انت ،
وها هي فلسفتك القائلة :
التفاحة المكورة ، البراقة ،

---

(١) جان بول سارتر في كتابه « بودلير » .
(٢) تريستان تزارا في دراسته عن ناظم حكمت نقلا عن مقدمة الدكتور علي سعد .

التي ترى لونها الاصفر ، الاحمر ،
انما هي ،
« نتاج تصور فكري »
لكن ،
قبل أن تطلع اسناننا ،
قد كان البحر الازرق ،
وكانت السفينة السابحة ،
بشراعها الابيض ،
في البحر الازرق ،
وما دامت السفينة السابحة في البحر الازرق ،
من بنات أفكارك الذاتية ،
وما دام البحر الازرق ، هو الآخر ،
من تفكيرك الذاتي ،
فلم يعد هناك زمان ،
ولا مكان ،
ولا وجود لموجود خارج ذاتك .

الفكرة فلسفية هنا ، ومن النوع الجاف ، فانظر كيف طوّعها الشاعر لان تكون فكرة شعرية . لنثق انه « ليس من فكرة لا يمكن ان تصبح شعرية ، كما انه ليس من شعر يستحيلّ أن نستخلص منه فكرة » (١) . وقد كان هذا المبدأ واضحا لناظم حكمت منذ البدء ، واستخدمه بنجاح في شعره الكفاحي والغنائي على مدى حياته . وقد كتب في مجلة « رسملي آي » ـ المصور الشهرية ـ « ان الفن الحقيقي هو الذي يعكس الحياة بكل تناقضاتها وصراعاتها وانتصاراتها وانكساراتها وحبها وبغضها ، وكل مظاهر ابداع انسانها . الفن الحقيقي هو الذي يرفض الزيف حول الحياة » . وكان يرى ان الاشكال التعبيرية لهذا الفن تختلف باختلاف العصور ، فكتب في المجلة نفسها يقول : « العروض واوزان التفاعيل وانماط القوافي ، اشكال للشعر في مجتمعات معينة وعلاقات اقتصادية محددة . وطالما ان هذه تنهار وتتبدل ، فان الانهيار والتبدل يحدثان في الاشكال الشعرية

(١) عالم النفس الفرنسي دي لاكروا ، نقلا عن « بين الميتافيزيقيا والشعر » للدكتور زكريا ابراهيم ـ « الآداب » آذار ١٩٦٢ .

العتيقة . وان المصاريع وان ظلت مصاريع من الناحية الفنية ، فانها تتجزأ من ناحية التدفق الباطني » (١) .

ان هذا الترابط الثوري ، وطنيا واجتماعيا وفنيـــا ، قد كان ضرورة في حياة الشاعر ومفهومه . ذلك ان التعبير عن الشكل الرجعي للمجتمع في شكل متقدم للشعر ، يخلّ بالتطابق ويقود الـى الافتعال والتصنع . وقد كان ناظم ثائرا في كل هذه المجالات ، فمن الناحية الوطنية تمرّد على واقع الاحتلال الانكليزي الفرنسي لبعض أجزاء وطنه عقب الحرب العالمية الثانية ، وحمل السلاح في الاناضول وقاتل ، ومن الناحيـــة الاجتماعية رفض ، وهو حفيد أحد الباشوات ، حكم هذه الطبقة الرجعي الاستبدادي، لادراكه التلازم بين التحرر الوطنـــي والتحرر الاجتماعي ، ومن الناحية الفنية ثار ، لا على الاشكال العتيقة للشعر التركي ، بل على محتواه أيضا ، على ما فيه من تقوقع وذاتية واتكالية و « حكمة جبانة » .

الاهم ، انه فهم قيمة الترابط الفكري والكفاحي بين الثائرين ، فاتجه بأنظاره الى الشمال ، نحو بلاد ثورة اكتوبر الصديقة ، التي وقفت الى جانب حرب التحرير التركية ، وذهب الى الاتحاد السوفياتي مناديا بصوت مجلجل كبوق نحاسي أو مطرقة تدوي بقوة ألف حصان :

أنا آت من الشرق ،
ابشّر ،
بثورة الشرق .
فهيا ، افتح ذراعيك ،
واحتضني .
ايه !
عانقني ،
يا من تغلغل الشوق الى رؤيته ،
في حشاي ،
كما يتغلغل الحنين الى الوطن .
ايه !
يا بلد الرايات الحمر ، اللاهبة كشموس آسيا ،
المتخايلة في رؤى أحلامي ،

(١) هذه المقتطفات من أقوال ناظم حكمت والنقاد الاتراك من كراس بالشين قيا ، المترجم على شكل مخطوط بقلم الاستاذ ثابت العزاوي .

يا سماء الابطال !
يا باعثة السنين الجامحة وسط الدماء !
لقد عبرت ،
دروب آسيا ،
مع الرياح المندفعة الى الشمال ،
ووصلت اليك ،
فهيا ، أسرع ، لا تتأخر ،
أعطني النور لعينيّ ،
والشعور لرأسي ،
فالذين هناك ،
ينتظرونني ،
وعليّ أن أسرع بالعودة اليهم ،
عليّ أن أبدو بقميصي الارجواني بينهم .

وأعطاه الاتحاد السوفياتي ما طلب : النور والشعور ، ولكنه اعطاهما له من ذاته هو ، ففي تلك الذات تفجرا ، والا ما كان ممكنا ، لا التلقي ولا العطاء ، بدون الاستعداد الداخلي . درس ناظم حكمت في الاتحاد السوفياتي ، واتصل بالحياة الفنية ، وأفاد من ظاهرة ماياكوفسكي ، ولكنه ، قبل أن يذهب الى هناك ، كان على اطلاع ورغبة وايمان ، كان قد اهتدى ، في تفكيره وسعيه لتغيير الواقع المؤلم للملايين من الاتراك الذين يكدحون ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة ، وعلى ظهورهم الصفراء آثار السياط ، الى ان حل المشكلة موجود على الارض وليس في السحب ، فأدار ظهره للميتافيزيقي الناظر الى السحب والهاتف : « مملكتي ليست من هذا العالم » ، وتحوّل الى الديالكتيكي الباحث في الارض عن حل لمشكلة الارض ، والهاتف : « مملكتي من هذا العالم » وأنا الذي أصنعها .

وبعودته من موسكو عام ١٩٢٨ ، تبدأ ملحمة الحياة والشعر والصمود الاسطوري للشاعر الذي قال عنه سعيد عقل : « ناظم حكمت ثالث اثنين : دانتي وشكسبير » ، ويذيع شعره في العالم حاملا قضية شعبه التركي ، ويدخل الى كل بيت في وطنه ، ومعه الرجاء والايمان بالحياة ، والدعوة الى الفرح ، والى الصمود ، هذا الاساس الذي بنى عليه كل آماله .

في كتابه عن « بودلير » (١) يقول جان بول سارتر : « في كلّ انسان

---

(١) ترجمة : جورج طرابيشي .

لحظة الحاجين متواقتين : أحـــدهما نحو الله والآخر نحـو الشيطان » ، وبمعنى آخر ، أحـــدهما نحو الخير والآخر نحـو الشر ، وفي القاموس النضالي : احدهما نحو الصمود والآخر نحو التخـــاذل . ومن المؤكد ان هذين الالحاحين قد تناوبا ناظم حكمت خلال سجنه الذي استغرق ربـع عمره ، وخلال الحرمـــــان والعذابات ونداءات الجسم والجنس والشوق العائلي ، وكذلك ، وبصورة اعنف ، خلال تأرجح حبل المشنقة فوق راسه ابان محاكماته الكثيرة ، وقد كان دائما الى جانب الصمـــود ، وهنا ميزته الكبرى العظيمة ، فقد قبل ، لحساب الم الخاص ، تحدي العصر وانتصر عليـــه .

رفض الامنية الاكثر اغراء للمتعبين « ــ أن ننام الآن ، لنستيقظ بعد مئة عام ، يا حبيبي » « لا ــ قال ــ عصري لا يخيفني ولست هاربا » ، وفي تقبله للالم كان ايجابيا ، فاعلا ، يضع المخل في أساس الظـــلم ، وينقض القوانين والاخلاقيات ومباذل الوجه السافل للعصر ، لكي يكشف ويصافح الوجه الآخر : الشجاع ، المجيد ، البطل . لم يكن سلبيا مثـل سقراط : الموت احتراما القانون ، ولا تأليا كالمسيح : الصلب دون أن يسمـح بشهر سيف بطرس .. كان ديسمبريا (١) ، يضحك وراء جدران السجون مـن « جبروت » القياصرة :

---

(١) الديسمبريون نسبة الى ديسمبر وهو شهر كانون الاول من عام ١٠٢٥ ، وفيه حاول جماعة من المثقفين الروس وبينهم الشاعر بوشكين اغتيال القيصر نقولا الاول . وقـد نجـا بوشكين بفضل صلته بالقيصر ، واعدم الباقون او ارسلوا الى منافي سيبيريا ليموتوا فيها . وعلى الاثر كتب بوشكين قصيدة ارسلها اليهم مع امراة قال فيها :

يا أيها الذين يرزحون تحت حكم الاشغال الشاقة ،
وفي الظلمة يتلمسون السبيل الى النور .
لياتينكم النهار ، خلل قفل ومفتاح .

ويذكر التاريخ الادبي لروسيا ان السجناء المنفيين كانوا ينشرون القصيدة ويطوونها حتى تفتتت من كثرة النشر والطي ، وقد كتبوا الى بوشكين يقولون :

يا أيها الشاعر الذي تحرك قيثارته روح نبوءة ،
لقد وصلتنا رسالتك ،
فامتدت ايدينا الى السيوف ،
لكنها لم تصادف غير السلاسل .
ومع ذلك كن على ثقة ،
اننا وراء جدران السجون ،
نضحك من القياصرة .

ان اموت متارجحا على طرف حبل
فذلك ما لا يرضيني بأي حال ،
انما ،
كوني على ثقة يا حبيبتي ،
انهم عبثا سينظرون ،
في عيني ناظم الزرقاوين ،
ليروا ما فيهما من خوف ،
اذا ما حاولت يد غجري تعس ،
شبيهة بعنكبوت أسود ،
ان تضع الانشوطة في عنقي .

يد الفجري السوداء هي النظام الرجعي . وفوقها يد اخرى ، نازية المانية قبل الحرب ، وامبريالية اميركية بعدها ، وظلّ الطلب خلال ثلاثة عشر عاما ، قائما : حذف ناظم من قائمة الاحياء ، أو حمله على التراجع . وقال ناظم : لا للتراجع ، مرة والى الابد . وظلت اليد السوداء تضغط على العنق ، والحربة تنفرس في الجنب ، والمقص يعمل في الاجنحة ، وابدا لم يتوقف النسر عن التحليق ، ولا كفّ عن الحداء :

ضمّد جراحك بيديك الرهيبتين
وعضّ على شفتيك ،
مقاوما الاوجاع .

ومن سجن بروصه ، عبر الجدران والقضبان والحراس والزبانية ، واصلَ ناظم شعره النابض بالقوة والعذوبة والكبرياء السعيدة . لم تستهلكه المرارة ، ولا فراغ الوحدة . كان بودلير ، المنفصل عن المجتمع والناس ، يخاف الوحدة وهو خارج دائرتها ، لم يسجن يوما ، ولكنه نبذ ، تلقائيا ، فعاش العزلة في نفسه . كان لا يطيق أن يبقى وحيدا ساعة ، بينما ناظم ، المربوط بألف سبب الى الناس وقضيتهم الكبرى ، لم يستشعر الوحشة في قلب وحدته الطويلة : « قوتي في هذه الدنيا الواسعة ناجمة عن كوني لست وحيدا فيها » ، « قلبي يخفق مع ابعد نجم في السماء » ، « انني معكم يا رفاقي » :

فنحن ، كما نعرف أن نضحك بفم واحد ،
نعرف ان نحيا ونموت كواحد ،

كلنا من أجل واحدنا .
واحدنا من أجل كلنا .

وفي التغلب على قيظ الحاضر ، كان يعرف كيف يفيء الى نداوة المستقبل ، انه بعده الزمني الرئيسي ، فهو يعرف عصره ، ويفهمه بالدور الذي يلعبه ، بالذي يهيىء له : المستقبل . الحاضر بداية الآتي ، والآتي افضل من الحاضر ، بشكل مطلق :

أجمل البحار ذاك الذي لم نذهب اليه بعد ،
وأجمل الاطفال من لم يكبر بعد ،
وأجمل أيامنا تلك التي لم نعشها بعد ،
وأجمل ما أريد قوله ما لم أقله بعد .

وهنا ، في نقطة الحاضر والآتي ، نلاحظ الفارق في استمرار الصمود عند ناظم حكمت ، وكف الصمود عند ماياكوفسكي . ان وضع الآمال في ادراج المستقبل هو الذي يقينا السقوط في خيبة الحاضر . والمستقبلية (١) على خط النضال ، سلاح كفاحي من الطراز الاول . ماياكوفسكي ، شاعر ثورة اكتوبر ، كان يضع آماله في حاضر الثورة ، وناظم حكمت يضعها في مستقبلها . ان عمر الثورة ــ المجتمع لا يقاس بعمر الثائر ــ الفرد . ثمة فارق اذا لم يؤخذ في الحسبان غام الوضوح بين الرغبة في الانجاز ، وامكانية الانجاز ومداها . رغبة ماياكوفسكي في القضاء على الانتهازية والبيروقراطية والذيلية وكل ذبابية طبق العسل التي ترافق المراحل الاولى لانتصار الثورات ، رغبة مفهومة ، والشكل الاعلى للرغبة : النضال لتحقيقها ، شرط : لا خوارق ، نقول للشيء كن فيكون ، بل سعي عنيد دائب ، مستقيم ومنعرج ، ومنعرج فمستقيم ، الى أن تتوافر الظروف والشرائط للشيء لكي يكون . هذا قانون نضالي ، وقد وعى هذا القانون ناظم حكمت ، وعمل به بأطول مما عمل به ماياكوفسكي .

ان الانتحار بالنسبة للفنان ، قد يكون ، ببساطة ، حادثا ذاتيا محضا . فالحياة والموت وجهان لوجود واحد ، متجاوران ومتلازمان . والفنان ، باعتباره صانع حياة ، صانع موت كذلك ، اي انه أقدر من سواه على مقاربة اللعبة من طرفيها . وفي لحظة ما ، ونتيجة لآلام الخلق القارضة والمدمرة

---

(١) المقصود بالمستقبلية هنا رؤية المستقبل من خلال الحاضر ، لا المدرسة الشعرية المعروفة بهذا الاسم .

للاعصاب ، يحسّ الفنان بالاكتفاء ، وبالحاجة الى تلبية غريزة الموت التي ينبهها الاجهاد ، وعندئذ يعمد الى الانتحار ، ويغمض عينيه ناشدا الراحة الابدية ، وربما فعل ذلك ماياكوفسكي .

افتراض آخر ، أن يكون الحب في حياة ماياكوفسكي هو الذي فجّر ازمته ، أو ساعد على تفجيرها ، وسط الطبيعة العصبية المرهفة ، الموسوسة ، المتأزمة والملتهبة لفيزيولوجيته . وحتى لو جزمنا ان انتحاره كان احتجاجا على مفاسد الوسط الادبي ، ورفضا أو ادانة له ، يبقى سبب الانتحار ذا صلة بالخيبة ، ويكون ثمة قصر نفس نضالي ، ورغبة في تحقيق الشيء دونما اعتبار للامكانية الزمنية لتحقيقه . لقد اراد ماياكوفسكي أن يحقق كل شيء في الحاضر ، فنسي شرط المستقبل ، وحرص على انجاز المهمات في حياته كثائر ــ فرد ، فغاب عنه ان انجاز كل المهمات هدف من اهداف الثورة ــ المجتمع ، وان على الفرد أن يلعب دوره ، أن يقطع شوطه ويعطي المشعل لمن بعده ، ويثق بالمستقبل ، وبذلك يتفادى صدمة الجزع الشخصي قبل تحقق الهدف العام . ان معادلة : « واحدنا كلنا ، وكلنا واحدنا » يصح التذكير بها في هذا المجال ، ويصح كذلك التذكير بوصية ناظم حكمت :

يا رفاقي ، اذا لم يكن من نصيبي رؤية ذلك اليوم ،
أي اذا متّ قبل الخلاص ،
فاحملوني الى الاناضول ،
وادفنوني بمقبرة في احدى القرى .

فهذه الوصية دليل على انه كان يستشعر موته قبل انتصار قضية شعبه ، لكنه لم يجزع ، لان هذا الانتصار مرتبط بعمر الثورة ــ المجتمع لا بعمر الثائر ــ الفرد ، وهو آت على طريق المستقبل . ولعل قصيدته « منذ صرت داخل السجن » ، تقدم فكرة اكثر جلاء لهذه النقطة :

منذ سقطت في غيابة السجن ،
دارت الارض حول الشمس عشر دورات .
فاذا سألتموها قالت لكم :
« ليس من اسم لهذا الزمن القصير الذي لا يرى بالمجهر »
واذا سألتموني اجبتكم :
« انها سنوات عشر من عمري »

●

في العام الذي دخلت السِجن ،
كان معي قلم رصاص
وظلّ يكتب ويكتب ففني في أسبوع ،
فاذا سألتموه قال لكم :
« انها حياة كاملة »
واذا سألتموني أجبتكم :
« انه أسبوع ، فيا أيها الانسان ، لا تبال » .

الاسبوع حياة كاملة بالنسبة للقلم ، وزمن قصير بالنسبة للانسان .. والسنوات العشر زمن كبير قياسا الى عمر الانسان ، لكنه زمن لا يرى بالمجهر قياسا الى عمر الكون . النتيجة : كتابة صفحات طموح معقول بالنسبة لحياة القلم ، وتحقيق ما كتب طموح يتجاوز هذه الحياة . وكذلك الحال بالنسبة لطموح الانسان في احداث ثورة ما ، وطموحه في تحقيق كل اهداف هذه الثورة ، وقد أدرك ناظم هذه الحقيقة فأفلت من رحى الحسرة المتولدة عن الانتظار اليومي الملحاح ، بخلاف ماياكوفسكي ، الذي طمح الى القضاء على البيروقراطية والفساد وضيق الافق في سنوات ، ومات بحسرة ذلك ، غير مدرك ان هذه مهمة فوقية في البناء الاجتماعي تحتاج الى قرون ، الى مستقبل بغير حدود .

على ان هذه المقارنة المراد بها اغناء البحث في صمود ناظم حكمت ، لا تنسرح على شعر وشجاعة وثورية ماياكوفسكي . الشجاعة أساس الصمود ، والصمود بعدٌ في الشجاعة ، ولا تعارض بينهما ، بل فارق زمني. لقد أحدث ماياكوفسكي ثورة فيالشعر بطاقته الشعرية التي أبدعت جمالية خلاقة استوعبت الآلة واستنطقت عصرها بالنغم المتدفق والصورة الشعرية الفاتنة ، كما جعل من سلوكيته قدوة ، عن طريق جراته في قول ما يعتقد بأعنف واصدق ما يكون القول ، وبرفضه الزيف والجمود ، ومقارعة أصحابهما ، ولو كانوا في أعلى المراكز واخطرها ، وهذه ظاهرة يصحّ التمسك بها في الحياة الادبية للمجتمعات الجديدة . بيد ان ماياكوفسكي قرر فجأة، أمام ضغوط حمقاء ، وردود فعل بالغة الحساسية، أن ينهي حياته ، غير فاقد الامل بتحقيق أهدافه في المستقبل ، وغير قادر على انتظار هذا التحقق .

من هذا نستنتج ان البعد الزمني عنده كان الحاضر مع الامتداد المحدود في المستقبل ، والبعد الزمني عند ناظم كان المستقبل والامتداد

اللانهائي فيه ، وفي هذه النقطة الصغيرة والكبيرة معا ، علينا أن نبحث عن التعجل وكف الصمود عند الاول ، وعن التأني واستمرار الصمود عند الثاني ، مع ملاحظة مهمة ، هي ان صمود ناظم حكمت كان من النوع الاصعب ، لان وضعه كسجين كان من النوع الاقسى ، وكان الزمن ، بالنسبة اليه أبطأ ، وضغط التعجل أشد ، ومن طبيعة الاشياء ، لو حدث تبادل في الادوار بينهما . ان الثقة بانتصار القضية لا تكفي وحدها في تشكيل خاصة الصمود ، فلا بد أن تنضاف اليها الثقة بالنفس في هذا الصمود .

جانب آخر للمسألة : الفنان ، حتى لو امتلك مفهوما علميا ، يظل على مبعدة ، الى أمام ، في تخيله صيرورة الاشياء . يحلم ، وهذا زاده ، يسبق الحاضر في استشراف الآتي ، واذ يكون داعية للثورة ، يتخيلها في الوان قوس قزحية ، في تكثيف شديد ، يختصر المراحل ، وحين تحدث الثورة ، وتحمل في اندفاعها السيلي ، الحصى والتراب والاوشاب ، يفاجأ ان مياهها غير صافية ، وان أشياءها ليست قوس قزحية كما تصور ، ويصدمه ان القيم التي توقع انتصارها بانتصار الثورة لم تتحقق كلها ، ومن هنا ينشأ التعارض بين خياله عن الثورة وواقعه فيها ، وهذا يعود الى علو او انخفاض نقطة الملاحظة كما قال غوركي ، الكاتب البروليتاري الفذ لعصرنا ، الذي وقع في هذا التعارض ، واعترف به .

ان عمر ثورة اوكتوبر خمسون عاما ونيف . وهو عمر كامل للانسان ، ولكنه زمن لا يرى بالمجهر بالنسبة للكون ، وزمن قصير بالنسبة للمجتمع ، ومع ذلك كم من الانجازات تحقق خلال هذه الاعوام ؟

ان الذين لا يملكون علوا في نقطة الملاحظة ، ويقيسون الامور بالخط المستقيم ، وبزمن العمر الشخصي ، يريدون من هذه الثورة ان تحقق ، في هذا المدى القصير ، كل اهدافها ، وكل خيالاتهم عن البناء الفوقي فيها، وهذا مستحيل ، لا معقول علميا . ولانهم لا يرغبون في فهم هذه الحقيقة ، يبدون وكأن آمالهم قد خابت ، وينقلبون الى متشائمين ، وينزلقون على وحل المرحلة ، وقد يشهرون القلم ضد الثورة أو يعمدون ، لستر تنازلاتهم المبدئية ، الى تفسيرات تحريفية يزعمونها تجديدا ثوريا في أيامنا هذه .

ناظم حكمت افلت من هذا الفخ أيضا . عاش في الاتحاد السوفياتي ثلاثة عشر عاما ، ووجد بلا شك انجازات ضخمة ، لكنه وجد ، في المقابل ، فارقا بين خياله الشاعري والواقع الموضوعي للبناء الفوقي ، وتألم من

البيروقراطية والنواقص والاخطاء ، لكنه كان يملك علوا في نقطة الملاحظة ، ففهم ان هذه اللطخات على وجه النظام الاشتراكي الى زوال ، وزوالها رهن بزمن مرحلي لا يمكن حرقه أو القفز عليه ، وكل ما يمكن هو التسريع به ، وهذا ما يجري العمل لاجله . وحين ، كما يروى ، أقدم شاعر سوفياتي محدود ، بدافع الحسد أو العداء ، على شتم ناظم اثر نقاش بينهما ، تألم هذا وثار برجولة وكبرياء ، الا انه لم يخلط بين النظام الاشتراكي واحد ابناء هذا النظام ، وقال للذين قدموا خدودهم من الكتاب والشعراء ليرد الاهانة عليها : « يا أصدقائي ، لا تعاملوني كطفل عاجز عن التمييز » . وعفا عن الرجل الذي اعتذر ، وقال مؤكدا : « وجودي هنا مرتبط بقضية لا بأشخاص » .

شاعر آخر تقدمي ، لجأ الى الاتحاد السوفياتي فاكرمه ، وأكرمه ناظم حكمت نفسه ، باسم الزمالة والنضال . وسرعان ما قادته ذاتيته الى تناسي واجبات البلد المضيف تجاه لاجئين غيره ، والتزاماته أمام حركة التحرر الوطني والحركة الثورية العالمية ، والنواقص التي لا تزال موجودة، فحكم على النظام بقشر النواقص ، وغادر البلد الذي أضافه ليشتمه من بعيد ، فكان أن تورط ، هذا الشاعر ، في العدم البودليري والضياع « انا منفي داخل نفسي وخارجها ، مبصر أعمى ، ميت حي ، في حوار ابدي اخرس مع موتي في رحلة الليل بالنهار » (١) .

هذان الموقفان النموذجيان يضيفان جديدا الى قضية الصمود عند ناظم حكمت . ولكن اذا قصرنا فعل الصمود عنده على الكفاح الوطني والاجتماعي ، بقيت في الظل الناحية الذاتية والعاطفية ، ومعنى الصمود فيهما . لقد تحدث ناظم عن نفسه بمقدار ما تحدث عن الآخرين . من نظرة سريعة على اشعاره ، نجد انه كتب سيرة حياته شعرا : وطنه تركيا ، الاناضول ، مدينته استانبول ، زوجه منور ، ابنه محمد ، أصدقاؤه ، معارفه ، وقائعه قبل السجن وخلاله وبعده ، رحلاته ومشاهداته . والمرء ليذهل حقا كيف تنقلب الشؤون اليومية العادية ، والاحاسيس البسيطة ، والذكريات الصغيرة الى مواضيع شعرية معدية ومثيرة عنده ، وكيف تمسه الاحداث الفردية بقدر ما تمسه الاحداث الاجتماعية ، وكيف تنعكس الطبيعة

---

(١) انظر « تجربتي الشعرية » لعبد الوهاب البياتي ، مجلة « المعرفة » ، العدد ٧٧ تموز ١٩٦٨ .

بمدنها وأريافها وبحارها وجبالها في شعره ، بالقدر الذي تنعكس فيه حيوات الناس وأفكارهم ومفاهيمهم .

اننا نعرف يونس وعثمان وعائشة وبيرم وكل الناس البسطاء الذين تحدث عنهم ، بمثل ما نعرف لينين واوستانكل وتارانتا بابو . وفي وطنه والعالم ، كان قراؤه يتابعون بلهفة وتعاطف بالفين حكايات وأحاديث وآمال واشواق وعذابات زملائه السجناء :

وجهه أبيض .
والنافذة مفتوحة
والدنيا ليل
والدنيا صيف
وكلانا في الزنزانة
وكان يتحدث :
ـ اريد أن يغني أطفالنا
حين يعودون متشابكي الايدي
من حدائق الاطفال
الاغاني التي غنيتها لنفسي .
ان أجمل ما سمعته من أصوات
سؤال طفل عن النجوم
وهو ينام على ركبتي في ليلة صيف .

وفي لحظات التخيل ، حين تتقارب الابعاد ، وتنهدم الحواجز بين من هم في الداخل والخارج ، كان ينطلق من سجنه الى المدينة ، الى العالم ، ويستضيف ناس وطنه وناس العالم ، فيكلمهم ، ويصغي اليهم ، ويبثهم عواطفه ، ويتقبل عواطفهم ، كأنما لا سجن ولا زنزانات ولا قيود في الارساغ :

اهلا بزوجتي اهلا
تعبة انت
فكيف افعل ؟
لو اردت غسل قدميك
فلا ماء عندي ولا طست من ذهب
وانت عطشى

ولا ماء مثلج أكرمك به
وانت جائعة
ولا مائدة بغطاء كتاني امدّها لك
غرفتي مثل وطني
اسيرة وفقيرة
منذ وطئت قدماك غرفتي
أورق « البيطون » وصار أخضر
بعد اربعين عاما
أورق « البيطون » وصار أخضر .

انما حذار ! القلب الذي وسع الكون حبا وخصبا وتضحية ، قد وسع الغضب المقدس أيضا . لقد أحب أبناء وطنه ، وصوّرهم في شجاعتهم وجبنهم وحكمتهم وجهلهم ، وكره ما يمثل بعضهم من معاني الظلم والغدر والخيانة ، وساط هؤلاء بسير من نار . رفض الذل ، ولم يقبل الضعة حتى في الحب . وفي قصيدته « المارد ذو العينين الزرقاوين » أعطى للفراق بين المارد وحبيبته الناعمة طابع الحسم ، لان هذه تعبت في دروب المارد الواسعة ، وأرادته أن ينقلب الى قزم ، وفضلت عليه ثريا يوفر لها مسكنا في حديقته يتموج السوسن . ولكم لوت الايام من شكائم المناضلين ، لا بقوة الحديد والسجن والمشنقة ، بل بفتنة الاحضان الدافئة والحدائق السوسنية ، ولكن المناضلين المردة يظلون مردة ، يحبون كمردة لا كأقزام، ويرفضون التحول ، مثل بودلير ، الى « قط عند قدمي ملكة » .

وقد كان ناظم حكمت ماردا في حبه وعقيدته وكفاحه بل وحياته كلها . كان « سيد من بنى الاساطير وهدم الاساطير .. ومن غنى الحرية والفرح وآمال وحكايات القوم البسطاء » (١) . ولقد هتف بالناس ، وهو في انياب العذاب واعماق السجن : « الحياة ليست دعابة ، فلنعشها بجد » ورأى العيش جميلا ، جديرا بأن يحب وهو يمارس أقبح العيش وابغضه ، وتغنى ببلاده حتى صار « حبالوطن » أقنوما له ، فتساءلت مجلة «مغازين» التركية الاسبوعية وهي مدهوشة : « هل سبق وقرأتم شعرا يمنح من اعماقه هذا المقدار من الحب للوطن ؟! » . ووثق بالانسان ودوره وفرديته وجماعيته وامكانية تكوينه على النفع والخير . وكرّس قلمه وحياته لاجله ، ممجدا ، في كل لحظة ، الجانب الحي الملتهب فيه ، المشع كالشمس ،

---

(١) الدكتور علي سعد : « من شعر ناظم حكمت » .

لاعنا الجانب الميت الخامد كبركان ، المنطفىء كالقمر ــ وقلما ذكر ناظم القمر في قصائده ــ داعيا اياه الى الصمود في معركة المستقبل ، والى المقاومة ، والانقضاض على المستحيل ، على الشمس ، للقبض على الشمس .

هذه اغنية :

أغنية الذين يشربون الشمس ،
في اقداح من فخار .
لقد استمدت أفئدتنا عزمها من الارض ،
فمزقنا أشداق الاسود ،
ذات اللبد ،
ومضينــا ،
وقفــزنا الى الرياح ذات البروق ،
وامتطينــا ،
كنسور تنقضّ من شاهق لشاهق .

. . .

الا فليتنكب طريقنا ،
أولئك المنتحبون في البيوت ،
الحاملون دموعهم ، كسلاسل ثقيلة ،
في اعناقهم .
ليتركونا ،
ليتركنا الذين يعيشون على قشور
قلوبهم ،
ولتشتعل ملايين القلوب ،
في النار المتساقطة .
ولتنزع أنت أيضا ،
قلبك من قفص صدرك ،
ولتقذف به في تلك النار ،
المتساقطة من الشمس .
اقذف بقلبك بين قلوبنا .
انه الانقضاض على الشمس ،
للقبض على الشمس .

. . .

وقريبا نقبض على الشمس .

٢

فهل قبض على الشمس ؟ نعم ، مجازيا .. قبض على دفة حياته . كانت كما أرادها أن تكون : ملتهبة ! واذ اضع في النور جانبا من حياته ، بينما أتحدث عن شعره ، أجد ذلك بالغ الاهمية في ذاته ، لكنني أتخذه وسيلة لا غاية ، فانا لا اكتب السيرة الشخصية لناظم ، بل ابحث عن اثرها في شعره ، في قضيته الشعرية التي أفلتت ، كما أشرت ، من جعل التلقي والاداء جدولا بيانيا ، كشفا بحساب الصادر والوارد في « دفتر ذمة » الواقع ، كما أفلتت من جعلهما معادلة رياضية للمقولات المعرفية المرصوفة في كتب الفلسفة والاجتماع .

« العيش شيء جميل يا صاحبي » . هذا العنوان الذي جعله ناظم اسما لاحدى رواياته ، يمكن أن يضع في يدنا مفتاح قضيته الحياتية ، ومن ثم قضيته الشعرية . انه يعيش لان العيش شيء جميل ، وهو جميل الى الحد الذي يدفعنا الى التمسك به برغم الشقاء . فالحياة ليست دعابة . وعلينا أن نحياها بجد الى درجة أن نموت في سبيل بقائها . وحين يعيش المرء حياته بهذا الاحساس والتقدير ، يمتلىء بها ويفيض ، ومن الفيض كان الابداع البشري والفني .

وسنرى ، بعد قليل ، ان ناظم حكمت يتبنى وجهة النظر هذه كمفهوم شعري . فهو يعتبر الشاعر انسانا هو ذاته ، حين يحيا ، وينظم الشعر ، ويتحدث ، ويحاور : « ان الشاعر لم يهبط من وهم التحليق بين الغيوم ، بل هو مواطن في غمار الحياة ومشكلاتها » .

وقد طبق مفهومه هذا على حياته ، او الاصح ان حياته هي التي بلورت له مفهومه هذا ، لانه لم يات هذه الدنيا شاعرا أولا ، وانسانا ثانيا ، ولا جاءها انسانا في مرحلة ثم شاعرا في مرحلة اخرى ، بل كان

انسانا وشاعرا معا ، في العيش والمعاملة والكفاح والحب والحديث والحوار، كان ممتلئا بالحياة ، فائضا بالشعر بفعل الامتلاء .

ان تجربة ما ، لا تعطي فنا ما بالضرورة . غير ان التجارب الضخمة ، الحياتية والنفسية ، هي التي اعطت وتعطي دائما ، فنا ضخما . وما من شك ان الكفاح السياسي والاجتماعي هو أضخم هذه التجارب ، واشدها تنوعا ، وتلوينا ، وقسوة ورقة ، بخلاف ما هو شائع عن احاديتها في التنوع واللون والقسوة . لقد عاش المتنبي ، اكبر واضخم شعرائنا ، كفاحا متواصلا . ومهما يكن هدف هذا الكفاح ، فانه امتد حتى غطى رحلة عمره تقريبا ، فلم تنتج عنه تلك الاحادية التي تتميز بالقسوة دون الرقة ، وباللون الحاد دون اللين ، أو الشعر السياسي دون الشعر الوجداني ، بل ان دنيا المتنبي الشعرية تحفل بكل هذه الاشياء ، وتصوغها اصدق صياغة ، بسبب من ان قضيته الشعرية قد كانت ، اصلا ، قضية حياتية ، فحبه يقترن بكفاحه ، وكفاحه يمتزج بحبه ، وهو اذ يتغزل بحبيبته يتغزل بنضاله ، واذ يذكر خصوماته السياسية ، يذكر منازله التي شردته عنها تلك الخصومات ، وحين يهجو كافورا ، يبدأ هجاءه بغناء يترجم عن النفس الحزينة « الجريحة » التي يعمق هجاؤها بقدر ما تعمق احزانها وجراحها :

عيد ، بأية حال عدت يا عيد
بما مضى ام لامر فيك تجديد
اما الاحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيد
اصخرة انا ؟ مالي لا تحركني
هذي المدام ولا هذي الاغاريد
اذا طلبت كميت اللون صافية
وجدتها وحبيب النفس مفقود

. . .

لك يا منازل في القلوب منازل
اقفرت انت وهن منك اواهل

. . .

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق
واحلى الهوى ما شك في الوصل ربه
وفي الهجر ، فهو الدهر يرجو ويتقي
وما كل من يهوى بعفّ اذا خلا
عفافي ويرضى الحب والخيل تلتقي

كذلك عاش ناظم حكمت حياة كفاحية متواصلة . ولا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من الرؤية الاجتماعية أو السياسية . حتى لقد قلت ، سابقا، ان قضيته الشعرية ستتحدد ، وتتفسر بنضاله ضد الرجعية والفاشية ، وضد حليفهما ، الاستعمار والراسمالية ، ولكن شعره سيظل اغنى شعر عرفه قرننا من حيث التنوع والرقة والعذوبة والخيال ، وسيحفل بالاحاسيس والمشاعر والبدوات والخفقات الوجدانية والنفسية والقلبية بمثل ، أو بأشد ، مما حفل بها شعر من ندعوهم بالغزليين والوجدانيين والغنائيين من القدامى والمحدثين على السواء .

واذا سألتم : كيف ؟ ولماذا ؟ فلن تحصلوا الا على الجواب نفسه : لانه عاش الحياة ، عرضا وطولا وعمقا ، كشيء جميل ، جدير بأن يعاش ، وفي كل الظروف . لقد كان ، بحق ، ابنا لبيئته ، ومواطنا لوطنه ، وانسانا على رحب الانسانية ، وثائرا على مدى الثورة ، وعاشقا بكل جوارحه واعصابه وذرة من كيانه . كان ، باختصار ، بحارا ، طوال عمره . جاب كل البحار، صارع ، عشق ، تألم ، سعد ، يئس ، أمل ، جرب ، مارس واخترع . وكان في ذلك كله عفويا وواعيا ، وكان صادقا وحارا ، لذلك كان أصيلا في معاناته ولغته وانتمائه ووطنيته وانسانيته وتعامله مع الواقع واعادة تركيبه له . وكان دائما لديه ما يقوله ، فهو يتعاطى الفن وسيلة تعبير عما يجيش به صدره ، ولا يتعاطاه شهوة شهرة ، يبحث ، لاكتسابها ، عما يقول ، واضعا سبابته على صدغه بانتظار هبوط الوحي .

ولئن أعوزتنا المعلومات الصحيحة التي تساعدنا في تقدير ثقافته الاولى ، البيتية ، فان نشأته ، في بيت ثقافة وفن (والده مدير للمطبوعات وامه رسامة) تسمح لنا بأن نعطي لتلك الثقافة الاولية صفة الجودة ، وخاصة من ناحية التراث الادبي والفولكلوري ، ومن ناحية الاطلاع على الحياة التركية كماض وحاضر . وعلى التاريخ ، والبيئة ، وجغرافية الوطن، ارضا وبشرا .

والظاهر انه بدأ بنظم الشعر خلال دراسته الثانوية وبعدها ، وفي الثامنة عشرة من عمره كان ينشر قصائده في الصحف ، حسب ما يقوله كرّاس صغير باللغة التركية والاحرف اللاتينية عنوانه : « ناظم حكمت ، حياته ، مختارات من شعره ونثره » .

لكن واضع الكرّاس لم يعن باعطائنا لمحة عنطفولة ناظم وحياتهالخاصة في الفتوة والصبا . ستظل هذه الفترة مجهولة الا من مؤشراتها الرئيسية : المدارس التي تلقى العلم فيها ، أمكنتها ، اصابته بذات الرئة ، اجتيازه الاناضول للقتال في حرب الاستقلال عام ١٩٢٠ ، اعجاب أتاتورك به ، ايفاده الى الاتحاد السوفياتي للدراسة في جامعة العلوم السياسية عام ١٩٢١ ، وعمره تسعة عشر عاما . وهو يؤرخ لهذا العام باحتفاء كبير في قصيدته « عامي الـ ١٩ » التي يعتبرها بداية حياته كانسان وشاعر :

يا طفلي الاول
معلمي الاول
رفيقي الاول
العام التاسع عشر من عمري .
اني احترمك كأمي ،
ولسوف احترمك .
اني اسير في الطريق الذي سلكته
ولسوف اسير .
راسي يتدحرج بعيدا (١)
ويجلس العام التاسع عشر من عمري ،
على حافة سريري .
بين راحتيّ ،
ويقول لي :
لنتذكر معا
أيام شبابنا .
لقد مرت ،
يا عامي التاسع عشر ،
تسع سنوات من عمري

---

(١) يفكر في الماضي البعيد .

منذ أحرقنا أغصان الصنوبر ،
في الغابة ،
وأنشدنا الاغاني ،
بصوت واحد
ونظرنا الى القمر ،
في الليل .
انا لا أزال أغني القصائد ذاتها ،
فلم تحولني الريح ،
الى ورقة في مهب الريح ،
لقد سقت الريح ، امامي .
وانت !
يا من تستطيع تحطيم ما لا يحطم
أنت قادر على التحديق في عينيّ
والضغط على يدي .
وانت !
يا من ...
انت وحدك
يا طفلي الاول ،
معلمي الاول
رفيقي الاول
العام التاسع عشر
من عمري .

ومن الصعب ان نعتبر هذه القصيدة من بدايات ناظم الشعرية . فقد كتبها ، كما هو واضح منها ، بعد سنوات تسع من ذلك العام . وهي من الشعر الناضج وليست من المحاولات . والمرجح انه بدأ ينشر الشعر وهو صغير السن ، ومنذ أن فعل لفت اليه الانتباه (١) . وعلى هذا فان الشعر

(١) يقول اكمل الدين احسان في دراسته لمسرحية « حكاية حب » ان ناظم حكمت نشر ، عقب سقوط مدينتي « ادرنة » و « بورصة » قصيدتي « الاختان » و « اسير الاربعين حرامي » ، يصف فيهما الواقع السيىء الذي وصل اليه وطنه . وفي العام نفسه ١٩٢٠ ، غادر مع زميله « والا نور الدين » استانبول التي استولى عليهـا الحلفاء ، والتحقا بجبهة « النضال القومي » في الاناضول بقيادة اتاتورك .

الذي نشره في الصحف ليس من البدايات ، وقد سبقته ، أغلب الظن ، محاولات شعرية في المدرسة الثانوية وخارجها ، وسبقته محاولات شعرية قبل أن يعبر الاناضول ليشترك في حرب الاستقلال وخلالها ، ونحن لا نقع ، حتى الآن ، على هذه المحاولات التي قد تكون من الشعر الناضج أيضا ، ولا غرابة ، فعبقرية ناظم ، وسير الشعراء العباقرة ، تبرران هذا النضوج المبكر ، غير ان تلك المحاولات ، على نضجها ، تحمل ملامحها : عفويتها ، اندفاعاتها ، الالهامات الاولى التي بعثتها ، وتهاويل الصبا الاول وتصوراته ، وتضع في يدنا خيط المتابعة ، فيما تلا من تطورات حياتية وشعرية ، سنذكرها في حينها . ومن المؤسف ان هذه المحاولات غير معروفة حتى الآن .

يقول بعض الدارسين ان ناظم حكمت ، بدأ ينظم الشعر وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وانه نشر اولى قصائده عام ١٩١٧ . ومع اختلاف المؤرخين الاتراك حول العام الذي ولد فيه ناظم (١٩٠١ أم ١٩٠٢) يكون قد نشر اولى هذه القصائد في السادسة عشرة أو الخامسة عشرة ، وهو ، في كل حال ، تاريخ مبكر .

ومهما يكن ، فالثابت انه نظم الشعر وهو حدث ، ونشره حدثا أيضا ، وان قصيدته الاولى المنشورة ليست محاولته الاولى ، وانه حين عبر دروب آسيا الى الشمال ، في التاسعة عشرة من عمره ، كان شاعرا مبتدئا ، ولكن لافتا للنظر ، غير ان تكونه الشعري سيتم في الاتحاد السوفياتي الذي امتدت اقامته فيه من عام ١٩٢١ الى ١٩٢٤ ، حين عاد الى وطنه تركيا التي ظفرت باستقلالها وأجلت المحتلين عن أراضيها ، وفي العام نفسه انضم الى الحزب الشيوعي التركي ، وفي العام التالي ١٩٢٥ ، حكم عليه بالسجن ١٥ عاما ، فهاجر الى الاتحاد السوفياتي ، وعاش في باكو عاصمة جمهورية أذربيجان السوفياتية ، وفيها أصدر ديوانه الاول « الذين يسكرون بالشمس » نسبة الى قصيدته « الى المسافرين نحو غاياتهم » وفيها يقول : « هذه أغنية ، أغنية الذين يشربون الشمس في أقداح من فخار » التي قدمنا مقطعا منها .

عام ١٩٢٩ ، أي بعد عودته الى تركيا بسنة واحدة ، أصدر أهم دواوينه من ناحية تثبيت نهجه الشعري الجديد ، وهو « ٨٣٥ سطرا » ، وقد مجد فيه الثورة وابطالها ، وثار على الاشكال العروضية في الشعر التركي وحطمها ، واصطنع وزنا حرا فيه نمط جديد من الايقاعات والمقاطع المتدرجة ،

التي تتدفق في أول القصيدة ثم تتنامى وتتغير ، مع الاحتفاظ ، أحيانا ، بما يشبه اللازمة من المقاطع المتكررة التي يراد لها ان تتثبت وتترسخ في الذهن . وقد ظل ناظم طليقا حتى العام ١٩٢٦ ، وفيه نشر ملحمته الشعرية « الشيخ بدر الدين » التي نالت شهرة عالمية ، وهي استعادة لكفاح ثائر تركي من القرن الرابع عشر ، لقي حتفه في نهاية كفاحه .

ويدخل ناظم السجن في العام نفسه ، ليمكث فيه سنوات طوالا يكتب خلالها اجمل شعره على الاطلاق ، الشعر الذي سيقول فيه معجم الادب العالمي (ص ٥٤٩) : « كانت سنوات السجن بالنسبة لناظم حكمت تعني تعميقا وتطويرا لابداعه الشعري . فعن طريق الصياغة التصويرية المتغلغلة الى داخل الاشياء ، المعبرة عن الخصائص الانسانية في صلتها بالحياة الاجتماعية ، وصل الى ذروة التجسيد الشعري ، وان كانت تتردد في قصائده غنائية تجنبها فيما بعد » . وفي سنوات السجن هذه ، كتب ناظم ملحمته « الكبرياء القومية » ، المكملة للحمة « الشيخ بدر الدين » ، والتي تعدّ من اهم اعماله الشعرية .

ومنذ عام ١٩٥٠ ، وعلى مدى ثلاثة عشر عاما ، تبدأ المرحلة الرابعة في حياة الشاعر . يخرج من السجن مريضا ، ويظل يكلم نفسه بصوت عال بفعل عادة اكتسبها في السجن الانفرادي ، ويعيش ذكريات الماضي : الوطن ، والنضال ، وتركياه الفقيرة ، وقارته الآسيوية (بمستنقعاتها الموبوءة ، والدم الاصفر الذي يتحول الى قطع من ذهب براق في صناديق اصحاب المصارف التي تمتص ، كغول أسطوري ، نسغ الحياة من الناس) ، وزوجه منور ، وابنه محمد ، ورفاقه الذين في السجون ، كل هذه الذكريات التي تعتاده في غربته ، تبهظه ، وتشكل لديه ، ذلك الشعور الحاد بالمنفى ، وذلك التفجر الشعري العظيم ، صياغة لصبوات ناسه وناس العالم ، وتعبيرا عن طموح هؤلاء جميعا الى تغيير واقعهم ، وحقدهم على الذين فرضوا هذا الواقع ، وكفاحهم البطولي ضده .

وفي كل مراحل حياته ، سيظل ناظم ذلك الثائر الذي يجعل من الثورة قضية شعرية ، ومن الفعل الانساني فعلا شعريا ، يحتوي ـ ويعكس ـ ادق خلجات قلب الانسان في القرن العشرين ، القلب الذي يعرف أن يمزج الخاص بالعام والعام بالخاص ، في وحدة الفرد والمجموع ، في خفقة الحب ، ودفقة الحنان ، في صلابة الموقف وقسوة المجابهة ، في ذوبان العاطفة ، امام طفل يبكي ، وتحجرها ، تحديا ، امام جلاد يعدّ الانشوطة ، في ادراك

الوجه المجيد للعصر ومباركته ، وفهم الوجه السافل له ولعنه .

كذلك ، سيظل ناظم الانسان الذي يعرف أن يتألم ، ويعرف ، بقدر اعظم ، أن يمزج المه بآلام الآخرين ، يعرف أن يفرح ، ويعرف، بشكل اروع، أن يعمل لفرح الغير ، عبر التضحية التي تبلغ حدّ الاحتراق لانارة الظلمة :

ان لم احترق انا
وتحترق انت
ونحترق نحن
فمن ذا الذي
ينير هذه الظلمات ؟

ان العنف الراعف من هذه الكلمات ، في الدعوة الى الاحتراق للانارة، ليس من خطب الحماسة . الاثارة في الشعر لعبة تشنج لفظي حين لا تطرح بُعدها الفكري . وناظم في صدق دعوته ، وفنية طرحها ، والواقع الذي يبني عليه طموحه للتضحية ، فوق الحاجة للحماسة والاثارة ، الا ان تكونا نابعتين من ذات « الفعل الشعري » لتشكلا المحرض الاساسي ، جماليا وفكريا . اما العنف في الثورة على الواقع ، فهو رد على عنف الواقع ، حين تنبت له ، كالقنفذ ، اشواك مدمية ، أي انه ، وراثة غضب من عصور السوء على السوء نفسه .

ورثت عنفي عن العصور
فكل بيت في شعري ،
يشبه البركان .

والبركان الذي يعنيه هنا ، والذي يشكل عنفه الثوري ، لا يأتي عن طريق المعنى الحرفي للكلمة . فنحن قد نقرأ قصيدته الى زوجه منور ، أو ابنه محمد ، وقد نقرأ قصيدته في « بحر الخزر » أو « رجل من الشرق » ، فنخرج منها جميعا بانطباع يعلو على عادية الاشياء ، يمدينا بالتيار المكهرب للعاطفة المتفجرة في الحب والابوة ، والصداقة ، وتذوق الطبيعة ، والفتنة بالبحر ، وهتفة الوجد أمام كل جديد وثائر في الدنيا . لقد قتل « العادية » في الاشياء ولم يتعامل معها . أدار ظهره للتفاهة والزيف والرفرفة الزمجية (١) على وجه الغمر ، وعانق الصدق والحرارة

(١) نسبة الى طير الزمج الذي يرفرف على وجه البحر مذعورا قبيل العاصفة .

والاصالة في أقواله وألوانه ، ومن هذا الصدق كـان العنف ضد العنف ، ضد قنفذية السوء .

في كلامه على « العالم الشعري عند لوركا » يقول الدكتور علي سعد : « ان شعر لوركا لا يبدو مؤلفا من تراكيب عقلية ولا من مـواقف فكرية أو ذهنية معينة يضرب فيها المنطق أو المعرفـــة بسهم كبير . انه يبدو أكثر ارتكازا على صور منتزعة من تجربتـــه الشخصية المبـــاشرة ومن التراث الاسباني : الشعري والشعبي على السواء ... ان عالمه الشعري يقوم قبل كل شيء على أساس واقعي متصل بمحيطـــه الاسباني عن طريق ملاحظته الصادقة للظاهر المحسوس من الاشياء ، ولكن يقوم في فلك هـذا الاساس الواقعي مدى من عمل الخيال يتحول فيه العالم الواقعي الى عالم تصويري مشحون بالمعاني والرموز والايماءات ، ولا يقل حقيقـــة عن العالم الاول ، ويتصف بحياة وبنواميس خاصة به » (١) .

يمكن ، مع خط تشديد تحت الكلمات ، أن نستعير العبارات التالية : لا يبدو (عالمه الشعري) مؤلفا من تراكيب عقليـــة ، ولا من مواقف فكريـــة أو ذهنية معينة يضرب فيها المنطق أو المعرفة بسهم كبير .. انه يبدو أكثر ارتكازا على صور منتزعة من تجربته الشخصية .. يقوم قبل كل شيء على أساس واقعي متصل بمحيطه عن طريق ملاحظته الصادقة للظاهر المحسوس للاشياء ... وعلى مدى من عمل الخيال يتحول فيه العالم الواقعي الـــى عالم تصويري مشحون بالرموز والمعاني والايماءات .

خط التشديد هذا ، مع فارق ، ان المنطق والمعرفة يضربان بسهم في شعر ناظم ، ولكن بغير اسقاط خارجي لهما على الصيغ . فشعره ، وربما بشكل مذهل ، يبدو عفويا ، لكن « انسحاق الشعور بالعفوية لا يتم بصورة عفوية » لديه ، كما لاحظ لينين على بعض الكتاب . ان وعيه يعطي العذوبة، في عملية الاختيار ، صحتها ، يجعلها طبيعيـــة وتلقائية . ثم ان الوعـــي الاجتماعي عنده ، يختلف عنه عند لوركا ، يتقدمه زمنيا وتعبيريا ، ولكن هذا الوعي ، في شعره ، يظل مضمرا ، كما عنـــد لوركا ، مرتكزا عـلى الصورة والرمز والايماء مثله أيضـــا ، لان كلا الشـــاعرين ، عرف كيف يستخدم تجربته الشخصية وتراثه الشعبي .

---

(١) « لوركا شاعر اسبانيا » ص ٧٦ ـ ٧٧ .

ولو عاد القارىء الى « الناظرون الى النجوم » (١) فلن يجد ، على ما في هذه المنتخبات من لون كفاحي ، كلمات مثل : الاستعمار والامبريالية والرجعية والفاشية والدكتاتورية ، مع ان قصائده ، جميعها ، تتناولها . سيحسّ بأنه يتكلم عليها ، يلعنها ويرجمها ، وسينفعل بهذا الاحساس ، وتخرج الكلمات ، بكل طاقاتها ، من صدره ، لهبا غضوبا ، كما خرجت من صدر الشاعر ، لكن القارىء ، في أحاسيسه هذه ، يعيش صور الاشياء ، معانيها ، ايماءاتها ، لا مباشرتها . فناظم يمزج العالم الحقيقي بالعالم الرمزي ، ويستند على الكنايات والاستعارات ، ويستدعي الشخوص والقصص والاساطير ليعطي من خلالها ، من ذكرياته عنها ، من الوصف الحسي لها ، المحمول على الخيال ، ومن واقعها ، المذاب بالرؤى ، والتهاويل ، لوحاته الشعرية المشحونة بأفكاره ومشاعره في كلّ واحد لا يتجزأ .

تغتال الرجعية التركية خمسة عشر مناضلا ثوريا ، فيكتب ناظم قصيدة يصف فيها الاثر الذي خلفه استشهاد هؤلاء الثوار في النفوس ، ويؤكد ان الثورة كحركة تنفس صحي في جسم الامة ، باقية ، وان الظلام ، في عيون الشهداء ، قد صار شموسا في سماء البلاد :

خمسة عشر جرحا في صدري
خمسة عشر نصلا
سود مقابضها
وقلبي لم يزل يخفق
قلبي لم يزل يخفق

• • •

خمسة عشر جرحا في صدري
ومن جراحي الخمسة عشر
سطعت خمس عشرة شعلة .
لقد ظنوا ان قلبي لن يخفق بعد اليوم
لكن قلبي لم يزل يخفق
كراية يخفق ..
وسيظل ،

---

(١) مجموعة قصائد لناظم حكمت ، معظمها من الشعر النضالي ، حسبما وردت في منتخبات شعرية له ، صادرة في صوفيا باللغة التركية ، ترجمة ثابت عزاوي ، مطبوعات « دار الجماهير » .

يخفق
يخفـ
يخـ .. (من قصيدة قلبي) .

انه يرمز بالقلب الى الثورة ، وبخفقانه الى استمرارها ، وبالشهداء الى الشعلات ، وبالخناجر الى أدوات الاغتيال . ويجلو كل هذه المعاني دون أن يسميها . وقد نقرأ القصيدة ولا نتوصل الى ما يقصده ، كواقع ، ولكننا نحسّ بذلك كخيال ، نعيشه ، في قلبنا ، ونتلمس ، منفعلين ، هذا القلب المثقوب خمس عشرة مرة ، الخافق ، أبدا ، برغم هذه الثقوب وبقدرة على الحياة أقوى من قدرة الرصاصات على الاماتة . وفي الاضافة الباقية ، خارج الزمان والمكان المحددين ، تعيش قصيدة « قلبي » كل زمان ومكان ، حاملة خصوصية وعمومية الالم ومعنى الصمود له .

واذ يبتدع تاريخ القهر ، على مداه الطويل ، السجن الانفرادي كوسيلة للعزل والقتل البطيء ، يبتدع تاريخ الكفاح ، على مداه الطويل أيضا ، الفيض الشعوري ، ليقيم الاتصال ، برغم جدران السجون ، بين من هم داخلها وخارجها . ويصوغ ناظم هذه « الرياضة الروحية » للمكافحين ، هذه الاداة القاهرة للقهر ، في قصيدته « شغلي الشاغل » .

فيما بيئتنا ، تستنير بقرون ثيراننا ،
أحرث أنا الارض بكبرياء صبر ،
وفوق قدميّ الحافيتين الوحل والتراب .
وأحيانا أنفض الغبار عن جسمي ،
واطرق الحديد بساعدي حتى الظهر ،
فتصطبغ الظلمة بالاحمرار .
وفي الهاجرة أعارك الزيتون ،
ذا الخضرة الاحلى في الاوراق .
فيغمرني الضياء
من رأسي الى وجهي وعيوني وجسمي .
وكل مساء أستقبل ضيوفا .
فبابي مفتوح على مصراعيه لجميع الاتراك .
وفي الليل أخوض في الماء حتى الركبتين ،
ساحبا من البحر شباكي ،
ملأى بالاسماك ونجوم البحر .

واخيرا صرت اسأل :
عن احوال الدنيا .
عن الانسان والارض ،
عن الظلمة والنور .
وادركت اني عاشق ، من رأسي
الى اخمص قدمي ،
فيا وردتي !
لا تلهيني بالكلام ،
شغلي الشاغل ،
ان أصير عشيقك .

ان النواويس الحجرية ليست قبورا للاموات وحدهم ، بل للاحياء ايضا . بعضنا يعيش في ناووس آلامه الخاصة ولا الم . يا للذاتية البغيضة ! حتى وهو بين الاحياء ، يأخذ ويعطي ، يحب ويبغض ، ينتقل بين المدن ، بمهمة السائح ، وينزل قصور الضيافة ، مشرعة له أبواب الضيافة ، ثم يطلع على الناس بقصائد تحكي عن تشرده على أبواب العالم السبع . ويقول انه عرف كل سجون العالم القديم ، وهو يكتشف سجون العالم الجديد « والموت في اقبية المدينة . . وغرف الفنادق اللعينة » . ولو عرف السجون ، واقبية المدينة ، لما تحدث عنها بهذا الخوف منها ، وبهذه الكابوسية الاصطناعية لها . سجونه واقبيته هي سجون وأقبية العزلة ، بعيدا عن الناس وهو بينهم . وكذلك حال من تفرغ لنفسه ، من عبدها ، وجعلها ناووسه السائر به على السجاد ، والنائم معه على الحرير ، والمدفون به حيا قبل ان يموت .

ناظم كان في الزنزانة . طوال اربعة عشر عاما كان في الزنزانة ، في هذا الناووس الحجري الحقيقي ، معزولا عن الناس بالقوة الخارجية ، موصولا بهم بالقوة الداخلية . لقد منعوه من الذهاب اليهم ، فكيف يستطيعون منعه من استحضارهم اليه ؟

كل مساء أستقبل ضيوفا ،
فبابي مفتوح على مصراعيه لجميع الاتراك ،

وحرموا عليه أن يسعى كما يسعون ، ويكسب كما يكسبون ، ويحب ويعشق كما يفعلون ، لكنهم أعجز من أن يجعلوا كفه خالية ، وشباكه فارغة ، وقلبه حجرا معلقا في الجانب الايسر من صدره .

وفي الليل اخوض الماء حتى الركبتين
ساحبا من البحر شباكي
ملأى بالاسماك ونجوم البحر .

مباركة شباكك أيها الصياد الماهر ! وحلال عليك هذه الاسماك والنجوم ! فان بوابات العالم السبع مفتوحة لك برغم انغلاق بوابة سجنك ، وبحوره السبعة في متناول شباكك ، وفي يديك الاسماك والنجوم، ولينتحر الناووس والحرمان ، ما دام عشق الحياة ، التواجد فيها وانت مقصي عنها ، صناعة ارادة ، ونسيج حلم وأمل ، واستئنافا للحكم وربحا للدعوى فيه ، وما دام الشاعر ، كمعترض على الموجودات العتيقة ، المعيقة ، المبهظة لعالمه ، قادرا على مجابهة أحكام هذا العالم ، وممارسة الاستئناف ، ثم النقض ، ليعيد تشكيل هذه الموجودات ، ويصوغها في رؤى شعرية للمستقبل من خلال الحاضر .

ان حكم الواقع ، ونقض هذا الحكم ، هما ديالكتيك الحياة في مسيرة التاريخ . ونحن نجد ذلك ملخصا لكل حكاية الكينونة والصيرورة . يصدر الموت حكمه على الاشياء في الطبيعة ، وتستأنف الحياة حكم الموت وتنقضه في الطبيعة ايضا . الجثة والنطفة ، كلاهما وجه للحكم ولنقض الحكم . الاشياء ، عبر هذه العملية ، لا تعود سيرتها الاولى ، تتجدد ، تتطور ، تنتقل من ادنى الى أعلى ، في الارتقاء الدائم ، ولكن الحكم ، مع الارتقاء ، يكون حكما ارتقائيا، والنقض كذلك ارتقائيا ، تتغير الموجودات، والمنطلقات، والاهداف ، ويبقى جوهر التغيير في الحكم الذي يمثل الحاضر ، والنقض الذي يمثل المستقبل . ومنذ نتنازل للحكم ، يصبح مبرما . الصحة ، حين لا تستأنف حكم المرض وتنقضه ، يصبح المرض علة مزمنة . النفس ، حين لا تستأنف حكم اليأس ، وتنقضه ، يصبح يأسا دائما . فالتنازل ، أمام الاحكام ، تصديق لها ، والتنازل أمام القديم ، تصديق له وقعود عن الجديد، وكذلك التنازل للواقع ، تخلٍّ عن التغيير ، دخول الناووس الحجري . والانسان حي ـ ميت ، اما الحي ـ الحي ، فهو المستأنف ، والناقض ، انه صيحة بولس : لننقض الناموس جئنا ! استئناف ، وهدم ، وبناء وتفكيك واعادة تشكيل ، تلك هي الطريق ، وقد سلكها ناظم ، فكان في « ناووس الحكم » مستأنفا ضده ، كان ناقضا وطليقا برغم الجدران وقيود الحديد ، بينما الآخرون ، المتنازلون ، أسراء بدون جدران أو قيود من حديد .

الكلام هنا على الشعراء ، على الفنانين ، وينطبق على الآخرين . لكن

الشعراء يظلون في الطليعة . الاستئناف مهنتهم ضد العالم القائم في سبيل العالم الآتي . لنقرأ هذا الاستئناف الشعري لهايدن ضد العالم العبودي :

انني أرى آلافا من العبيد
ينهضون من القبور المنسية
ومن جراحاتهم تسيل ألسنة اللهيب
حتى أرض العبودية ،
وسلاسلهم تهز (يكسي)
في قصف شبيه بالرعود
جبرائيل ! جبرائيل ! الا ترى ، ألا تسمع ؟
ان النهاية قريبة
فماذا تتمنى
قبل أن تموت ؟
انك تريد أن ترضع الثورة
من ثدي آلام العبدة
لان الزنوج لن يرتاحوا ما دام للعبودية دعائم
فحطموها واتركوها ذرات غبار
أما سلاسل العبودية فيجب أن ياكلها الصدأ .

ولنقرأ هذا الاستئناف للشاعر البلغاري بوتيف في قصيدته « شنق فاسيلي ليفسكي » :

انني أعرف ، آه أعرف انك تبكي يا وطني
لانك في أسرك العبودي .
انك تبكي لان صوتك الالهي
هو صوت يائس يدوي في صحراء .

وهذه الاستئنافات لشاعر بولونيا الكبير آدم ميسكييفتش :

الشعوب هياكل مصفدة بالحديد
فيا أيها الشباب ! اعرني جناحيك
كي أشرف على هذا الكون الفاني
من أعلى القباب الخالدة .

. . .

وانت أيتها الحماسة الطاهرة

انت وحدك تعالي لقيادتنا

. . .

ليت بوسعي ان اصبّ في قلوب سامعي
النيران التي تلهب فؤادي !

غير ان الاستئناف قد يأخذ ، لدى بعض الشعراء ، صيغة التصديق. يكون ، كرصاص المتراجعين في المعركة ، لتغطية الانسحاب ، لتثبيته . فالذين يطوفون حول بوابات العالم السبع ، في عملية نفي من الداخل ، والذين يرددون مع اليوت :

هكذا ينتهي العالم
هكذا ينتهي العالم
هكذا ينتهي العالم
لا برجة عنيفة ، وانما بنواح خافت .

هؤلاء ، يستأنفون ضد الاستئناف . « وعند هذه التجربة ـ تجربة الوحدة امام الكون ـ تتساقط حريات كثيرة في الفخ كمقدمة للسقطة الابدية . وقليلون اولئك الذين لم يسمحوا للعدم ان يطأ عتبة جباههم ويخذلهم ، فقدموا اروع استشهاد عبر الاصرار الذي يؤرخ عظمة الانسان.. وبين السقطة والاصرار يظل الاستئناف قائما ، لانه حركة تمثل النقيض لعالم موجود ، أي انه « لا » ، الضرورية لبقاء « نعم » (١) .

تجربة الوحدة أمام الكون هنا ، ليست الوحدة في الكل ، عكسها ، الكل في الوحدة ، الانعزال ، الموت في اقبية المدينة ، داخل الناووس الحجري للذات المنغلقة . اليوت كان في وحدة الذات امام الكون . تنتهي الذات ينتهي العالم . وتلك هي السقطة الرهيبة في فخ العدمية التي يحوم حولها بعض شعرائنا وكتابنا الذين بداوا مستأنفين ضد العالم ، وانتهوا ، او كادوا ، مستأنفين ضد استئنافهم السابق . انهم يؤبنون انفسهم باحتفال طقوسي من الكلمات الاليوتية . وليس في هذا ادانة الا اذا انطوى عليها رصد واقع ، وليس في الكلام على الذين تجاوزوا السقطة مديح ، الا اذا انطوى عليه رصد واقع آخر . فحين يقول آدم ميسكييفيتش :

اسمي مليون ، ومن اجل مصير الملايين احب واتألم

---

(١) عزيز السيد جاسم في مقالته « لماذا يبتدىء الشعر ؟ » ـ مجلة « الآداب » ، كانون الاول ١٩٦٩ .

لا يخالجنا شك ، ان هذا المتململ مع الناس ، قد عاش ، في تشرده وسيرة حياته ، في وحدة قسرية أحيانا ، لكنه ، في وحدته ، قد كـــان معهم ، فلم يسمح للناووس الحجري بالانفلاق عليه حيا . وحين كان ناظم حكمت في زنزانته طوال سنوات ، كان وحيدا مع الكل ، وليس مع نفسه ، وبذلك تجاوز السقطة ، تجاوز ذاته وجدرانه ، عاش حيا في قلب الناووس الحجري الميت ، ظلّ مشاركا الحياة وهو على مبعدة عنها :

منذ دخولي السجن
راحت الايام تفعل فعلها
أخذ الناس ، خلل الظلمات
يضعون أيديهم على بلاط الشوارع لينهضوا .

. . .

ان ما أكتبه هو من أجل الناس
من أجل الذين بكثرة نمل الارض
وسمك البحار
وطير السماء ،
من أجل الجبناء والشجعان ،
من أجل الجهال والحكماء ،
من أجل الذين ما زالوا أطفالا
من أجل هؤلاء القاهرين ،
المبدعين
الذين وجدت الاغاني لتمجيد اعمالهم
ولولا ذلك ،
لما بقيت عشرة أعوام في السجن ،
ولكان كلامي جزافا .

(من قصيدة « منذ صرت داخل السجن ») .

الكون والانسان ، وما الكون بدون الانسان ؟ قضيته حمل : قل قضية الوجود ، اتساعه ، عمقه ، تنوعه ، وغناه . وفي رسم كل ذلك ، بالصور الشعرية ، غمس ناظم ريشته بالواقع والخيال . كان خمارا يحسن حفظ جراره وتعتيقها ، ويحسن ، هذا الكيماوي الساحر ، مزج خموره ، ليصنع منها المزجة البكر ، ولا مزجة قانا . من الواقع الى الخيال ، ومنه الـــى الواقع ، ومنه ، كرة أخرى ، الى الخيال ، وبمرونة عجيبـــة . المحسوس

واللامحسوس ، الواقعي وما فوقه ، رمز ، اسطورة ، مثل شعبي ، حكاية موقد ، حدث من التاريخ ، سندبادية بحار ، وخرافة ... كل ما لدى شعبه التركي من حقيقة ووهم ، لون وظل ، شمس وظلمة ، طموح واكتفاء ، شجاعة وجبن ، براءة وخبث ، تضحية واثرة ، ماء ويابسة ، جبل وسهل ، مدينة وريف ، وليس لنا أن نسأله : كيف ؟ لقد عاش كل ذلك ، خبره ، جربه ، وسمع به ، وأدرك سره ، ثم فتق مكنون هذا السر فأذاعه ، وعن طريقه سمعنا ورأينا وفهمنا تركيا وشعبها ، بعد أن كانا ، ولعصور طويلة ، محجوبين بستار العثمانية التي هي ، في تصورنا ، رجل مريض ، تتناهشه طيور كاسرة من كل جانب .

لنقرأ هذه القصيدة :

قفص ،
وكناري ،
يضرب الاسلاك ،
بجناحيه الصفراوين ،
وكمان ،
ينام في محفظته ، كطفل ولد حديثا
والنافذة مفتوحة
وفي الخارج ،
المدينة تنام مغمورة بضياء القمر
وعيناه برّاقتان ، واسعتان ،
عيناه زرقاوان ،
واللحية شقراء ، متجعدة ،
ووجهه ابيض ،
وكلانا في الغرفة ،
وهو يتحدث :
ـ اريد ان اكون خازن كتب
في مكتبة مشمسة الزجاج
فما تذوقته من حلاوتها ، لم يتذوقه أحد :
انه شبيه بمتعة الاصباح ، على بحار الجنوب ذات النجوم .
عيناه زرقاوان ، قطرتان زرقاوان

وعلى الجدار غدارة (١)
ماركة ناغان
والنافذة مفتوحة
وهو يتحدث :
ـ بكلمة واحدة :
الذين يهبون قلوبهم ورؤوسهم واحشاءهم للثورة
هم الاثقل أحمالا بيننا .

هذه القصيدة (ونصها الكامل اغنى بالصور والدلالات) تعطينا كل الحق في أن نرد انتماءاتها الى التجريد والرمز والواقع وما فوقه ، وأن ننتقل مع الشاعر ، عبر الحدود الفاصلة والجامعة ، بين كل هذه التيارات التعبيرية بسهولة ويسر ، وأن نفهم سورياليته وواقعيته ، رمزه وتجريده ، لانها ، جميعا ، تخدم اسلوبه الشعري الذي ليس في الابهام ولا الايضاح ، ولا في التعقيد أو التبسيط ، بل هو صور واشارات ولون وضوء ... وانسان .

لم يقل سجن ، بل قفص . ولا قال سجين يحاول كسر قضبان سجنه ، بل كناري يضرب الاسلاك بجناحيه الصفراوين . وعن اللحن الخارجي للعالم استعاض بالكمان ، كما استعاض عن الحياة بالوليد ، وعن الظلمة بالقمر ، وعن البرودة بالشمس ، وعن الانحباس بالسياحة عبر الكتب ، وعن المقاومة بالغدّارة ، وعن صعوبة المهمة الثورية وجلالها ، بذكر أحمالها وتمجيد رجالها .

ونحن نجد هذه المزجة التصويرية واقعية برغم كل تهاويل ما فوق الواقع الحافلة بها . بل هي واقعية اشتراكية ، اذا فهمنا الواقعية الاشتراكية في حيويتها ، وانفتاحها ، وطاقة استيعابها ، وقدرتها على أن تستفيد من كل العناصر الفنية ، في خدمة عنصر الواقع الثوري ، الذي هو أساسها . وناظم حكمت يفهم هذه الواقعية ويعبر عنها بالكلمات التالية :

« أنا لا اتقيد في انتاجي بشكل من الاشكال ، أقفي ، اكتب الشعر الحر ، أستعمل البناء الاسطوري ، افيد من الفولكلور ، وكل المعوّل عليه عندي ، وعند كل فنان واقعي اشتراكي حقيقي ، هو : الواقعية في طريقة

---

(١) الغدارة نوع من الاسلحة القديمة ، بين المسدس والبندقية .

التناول ، وهي بشكل عام ، تصوير الواقع في تطوره الثوري ، وتنوعه ، وغناه » .

وعلى هذا الاساس فهمها ايلوار واراغون ونيرودا ، وانتقلوا اليها ، من مواقع السوريالية ، فاغتنوا وأغنوا !.. الواقعية تقبس من انجازات كافة المدارس الفنية ، وترفض التأسلب المتزمت ، وتحتضن كل خصب ، وتنوع وتلون المعطيات الحديثة في الفن والحضارة والانجازات التكنيكية لهذا العصر وكل عصر .

ولعل كلمات الكاتبة السوفياتية ، تامارا موتيليف ، هذه ، أن تكون معبرة :

« ان أسلوب الواقعية الاشتراكية الذي يتطلب معرفة تامة بالانسان في علاقته بالمجتمع ، يمكن الاديب من تقصي وتفسير دوافع السلوك والتطور البشريين . ان الواقعية الاشتراكية تميل الى تصوير الانسان في تطوره ، والى دراسة اضطراباته الروحية المتشعبة ، شديدة التعقيد ، في علاقتها بالنمو الايديولوجي للناس ، واسهامهم في الحركات الاجتماعية . ان شعراء واقعيين اشتراكيين كيوهان بيجز ، وناظم حكمت ، وبابلو نيرودا ، وروائيين امثال اراغون وسيكرز ، وكتابا مسرحيين كبريخت وكروتشكوفسكي ، قد أغنوا فن الادب ببعض الشواهد الفذة على تصوير الشخصية البشرية بأساليب فنية عصرية على درجة كبيرة من الكمال » .

سمعت مرة أحد الكتاب الاتراك يقول : « ناظم ! هل في عصرنا مثله ؟ » . وسألته : « لماذا ؟ » قال : « لان له خصائص يتفرد بها » . قلت : « لكل شاعر خصائصه المتفردة » . فاجاب : « طبعا ، ولكن تفرد ناظم من نوع آخر ، من نوع لم يعرفه تاريخ الشعر » . ومع التردد في قبول هذا الاطلاق ، الصادر أصلا عن محبة واعجاب احد الاتراك بشاعر تركي ، فان دارس شعر ناظم ــ ولست هذا الدارس بحال ، فانا معرّف به لا اكثر ــ لا يسعه الا الاعتراف بتلك الخصائص الفريدة التي جعلت ناظم حكمت في المكانة التي وضعه فيها سعيد عقل . ولعل أبرز هذه الخصائص ثلاث :

١ ــ التطابق بين فكره وسلوكه .
٢ ــ بعد رؤياه الزمنية واثرها في صموده .
٣ ــ البساطة في شعره ، وقدرته على تناول أي موضوع ليصنع منه اروع الشعر .

في الخاصة الاولى يقدم هذا التعريف ، ككل ، ملامح من فكره ومقاطع من سيرة حياته ، تظهر التطابق المقصود بهذا الكلام .

وفي الخاصة الثانية عرضنا ، قبلا ، مقطعا أفقيا لموقفه وشعره النضاليين ، وصموده فيهما خلال كل الظروف التي مر بها .

أما الخاصة الثالثة : البساطة، فنحن نحاول أن نجلوها بما وصلنا من شعره المترجم الى العربية . وهذه الخاصة ، تبرز ، بكل صدقها وحرارتها ، من العفوية الناشئة عنها ، من المعطى الاصيل للامتلاء بالجو المحلي ، والتشبع بالروح الشعبي ، ومحبة الناس غير المحدودة ، وغير المدخولة بتملق المشاعر واهتبال المناسبات والتغاضي عن سلبيات الذين نحبهم ، ولا يستطيع ذلك الا فنانون امتزجت الوانهم بكل الوان بلادهم ، واستمدت عناصرها من ترابها وحجرها وشجرها ورغيفها ونبيذها ودموعها وابتساماتها وأوحالها ونضاراتها . بكلمة : من الوطن والشعب ، في تراثهما وحضارتهما وافكارهما ، وكل النسغ الحياتي والروحي الجاري في عروقهما .

ليكن لك قلب حتى تقرأ هذا القلب
ليكن لك قلب حتى تسمع قلوب الناس (١) .

وطبيعي ان هذا القلب لا يُمتلك بغير المحبة الصادقة، وعبر تجسيدها كفاحا تضحويا في سبيل الذين نمنحهم محبتنا ورؤيانا كشعراء وفنانين ، وهذا ما فعله ناظم حكمت ، وهذا هو القلب الذي امتلكه فسمع به قلوب الناس وقرأها واظهرها . لقد عبر الاناضول ، متطوعا ، ليقاتل في حرب الاستقلال ، وتعلم ، وفي وكده أن ينفع بعلمه ، وسجن ، لا ليكتسب تجارب ، بل لان السجن هو تجربة الاخلاص للافكار التي نحمل ، والانتماء الذي نختار ، ونفي فذاق الاسفنجة بعصير مر ولم يرفضه ، متابعة للتجربة وللصمود في آن ، وهذه الارضية الرحيبة من التجارب ، في زخم معاناتها، قد أمدّته بالرؤى والالوان والافكار والكلمات المطواعة ، المعبرة ، وبالحساسية المرهفة التي تخلع على عادية الاشياء ما يجعلها غير عادية .

على منضدتي
صورة شمسية
لصاحب القرنفلة
الذي أعدم رميا بالرصاص

---

(١) من قصيدة للشاعر البولوني آدم ميسكييفتش .

تحت الانوار الكاشفة
في مدينة تعيش في الظلام .
يده اليمنى تمسك بالقرنفلة
وكأنها شعاع من بلاد اليونان
وينظر صاحب القرنفلة
من تحت حاجبين اسودين كثيفين
بعيني طفل جسورين
وبدون حول ولا قوة
ويضحك ،
والقرنفلة في يده تضحك ،
من هذه المهزلة
ومن نذالة هذه الايام .

بين أمثالنا العربية هذا المثل : « شر البلية ما يضحك » . فالضحك ، في هذا الموقف ، فعل سخرية وتحد ، فعل رثاء للمأساة التي تنحط ، في نذالة الايام ، الى مهزلة . وهذا المناضل ، صاحب القرنفلة ، كان يضحك ، وقرنفلته تضحك ، من الموت ، ومهزلة السلطة التي تصدره ، ومن نذالة الايام التي اوصلت هذه السلطة الى الحكم .

ان حادثا مؤلما ، بهذه المأساوية ، وموت مناضل ، بهذه الرجولة التي تبدّت في العينين الجسورتين ، واللامبالاة الساخرة من بطش القوة ، وتعاسة الجلاد ، وحبل المشنقة ، قد كانا ، في تناول شاعر آخر ، موضوعا مثقلا بضخامة الاخراج وطنين الحماسة ، مع انه موضوع حادث ، يتكرر كل يوم ، وفي اكثر من بقعة من بقاع العالم ، لكن بساطته ، التي منها عظمته ، لن يتوصل الى اكتشافها ، وصياغتها فنا ، الا الذين عايشوها ، والذين ، في بساطة بطولتهم ونقاوة قلوبهم ، قادرون على مقاربة الموت والضحكة في الفم والقرنفلة في اليد .

ومن البساطة ، في اللب المعرّى من قشور المراسم ، تسطع لألاة السمو ، وقهقهة الحقد المقدس ، الجبار والمنتقم . وبكلمات من القلب الذي سمع ووعى ، وكان شاهد ادانة للجلادين ، صوّر الشاعر ميتة الشهيد في تعاليها ، ووضاعة القتلة في صغارها . لقد أعطى ، بضربة فرشاة قوية ، كل التكوين اللازم للوحة : رجل يضحك ، وقرنفلة تضحك ، وآلة اعدام ، وقتلة

مسربلون بالمهزلة ونذالة الايام ، وهذا كل شيء . ذلك ان الشعر ، في تكثيفه للموضوع وتفجيره له ، فوق كل شيء ، فوق المطولات والحماسيات التي استهلكها ، واختنق بها ، الشعر التقليدي .

ذات البساطة في الموضوع وتناوله وادائه ، نقع عليها في قصائد واجزاء قصائد على مدى شعره . لنقرأ هذه الكلمات ، في وداعه لارض المجر المضيافة :

وداعا ،
يا من أكرمتني أكثر مما استحق ،
وداعا ،
وربما عدت ،
وربما خان العمر ،
من يعلم ،
لكني اعلم ،
ان يوما سيأتي
انني اعلم ،
تسافرين فيه الينا ،
ونسافر فيه اليك ،
ويعبر بعضنا الى بعض ،
كما نعبر حديقة الى اخرى .

لنتصور ، لحظة ، ان العالم ، في مستقبل منظومة الاشتراكية والاخوة ، توصل ، في الوحدة القومية الصغرى ، والوحدة الاممية الكبرى، الى أن تكون الحدود ، بين بلدانه ، كالتخوم بين حدائقه ، وان الانسان يعبر بلدا الى آخر ، كما يعبر حديقة الى أخرى . فهل من امنية ، في الخاطر المجنح ، تبلغ ما بلغته امنية الشاعر ، في روعتها وبساطتها واشراقها ؟ وكلما وقفنا ، على الحدود الفاصلة بين بلدين عربيين ، في هذه التجزئة المصطنعة والملعونة ، او وقفنا على الحدود بين بلداننا وبلدان العالم، وخضعنا الى كل تلك الاجراءات الطويلة والمضنية ، سنذكر امنية الشاعر ، ووثوقه من تحققها بوثوقه من الغد السائر اليه .

مشهد آخر ، لهذه البساطة المعجزة ، نطالعه في قصيدته « يوم الاحد » :

اليوم هو الاحد
وفي هذا اليوم أخرجوني الى الشمس لاول مرة
ولاول مرة في عمري
ذهلت
من بعد السماء عني بهذا القدر
من سعتها الى هذا الحد
ومن زرقتها بهذا المقدار ،
فوقفت بدون حراك
ثم جلست باحتراس على الارض
وأسندت ظهري الى الجدار
الآن لا تفكير بالهموم
ولا بالحرية او المرأة
الارض ، والشمس ، وانا
واني لسعيد .

رجل اخرج من زنزانته الى الدنيا . هو لا يذكر الزنزانة ولا الدنيا ، ولا المدة التي قضاها حبيسا ، ولا جو الحبس . ايماءات القصيدة توحي ، وبنفاذ ، بكل هذه المعاني . فان يفرح المرء بالشمس ، ويسعد بشميم الارض ، ويستغرب بعد السماء وسعتها وزرقتها الى هذا الحد ، فمعنى هذا انه كان ، ولاعوام طوال ، محروما منها ، يعيش في الظلمة ، وبين الجدران الضيقة، وانه فكر ثمة بالهموم والحرية والمرأة حتى اضناه التفكير، فهو ، الآن ، يريد شيئا واحدا : أن يجلس على التراب ، ويسند ظهره الى الجدار ، ويستمتع بالشمس وزرقة السماء . . . ونحن نحسّ ، من الشحنة الشعرية الموصلة لهذا الاحساس ، بتعب هذا الانسان وشقائه ، وحرمانه ، وسعادته أيضا ، واذ تأخذنا دوامات الهموم ، نستعيد هذه الابيات ، وقد نفعل فعل الشاعر : نجلس على الارض ، في الشمس ، ونستبعد همومنا ، وتفكيرنا بالحرية والمرأة ، ونعطي أنفسنا للسعادة في الطبيعة ، أمنا ، في ابهى زينتها : الصحو والزرقة .

غير ان هذا الذي يعلمنا ، ببساطة لا حدّ لبساطتها ، ان نحب سطوع الشمس وزرقة السماء ، وندع التفكير بالهموم والحرية والمرأة ، كي نستأنف ، بقوة اعظم ، الكفاح في سبيل الحرية والمرأة ، قد كان ، في ملاقاته للهموم ، وصموده لها ، المثل المحتذى ، والقدوة الواجبة الاقتداء .

وقد أصاب الدكتور علي سعد ، في كلامه على ناظم حكمت ، حين قال مخاطبا بعض الادباء والشعراء العرب عام ١٩٥١ : « « .. ونحن الذين نقف من معارك الحرية موقف المتفرج الآمن ، لا يسعنا الا ان نخجل من طمأنينة عيشنا ، وان نحسّ بصغرنا وتفاهة حياتنا ، أمام جراح هذا الانسانالكبير، وسخائه في التضحية ، وبساطته في القيام ببطـــولة العيش في الاغلال ، ليفسح للعبيد فك اغلالهم » .

٣

تعجبني ، من أقوال الشاعر الفرنسي بول ايلوار ، هـــذه الكلمات : « رسالة الشاعر أن يمنح الناس الرؤية » . هو نفسه منح الناس الرؤية . فالذي كتب اسم الحرية على مقاعد المدرسة ، ودفاترها ، وكتبها ، وكرّز بها ، كالحواريين ، قاتل بالسلاح لاجلها أيضا ، ابان احتلال النازيين لبلاده في الحرب العالمية الثانية .

لنؤد الاحترام له ، ولكل الذين بشروا بكلمة الحق وقاتلوا في سبيلها ، ولنأخذ قولته ، اذن ، بما تستحق من اعتبار ، طالما انها في المعطى الاخير ، تجسدت : صارت تلك الرؤيــة التي ألهمت الشعب الفرنسي الامل والعزم في كفاحه لاجل التحرير ونور المستقبل ، وسط حاضر كان ظلمات فــوق ظلمات .

يبقى ، فيما نحن بصدده ، ان تلك الرؤية لا تمنح من الشاعر الا عبر الشعر ، ومن الفنان عبر اداته الفنية . وقد راينا ان ناظم حكمت ، بالوعي او بالطبع ، أو بكليهما معا ـ وهو الاصح ـ استطاع أن يمنح الرؤية للناس الذين لهم كل الشعر ، كل الفن ، وكل الجهد البشري الى آخر الدهر .

وسنكون بلداء ومتزمتين اذا فهمنا هذه الرؤية صيفة عقيدة . لا ، انها من العقيدة واكثر . شيء أرحب وأعمق وأغنى ، شيء يستمد نفســه من مفهوم عن الكون ويتجاوزه ، يفتح له آفاقا جديدة ، يعطيــه قدرة على أن يكون ارسخ ، وابهج ، وأرقى ، واكثر قابلية لاحتواء النفس والترجمة عنها، وتوكيد الوجود في الزمن ، ورصد تطلعاته الجنينيــــة للزمن الآتي . بمعنى آخر ، الرؤية ، هذه هي صيفة فهم للحركة وعمل لاجلها .

أن نمنح الحياة قابلية حياة ، في الحب والبغض ، في الفرح والترح، في الشقاء والسعادة ، في اللون والضوء والظلمة ، في الالم ومعناه المبدع،

في الحزن وما يفجر من خير ، في الوهن كمعبر الى القوة ، وفي المرض كتحفز للصحة ، وفي الموت كصنيع حياة ، كينونة وصيرورة ، فان هذا جميعه ، رؤية ، وعن هذا الشمول ، أو جزئه الذي منه كله ، تصدر الرؤية ، والى ما يكون شمولا أبعد ، تومىء .

وقد أوردنا بما لدينا من شواهد شعرية (١) ان ناظم حكمت منح هذه الرؤية للناس بأداتها الفنية ، ونرغب أن نذكر بأن الشعر يفقد شاعريته في النقل من لغة الى أخرى ، ومع ذلك لا يعوزنا البرهان من خلال القصائد المنقولة ، في التدليل على شعر هذا الشاعر، وعلى انه معنى كبير في دنياه .

ولسوف تكتب الكتب في صناعة ناظم الشعرية . وستكون لها قيمتها وفائدتها الكبيرتان بالنسبة للثقافة والشعر وقيم الحياة ، ذلك اننا اذا قلنا ناظم حكمت ، فان قولنا مختصر واصيل ، كما لو قلنا شكسبير او تولستوي ، فكل من هؤلاء كان فنانا ، وكل من هؤلاء اذن ، كان انسانا ، لان الفنان هو الانسان ، ومن خلال الفن يصاغ ، وانها لغبطة حين نقرأ او ندرس حياة هذا الانسان ، لاننا بذلك ، نحسّ بانسانيتنا ، نستردها ، نفجرها ، ونقبس من جمرتها الخالدة .

وبانتظار أن تكتب هذه الكتب ، لنلق نظرة ، على الاقل ، على المفهوم الشعري لدى ناظم حكمت ، فقد يساعدنا ذلك على سبر شاعريته نفسها ، وعلى تلمس سر صناعته الشعرية .

يقول ناظم (٢) : « ليس ما يميز بين الشعر والنثر والقصة والرواية والمسرحية وسائر أنواع الكتابة ، كون بعضها موزونا وبعضها بغير وزن وقافية . قد يوجد كلام موزون ومقفى ولا يربطه بالشعر رابط . ان ما يميز بين فروع الادب ، كالشعر والرواية والقصة ، هو اكثر من الشكل: المحتوى، وعمق النغم ، وتباين الاوزان ، وأخيرا القدرة على تبين كل منها في مجال

---

(١) توسعنا في المقتطفات الشعرية بشكل ما كنا نريده لولا الضرورة الناجمة عن كون قصائد الشاعر المترجمة الى العربية قليلة (ح. م.) .

(٢) هذه المقتطفات ماخوذة من كراس صغير باللغة التركية للكاتب يالشين قيا الذي سبقت الاشارة اليه ، وترجمة هذا الكراس ، بقلم الاستاذ ثابت العزاوي ، لا تزال مخطوطة. واغتنم مناسبة هذه الاشارة لانوه بفضل الاستاذ العزاوي في التعريف بناظم حكمت في العالم العربي . فهو ، فيما اذكر ، أول من ترجم قصائده ونتفا من سيرة حياته ، ثم ترجم ديوانا كبيرا من شعره ، طبع القسم الاول منه بعنوان « الناظرون الى النجوم » ، ولا يزال القسم الثاني مخطوطا .

الاحساس . ان حادثا معينا يعطي أوزانا مختلفة من أعماق النفم في كل من الشعر والقصة والرواية والمسرحية والسيناريو السينمائي ، ومن هنا منشأ ما بينها من تباين .

« هذا أولا ، وثانيا ان الاطر الفنية تتغير بتغير الاطر الاقتصادية، وثالثا فان الشعر الحر الحديث هو وحده الذي أزال الفرق بين كتابة الشعر وقراءته . أضف الى ذلك ان فن الشعر المنعكس عن مشاعر المدينة أصبح أشدّ تركيبا . وهكذا جاءت سيمفونية المدينة الكبيرة لتحلّ محل صوت « الراعي والاقتصاد الريفي » .

كذلك يرى ناظم « ان الشاعر الحديث لا يتعرف الى ما يقال عن لغة الشعر ولغة الاوزان ولغة التخاطب ، الى غير ما هنالك من لغات ولهجات . ان الشعر يكتب بلغة واحدة ليس الا ، لغة لا زيف فيها ولا تلفيق ولا تصنع، وانما هي حية ، واسعة ، ملونة ، عميقة ، بالغة التركيب ، وأعني بذلك اللغة البسيطة . ففي حجم هذه اللغة توجد كل عناصر الحياة . ان الشاعر وهو ينظم الشعر ، ليس بشخصية أخرى ، ولا هو بشخصية ثالثة حين يتحدث ويحاور ويجادل بحكم طبعه . ان الشاعر لم يهبط من وهم التحليق بالفيوم ، وانما هو انسان ، مواطن ، في غمار الحياة وتشكلاتها » .

وتشكلات الحياة ، في صيغة أخرى ، هي أحداثها ، الاجتماعية والتاريخية . وقد كتب انجلز ، عام ١٨٤٧ ، مقالا بعنوان « الاشتراكية الالمانية في الشعر والنثر » وصف فيه نواحي الضعف والقوة في تراث غوته فقال : « يأخذ المرء على غوته انه كان يضحي بسليقته الجمالية الصحيحة بسبب خوفه من أية حركة تاريخية عظيمة ومعاصرة » ولم تكن هذهالتضحية الخاسرة الا نتيجة نقص الوعي ، أو نتيجة معارضة ذاتية وفكرية لمدلول هذا الوعي لو وجد ، كما نرى عند شعراء كثيرين وعوا قيمة الاحداث التاريخية في عصرهم لكنهم رفضوها ، تعبيرا عن مصلحة أو عقلية ، أو طرحوها طرحا خاطئا مضللا ، ففقدوا بذلك ، بوصلة موهبتهم الجمالية التي كانت وحدها ، قبل تشكيل الوعي بها ، قمينة أن تجنبهم هذا الموقف. ان الموهبة الجمالية والوعي ـ كما يرى انغلز ـ يتبادلان التأثير بشكلجدلي، وكان غوته « يفهم عظمة الدور الذي تلعبه الموهبة الجمالية ، لان هذهالموهبة قد تسبق ، في أحوال كثيرة ، وبشكل ملحوظ ، وعي الفنان ، وقد تقوّم ما فيه من شطط » (١) .

---

(١) راجع كتاب « الجمال في تفسيره الماركسي » في أمكنة متفرقة منه .

ان تشكـلات الحياة هي أيضا تشكـــلات الانسان وسط الاحداث . والذين يضحون بمواهبهم الفنية بسبب الخوف من حركة الاحداث يضحون بها بسبب الخوف من حركة الانسان . أما الذين يجارون مواهبهم الجمالية، ثم وعيهم ــ أو كليهما بعد ذلك ــ فانهم يحتوون تلك الحركة ، ويكونون في قلبها ، ومن هذا المكان تصبح نظرتهم أصحّ ، أوسع أفقا ، ويكون الحـدث والانسان بالنسبة اليهم مادة واقع ، ومادة رؤية لواقـــع جديد ، لتشكّل جديد ، للاحداث والناس في حركة التغيير التي لا تنتهي .

كتب باسكال يقول : « الانسان ليس مـــلاكا ولا انسانـــا . الانسان ما سوف يكون . ونحن نستطيع أن نساعد في تكوين هذا الانسان : أن نرفعه الى أعلى أو نهبط به الى أدنى » (١) .

أكان باسكال يدعو الى أن يكون الفنان مربيا ؟ ليس بالمعنى المدرسي لهذه الكلمة . الفنان له دور المربي ، ولكنه ليس مربيا ، انه مانح رؤيـــة ، ولكي يمنحها للانسان عليه ، هو قبل غيره ، أن يكون انسانا ، مواطنا ، وفي غمار الحياة وتشكلاتها ، كما يرى ناظـم حكمت ، وأن يعبر عن رؤياه فنيا ، بما هو اكثر من الشكل ، بالمحتوى ، وباللغة الحية ، الملونة ، العميقة، البالغة التركيب : اللغة البسيطة .

وهذا كله ، أكثره اذا أردنا الدقة ، حققه ناظم .. منح الرؤية مفهوما اجتماعيا للناس ، ومفهوما أدبيا للادباء ، وحفز الشعراء الشباب على الخروج من دوائر الشعر المغلقة ، وقادهم لتخليص الشعر التركي من العموميات ، أي من الحكمة والموعظة والحكاية ، ومن العبرة التي كـانت سائدة في هذا الشعر، تأثرا بالشعر الفارسي الذي برع في هذا اللون منه سعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي.

وكما ان الرجعية الاجتماعية حاربته، فقد حاربته الرجعية الشعرية .. نقم عليه الذين اتخذوا من « ليس بالامكان أبدع مما كان » حكمة ، وشنوا عليه حربا في الصحافة التي كانت تحت تصرفهم ، فصمد لهم ، وقارعهم ، وراح ينشر في مجلة « المصور الشهرية » آراءه حـــــول الشعر ، ويهاجم الرجعية الشعرية تحت عنوان « لنهدم الاصنام » . وفي قصيدته « جواب رقم واحد » قال مخاطبا أحد هؤلاء الشعراء الرجعيين :

هيه !

يا ذا الحاجب الاسود الاقرن

---

(١) المصدر السابق .

ايها الآدمي براس (آبيس) المقدس (١) .
هيه !
يا آس البستوني الاسود ،
أنت تنظم شعرك باللغة الاصيلة ،
وأنا لا أفهم الاصالة .
لا تنزع الاصالة عن لسانك ،
ان أصالتك عدوتي ،
حتى بالالفاظ .
هيه !
يا صبي البستوني الاسود .
أنا أعرف لم هذا النزق وهذه الشكوى .
أنا أعرف انك ترقب الليل ،
لتخنقني في رقادي .
وأنا الذي أحمل في رسغي الطوق الحديدي
وكأنه سوار من ذهب ،
وأتطلع الى حبل المشنقة ،
دون ان يهتز جفني ،
هل يهتزّ لتهديدك نعلي ؟
لقد عرضت نفسك في السوق ،
وكأنها رقيق أسود ،
وجعلت من طاسة راسك غرفة عاهرة ،
واشتريت بالمال الذي سرقته من جيوب
سترات الموتى الخاكية ،
هواء الجبال السويسرية .
ومن اجل ذلك ،
تعلو سحنتك البلقاء الصفراء ،
غلالة من حمرة الذهب الدامي .
ان من يصف الشعب بالحماقة هو انت ،
ومن يحمل على ظهره ،
(الفراك) المصنوع من جلود الشعب ،
هو انت .

---

(١) الثور المقدس عند الفراعنة .

ويرد على شاعر رجعي آخر قائلا :

أنت كالعقرب يا صاحبي
كالعقرب في ظلام مخيف .
انت مثل عصفور يا صاحبي ،
وفي وجل العصفور .
أنت مثل محارة ،
مثل محارة مغلقة مستكنة .
أنت مفزع كفوهة بركان خامد يا صاحبي ،
ليس كبركان واحد ،
ولا كخمسة ،
بل كملايين ، ويا للاسف .
أنت مثل الغنم يا صاحبي ،
الغنم ترى في الراعي ذي الفروة سفاحا ،
اذا ما هشّ بعصاه على القطيع ،
ولكنها تهرع عادة مخدوعة الى المسلخ .
أنت اغرب مخلوق في الدنيا ،
بمعنى ،
أنت أغرب من سمكة لا تعرف البحر ،
وهي في جوف البحر .

واضافة الى الهجوم على الشعراء التقليديين ، أو الذين يتمسكون بالشعر التقليدي ، خوفا من التجديد الشعري وما ينطوي عليه من افكار ثورية ، كان ناظم يفاخر بشعره ، وباقبال الناس عليه :

أنا لا أملك جوادا مسرجا بالفضة ،
ولا مداخيل تأتي من حيث لا ادري .
انا لا أملك مالا ولا عقارا ،
وليس معي غير قصعة من عسل ،
بلون اللهب .
ان عسلي هو كل مالي ،
وانا أحمي ،
مالي وعقاري ،
اعني قصعة عسلي ،

من كل انواع الحشرات .
صبرا يا أخي صبرا ،
عندما يكون العسل في قصعتك ،
يأتيك النحل من بغداد (١) .

ولقد جاء النحل الى قصعة الشعر العسلي من بغداد وكل بغداد في العالم . انتصرت مفاهيم ناظم الشعريـــة ، واندحرت مفـــاهيم خصومه الرجعية . وشيئا فشيئا اجتـــــاز « الوليد الشعري » امتحان الحياة ، واكتسب ثقتها : صار ابنها الشرعي ، ولم يعد مجال لاخفاء الرمح في كيس، فقال الناقد التركي اورخان دلي فانيق ، في جرأة لها قـــــدرها في ذلك الوقت : « لدينا شاعر واحد معروف في أوروبا على الرغم منا ، هو نـــاظم حكمت . أما نحن فنقول : حذار أن يسمع به أحد ، ولكنهم سمعوا ، فلا فائدة من الحذر » .

واذ لم يعد الحــذر مجديا ، لان البركان صـــدع القشرة الارضية ، وزلزلها تحت الاقدام التي حسبت ان التربة المتراكمـة في طبقات ، عصية على التشقق أمام ضغط السائل الثوري ، شرع الكتاب الاتراك يعترفـــون بالنور الذي فشلت السلطة أن تخفيه تحت وعاء . كتب نور الله تاج يقول : « ناظم حكمت ، عندي ، اكبر الشعراء الذين مرّوا بتركيا حتى الآن . وقد لعب ، بما كتب من شعر ، اعظم دور في تاريخ أدبنا » .

وقال صميم قوجه كوز ، في نوع من المغالاة ربما : « يصعب علينـــا ، بمعيار ما نقرا من شعر عالمي ، اليوم ، أن نجد شاعرا في الغرب بوزن ناظم حكمت » .

وقال امين يالمن : « ان ناظم ابن نادر المثال لهذه الامة التي كان أحسن من ترنم بلغتها ، وأحسّ بعذابها من أعمق اعماقـــه . انه شديد الاعجاب بتراثها الثقافي الذي يملك خبرة واسعة فيه ، ومن اجـــــود من يستعمل اللغة التركية أداة تعبيرية .. وليس ثمة ما يرغم ناظم على أداء الحســاب لاحد من اجل المثل التي تملأ خياله وعقله معا . ان هذه المثل تتحرك باتجاه تخليص الانسان من ظلم الانسان ، ومن البؤس والعبوديـة ، ومن التمسك بالاشياء البالية .. انه واحـــــد من الشعراء البارزين الذين انجبهم هــذا القــرن » .

---

(١) مثل شعبي تركي .

واذا كان الشاعر لا يؤدي الحساب لاحد ، ويجب الا يؤديه لاحد ، فهو ، كابن لشعبه ، يحمل مسؤوليته أمامه ، ويؤدي حسابها له طوعا . ونحن نرى ناظم يؤمن بهذه المسؤولية وبهذا الحساب ، أمام ضميره وأمام شعبه ، ما دام الشعب مصدر الهامه ، وغاية هذا الالهام .

يقول : « ان فنان الشعب ، يجب عليه ، قبل كل اعتبار ، أن يفهمه الشعب ، وأن يكون فنان الشعب حقا » . ولكي يكون كذلك ، لا بد له من الصدق ، فليس أعذب الشعر أكذبه ، بل أصدقه ، وقد راعى ناظم ، في تصويره الحي للاشياء والناس ، أعلى درجات الصدق ، وأسماها من ناحية الحقيقة .

ذلك ان الشعر كان كل حقيقة وكل دنيا ناظم ، ولعلّ من المفيد أن نستعير كلمات ألزا تريولي عن مایاكوفسكي ، لنصوّر كيف كان ناظم ينظر الى مهنة الشعر ويحترمها : « لم يكن يرى في الشعر ترفا ولا لهوا ولا لعبا نافلا ، ولكنه مهنة من أشق المهن ، مهنة ضرورية ونافعة ، ضرورية الى الحد الذي يسيل في سبيلها دمه عبر صحارى الرمال والثلوج ، دون أن يأبه ودون أن يلتفت الى وراء » .

لم يلتفت الى وراء .. ولم يستطع احد ان يرغمه على هذا الالتفات ، كما لم يستطع حذر الرجعية أن يمنع شعره من الانتشار والذيوع ، اذ لا فائدة من الحذر ، حين يكون الشعر شعرا ، وشعرا قادرا على أن يجذب انتباه العالم ويجعله يعرفه ، ويعرف ، عن طريقه ، قضيته .

٤

والمرأة ، في قضيته ، أين ، وكيف كانت ؟

ايه أنت يا حبيبتي ، بل يا أمي ويا زوجتي ويا أختي
ايه أنت ، يا من تحملين الشمس على جبينك ،
أيتها الطفلة الحلوة التي عيونها من ذهب ،
يا طفلتي التي عيونها من ذهب !
الصيف ولّى
مصعدا صرخات مجنونة
ولم اتمكن ان احمل اليكِ
باقة من البنفسج الأصهب .
أردت ،
يا حبيبتي ،
أن أشتري لك باقة من البنفسج الاصهب ،
وكان الرفاق جياعا ،
فأكلنا بثمنه خبزا أسمر .

والحبيبة منوّر تعرف ، مثله ، كيف تضحي بالبنفسج الاصهب في سبيل الخبز الاسمر ، حين يكون هذا الخبز ضروريا للقضية ، وللرفاق العاملين لاجل القضية .

بيد انها ، على الضفة الاخرى ، وحيدة . وحبيبها ، على الضفة المقابلة ، وحيد . انه في السجن ، يكتب لها قصائد حب (١) ، قصائد انسان عاشق للمرأة ، عاشق للحياة ، عاشق للحرية ، يدفع من سنوات

(١) انظر « شعر ناظم حكمت » ، ترجمة علي سعد ، ص ١١٢ وما بعدها .

شبابه ، وهو في الزنزانة ، فدية الحرية ، مهرها ، باعتبارها عروسا ، بل عروس العرسان ، في كل زمان ومكان .

وعلى مدى الاربعينات ، من هذا القرن ، يظل ناظم في السجن ، وكان سجنه طويلا هذه المرة ، ثلاثة عشر عاما ، معظمها في الزنزانة ، معزولا عن العالم الخارجي ، بعيدا عن الناس ، في ظلمة كظلمة القبر ، بل أشد واقسى ، لان الثاوي ، في الحفرة المظلمة ، لا زال حيا ، يحسّ ، ويتنفس ، ويتعذب في حياته واحساسه ، ويتعلم ، نعم يتعلم ، لكي لا يفقـــد عقله ، أن يكلم نفسه ، ويحتفظ بهذه العادة ، الى نهاية عمره ، ويحملها معه ذكرى من عالم الاحياء الى عالم الاموات ، ليشهد عالم الاحياء والاموات ، على ان الانسان الذي تعلم ان يمارس الظلم ، تعلم ، وبقدر اكبر ، ان يمارس مقاومة الظلم ، وينتصر عليـــه .

ناظم في السجن ، والمحكمة تطلب عنقه ، وزوجتـــه منوّر خـــارج السجن ، تخاف على عنقه ، وهو يكتب اليها : « كوني على ثقة ، يا حبيبتي ، انهم عبثا سينظرون ، في عيني ناظم الزرقاوين ، اذا ما حاولت يد غجري تعس ، شبيهة بعنكبوت أسود ، أن تضع الانشوطة في عنقي .. لكنهم لن يتوصلوا الى اقتلاع رأس الانسان ، بالسهولة التي يقتلعون بها رأســا من اللفت » ..

وتصدق فراسة الشاعر في جلاديه ، فالسلطـــة الرجعية تعجز عن قطف رأسه ، كما تقطف الجوزة الهندية ، لكنها تقرر أن تقتـــله صبرا ، في الظلمة والرطوبة والتعذيب المنظم ، ويصمد هو لكل هذا الهول ، ويروح ، خلل عذاباته ، يكتب احلى واروع رسائله وقصائده اليهـــا : الى منوّر ، الزوجة والحبيبة . « يا حبي ، يقول لها ، يا كنزي الوحيد في هذا العالم ، أنت هنا معي ، في لحمي وعظمي :

محال عليّ أن اضم خيالك ،
الذي رسخ في ذاكرتي ،
ومع ذلك ، انت هنا ، معي ،
في لحمي وعظمي ،
حقيقة هما عيناك ، وفمك الاحمر ،
الذي مُنع عني شهده ،
وتراخيك ، كالماء المتمرد ،
وبياضك الذي لا تبلغه شفتاي .

وشهرا بعد شهر ، وسنة بعد اخرى ، يغدو الحب زاده اليومي ، وفي الاحلام ــ وكثيرا ما طاب له النوم لاجلها ــ يرى حبيبته ويعانقها ، يفتح لها قلبه لتقرأ فيه الجسارة ، وكذلك ، الدمع ، فالانسان القادر على التحديق في آلة الاعدام دون أن يرفّ له جفن ، هو نفسه القادر على البكاء حنينا ، حين تغلق عليه الابواب ، ويهبط الليل وفي جيوبه كل صور الاحباب وذكرياتهم . واذ يكون الحب حبا ، تزول الاحادية ولعبة « التوازن » والمناورات الخبيثة . تأتي الصراحة لتجعل الذاتين ذاتا واحدة ، ذاتا ، بقدر ما هي حميمة ، ضرورية ، يستريح اليها كل منهما ويطمئن ، وفي مستودعها يخزن أشياءه المفرحة والمحزنة ، وعلى صدرها يضع رأسه المتعب ، ومنه يستمد العزم في مكاشفة كما أمام النفس . وان يكون للمرء هذا الحب ، فذلك هو الكنز الذي أكبر وأثمن من كل الكنوز ، والا يكون ، فيا لهول الفقر والتيه والوحدة ! ما أشقى الانسان اذا لم يكن له حب ! حب يأكل معه ويشرب وينام ويستيقظ ، يصعد الجبال ويقطع الدروب .. ويدخل السجن أيضا .

بهذا الحجم ، وهذا الجلال ، كان حب ناظم لمنوّر . وفي « الانفراد » المعذب، كان زوجا له ورفيقا ، جليسا ومسامرا، مستودعا للسر والنجوى.

« انا يا منوّر لا اعلم عدد الذين يعيشون معي في نفس البناء ، انا وحدي بعيد عنهم ، وهم جميعا بعيدون عني ، ولا يسمح لي الا بالتكلم مع نفسي ، وهذا ما اعمل ، انا أثرثر ، وأجد ثرثرتي تافهة فأغني ، ايه يا امرأتي ! اغني ، هل تصدقين ؟ صوتي المنكر ، الخالي من الطرب ، يتغلغل في نفسي حتى ليتفطر قلبي ، وكاليتيم في القصص الباكية ، اليتيم الحافي على ثلج الدروب ، يود قلبي أن يبكي ، ويمسح عينيه الزرقاوين ، وأنفه الصغير الصغير ... ولكن أن يبكي ، فليس لايقاف الفارس المسافر ، المتطي جوادا عندميا على الدرب .. أن يبكي فليس تهربا من سماع صرخات الطيور الجائعة :

ان يبكي ويرتعد في الريح ،
ان يبكي وحيدا ، ولنفسه ،
يا للغرابة !
انا لا اخجل من حالة قلبي هذه ،
انا لا احمرّ خجلا ،

من رؤيته ينطوي على نفسه ،
منكس الرأس ،
ومن الاحساس به ضعيفا هكذا ،
وانانيا هكذا ،
وانسانيا بكل هذه البساطة .

ولماذا ؟ ومتى يبكي قلب الشاعر ، قلب الفنان ؟ وما نوع بكائه ؟

لا تنكروا في الدمع غصة شاعر رمز التمرد في دموع الشاعر (١)

رمز تمرد ؟ هذا هو .. أن يبكي قلب ناظم فقد كان يتمرد ، وربما كانت له ، كما يقول ، اسباب أخر ، وقد يكون ذلك عائدا الى نافذتي الزنزانة المسدودتين بقضبان الحديد ، والى الجرة الخزفية ، والجدران الاربعة التي لا تسمعه من الاصوات البشرية غير صوته . لكن هذا الهول في الانفراد ، في العذاب اليومي ، سيقابله ، على مدى السجن ، جبروت في الصمود له . غير ان القلب يظلّ قلبا ، وحين يتساقط الثلج ، ويشتد البرد ، وتخيم الظلمة ، ويلتفّ السجين الراسف في السلاسل ، في بطانيته على المصطبة الاسمنتية ، يصبح من حق نهر الاسى أن يتفجر ، ومن حق القلب أن يبكي متمردا في بكائه وأساه .. انها العشية المبكرة ، الساعة الخامسة :

انها الساعة الخامسة يا حبيبتي ،
في العالم الخارجي ،
بكل عطشه وهمسه الفريب ، وسطحه الترابي ،
وجداره الهزيل المشوه ،
الساكن أبدا وسط اللانهايات .
في العالم الخارجي ،
بكل صناعاته وغرائبه ،
وبكل ما يلزم لدفع الانسان الى الجنون ،
الاحمر ، الاحمر ، في الفضاء المقفر من الاشجار ،
من امسيات الصحراء .

• • •

---

(١) عبد المطلب الامين .

بعد قليل سيقبل الليل فجأة ،
وسيأتي ضياء ليحيط بالجواد الهزيل ،
والطبيعة التي فقدت رجاءها ،
والتي تستلقي هناك مثل ميت ذي وجه قاس ،
سوف تمتلىء بغتة بالنجوم ،
هي الفارغة من الاشجار ،
وعند ذاك ستكون النهاية المعلومة
للقضية .
يعني ان كل شيء سيكون جاهزا ،
سيكون كل شيء في مكانه ،
وسيكتمل الحفل لبعث الحنين
المهيب .

ومع الحنين تأتي أشياء العالم الخارجي . الرفاق ، والمعارف ، وتركيا ، والعالم ، وقبل الجميع ، منور ، ومعها محمد (عجلي محمد) . ويقوم الشاعر ، وسلاسله تجلجل في قدميه ، مرحبا : « أهلا بزوجتي اهلا » . ويرتبك في حفرته « العارية » الباردة . لكن معها ، مع الحبيبة ، تكتسي الجدران ، ويورق الحجر ، ويخضرّ الاسمنت ، ويضيء الاسم المحفور على سوار السجين :

لقد حفرت اسمك بظفري
على جلد سواري
فأنت تعلمين انه لا يوجد
في سجني سكين ذات مقبض صدفي
« ممنوع استعمال الادوات القاطعة »
ولا شجرة شربين ينطح راسها السماء .
بلى توجد في الباحة شجرة صغيرة ،
ولكن ممنوع حتى على السحاب ،
ان يعلو رؤوسنا !..

وتضحك منور لهذا الاستقبال الاحتفالي ولا في جناح ملك الملوك ، ولهذه الخضرة الاسمنتية ولا شقائق النعمان في غوطة دمشق ، ولموسيقى الترحيب ولا قيثارة داود . يضحك طيفها في مرآته ، في ذاكرته ، ويجرب هو أن يمدّ يده الى الطيف ، ان يلامس الوجه والشعر ، ان يعانق شوقه

فيه ، ويظل الطيف طيفا ، يحطم المرآة ، ويظل خيـــــالها خيالا ، ويقنـع بالخيال ، ويهدأ ، وتبدأ اغرب حفلة سمر بين سامرين عاشقين : « يا منور ! سأقول لك شيئا مهما . الانسان تتغير طبيعته عندما تتغير اقامته . انا ، هنا ، احب النوم الذي يأتي كيد صديقة ليفتح بابي ويقلب جدراني ، ويحملني خارجا حيث الكون مشرق جميل .

ـ ولكنك سجين يا ناظم !
ـ ومرة واحدة لم اجد نفسي سجينا في أحلامي
ولم اقع من الجبل الى الهاوية يا حبيبتي .
ـ احلامك مرعبة يا زوجي !
ـ لا يا زوجتي .. لي من الشجاعة ما يسمح بأن أترك
للحلم نصيبه من الحلم !
ـ وماذا ، سواي ، في هذا الحلم ؟
ـ مدينتي ! استانبولي ..
ـ وماذا تقول لها ؟
ـ ما أقوله لك .
ـ وماذا تريد منها لاخبرها ؟
لا شيء .. ولكن هي ..

« يا منور ! لو هي ، مدينتي ، استانبولي ، أرسلت اليّ يوما صندوق عروس من خشب السرو ، فيــه لفتان من الكتـــان الابيض ، وزوجان من القمصان ، ومناديل بيضاء مطرزة بالفضة ، وازهار لاوند في كيس صغير من التول ، وانت ... آه يا منور ! لو فتحت الصندوق ، وكنت فيه انت ، وخرجت من داخله انت .

سأجلسك على حافة السرير
واضع تحت قدميك جلدي
المخيف كجلد الذئب ،
وابقى امامك خافض الرأس ،
معقود اليدين .
وسأتأملك ، آه يا فرحي .
سأتأملك مسحـورا .
كم انت جميلة ، يا الهي ، كم انت جميلة !
ففي ابتسامتك هواء استانبول وماؤها

وفي نظرتك صبابات مدينتي ،
ايه يا سلطانتي ! ايه يا مولاتي ،
لو انك سمحت ، ولو تجرأ عبدك ناظم
فسيكون كمن يتنشق ويقبل
استانبول على خدك .
ولكن حذار ،
حذار أن تقولي لي « اقترب »
فانه يخيل لي انه لو مست يدك يدي
لوقعت ميتا على « البيطون » .

ويغفو الشاعر في بطانيته على المصطبة الاسمنتية . انتهت حفلة السمر الليلية التي ستتكرر طوال ثلاثة عشر عاما . وفي الصباح ، على خيوط النور من الكوّة المسيجة بقضبان الحديد ، يفيق ناظم ، تاركا للخيال حظه من الخيال ، وللحلم حظه من الحلم ، ويشرع يكلم نفسه ، ويكتب قصائده الى منور ، واستانبول ، ولينين ، وبرشلونه ، والاصدقاء الجياع ، والشيخ بدر الدين ، ويونس الاعرج ، ويوسف المسكين ، والطفلة التي عيونها من ذهب ، والمعارف الذين هناك ، والدنيا والاصدقاء والاعداء والتراب ، وبتروغراد والمسافرين الى غاياتهم ، والصفصاف الباكي ، وصاحب القرنفلة ، وتارانتا بابو (١) .. والحب :

لقد أدركونا يا منور
فنحن الاثنين في السجن ،
أنا داخل الجدران ،
وأنت خارجها .
ولكن ما هو اسوأ من ذلك ،
ان نحمل هذا السجن في انفسنا !

. . .

عندما سنخرج من بوابة القلعة ،
كي نذهب للتفرج على الموت ،
فسنقدر يا حبيبتي ،
ونحن نتأمل المدينة لآخر مرة ،
ان نقول لها :

---

(١) اسماء قصائد لناظم حكمت .

« رغم انك لم تضحكينا كثيرا يا مدينتنا ،
فاننا عملنا كل ما في وسعنا ،
لاسعادك » .

. . .

استانبول ، يا استانبولي ،
يقولون ان البؤس فيك ،
يفوق كل وصف
ويقولون ان المجاعة تحصد الناس ،
ويقولون انهم يذوون بالسل
أخبار سيئة عن مدينتي البعيدة ،
مدينة الشرفاء والكادحين والفقراء ،
مدينتي الحقيقية ، استانبولي ،
المدينة التي تقطنين فيها يا حبيبتي ،
المدينة التي احملها على ظهري وفي جرابي
من منفى الى منفى ، ومن سجن الى سجن ،
المدينة التي احملها في قلبي كما يحمل الخنجر ،
وكصورتك في عينيّ

. . .

الباب مغلق هناك ،
فيتحتم اقتحامه ،
اذ تتحتم رؤيتك يا حبيبتي .
لتكن الحياة مثلك جميلة ،
ولتكن الحياة صديقة وحبيبة مثلك .
أنا اعلم ان حفلة البؤس لما تنته بعد ،
ولكنها ستنتهي يوما .

. . .

في أيام الخريف هذه ..
أنا مفعم بكلماتك ،
الكلمات الخالدة خلود الزمن ، والمادة ،
الكلمات المشعشعة كالنجوم .
يا منور ، بلغتني كلماتك ،
كلماتك المحملة بك

كلماتك يا أمي ،
كلماتك يا صديقتي ،
وقد كانت حزينة ومريرة ،
وشجاعة وبطلة ،
كانت كلماتك رجالا .

من ذا الذي قال : « اذا تصفحت ديواني لتقرأني ، وجدت شعر المراثي نصف ديواني ؟ » . ولماذا المراثي ، أيها الشاعر الذي اتخذ له مقعدا على تخوم الآخرة ؟ لعلك ، واأسفاه ، لم تجد ذاتك الا في الذوات الراحلة ، وكذلك كان نصف شعرنا ، وكانت نصف حياتنا ، في الربع الاول من هذا القرن . لقد تعاملنا مع الزن ندّابين لا عظماء . لم نسمَ حتى الى رومانسية لامارتين ، لاننا لم نتعامل مع الحياة الا في الجانب المحتضر منها ، لم نر ، ولم نسمع ، ولم نحب ، ولم نتألم بالعمق اللازم لكل هذه الاشياء ، وحتى الذين فعلوا ، وأبدعوا القليل ، أخرجوا ابداعاتهم مخارج الاطلاق والتعميم ، قتلوا فيها الذاتية والبساطة والصدق ، الا فيما ندر . وجدوا من العيب أن يتحدثوا عن أشيائهم السيئة ، وعواطفهم العارية ، وحبيباتهم كنساء لا كدمى ، وعن شؤونهم وشجونهم بالتخصيص لا بالتعميم . وشعرنا ، كناسنا ، ظلّ جوهره محجوبا بقشور الفخامة والضخامة في الفخر والحماسة ، وكل صفات الخيرية الزائفة التي غررتنا وخدعتنا وأفسدت صحة تشكلنا كبشر من هذا القرن .

نصف ديوان ناظم حب .. ولم لا ؟ المرأة ليست متوازية مع خط القضية ، بل هي اساس القضية ، أساس فيها .. لها ، ومعها كل الكلمات ، كل الخطوات على الدرب الطويل :

نحن الاثنين نعلم يا حبيبتي ،
فقد علمونا ،
كيف نجوع ، ونبرد ،
ونقضي من التعب ،
وكيف نعيش منفصلين .
اننا لم نبلغ حدّ القتل .
لم يتهيأ لنا ، بعد ، أن نموت .
ولكننا نعلم ، كلانا ، يا حبيبتي ، نعلم ،
ونستطيع أن نعلم الآخرين ،

النضال في سبيل قومنا ،
ومحبة كل يوم أقوى ،
ومحبة كل يوم افضل .

. . .

ولدنا مريض
ووالده في السجن ،
وراسك ملقى بين يديك
التعبتين ،
ولكننا في النقطة التي وصل اليها العالم ،
ومن الايام السود الى الايام البيض ،
سيحمل الناس الناس ،
وسيشفى ولدنا ،
ويخرج والده من السجن ،
وستضحكين في قرارة عينيك الذهبيتين .

. . .

الخريف سينقضي ، مرة بعد مرة ،
والربيع سيعـود ، مرة بعد مرة ،
ونحن سنقضي شتاء آخر ،
متدفئين بنار غضبنا الاكبر ،
ورجائنا الاقدس .

وكذلك ، على مدى الحياة ، مدى الشعر ، سيكون حب المراة الماء في العجين ، والدم في الشرايين ، بالنسبة للشاعر وقضيته الشعرية . وان تكون المراة بهذه الصفة ، وحبها بهذا الحجم وهذا النوع ، فتلك هي المراة التي تحتاجها قضية الشعر وقضية الشاعر ، قضية الفن وقضية الفنان ، ولكي يكون شعر وفن وقضية ، تتنزل التضحية ، مثل كلمـــة الوحـــي ، في الروح ، لتغدو شعارا في الحياة ، وسلوكا على درب الجلجلة ، وتغدو المراة ، وكذلك الرجل ، في الحالتين المتقابلتين ، نسيجا من نكران الذات ، لما هو اكبر وابقى ، لقضية القضية في كل هذه المعاني . . ومن هذه المعاني، التي جسدتها المراة وتجسدت بها ، ينبع فرحها وسموها وخلودها ايضا .

المراة ، حين تكون ملهمة وحبيبة ورفيقة ، تصبح كما الزا تريولي عند اراغون : امراة العصور هنا ، للمرة الاولى في هذا العالم ، تتــاح الفرصة

للحب الحقيقي ان يوجد . حب لا تدنسه طبقة الرجل والمرأة ، ولا تاريخ الثياب والقبلات القذر ، ولا سيطرة مال الرجل على المرأة أو مال المرأة على الرجل . لقد ولدت امرأة العصور الحديثة ، وهي المرأة التي أغنيها ، وهي المرأة التي سأغنيها » (١) .

والرجل ، حين يكون ملهما وحبيبا ورفيقا ،يصبح كما أراغون عند الزا تريولي : الجزء الذي لا يتجزأ « عندما سنغدو (٢) أخيرا ، جنبا الى جنب ، صريعين ، فان اتحاد كتبنا سيوحدنا من أجل ما هو افضل ومن اجل ما هو أسوأ في هذا المستقبل ، الذي كان حلمنا وقلقنا الاكبر ، أنت وأنا . ولعل الموت القادر سوف يحاول وينجح ، في ان يفصل احدنا عن الآخر ، بقدرة لا تضاهيها قدرة الحرب على فعل ذلك مع الاحياء : فالموتى بلا سلاح . ولهذا فان كتبنا المتقاطعة ستأتي أسود على أبيض ، واليد في اليد ، تقاوم من ينتزع الواحد منا من الآخر » .

في سجن بروصه ، حيث الشتاء يأتي مبكرا ، والثلج يغطي الارض ، ولا تبقى الا الغربان تحوم في الاصباح ، والبرد في الزنزانة يهدي الروماتيزم للقلب ، والرطوبة تسري بشللها في الاوصال ، وحيث ناظم يعرف ان الفصول تتغير ، بفعل « الصراع البطيء الفاعل تحت الارض » وان « تحت الثرى الكادح والابي تتابع الحياة سيرها » . في هذا السجن كان يفكر فيها ، بمنور ، بالملهمة والحبيبة والرفيقة :

ماذا تعمل الآن ،
الآن في هذه اللحظة ؟
اهي في بيتها ؟ أم في الشارع ؟
ام في عملها ؟ اهي مستلقية ؟ اهي واقفة ؟
ام ربما ترفع ذراعها ؟
ايه يا وردتي ،
كم تكشف هذه الحركة فجأة
معصمك الابيض المستدير !
ماذا تعمل الآن ؟
لا شك انها تداعب
قطا يرقد في حجرها ،

---

(١) و (٢) راجع مقال بدر الدين عرودكي ـ « الطليعة » السورية ، ٢٢ آب ١٩٧٠ .

أو ربما هي تمشي .
ها هي قدمها تنتقل ،
آه من قدميك ، قدميك الحبيبتين ،
قدميك اللتين تمشيان على روحي
قدميك اللتين تضيئان أيامي السوداء .
بمن تفكر ؟
بي ؟ أم ... ومن يدري ؟!
بالفاصوليا ، التي لم تشأ أن تنضج ؟
أو ربما هي تتساءل :
لماذا قدّر هكذا لاناس عديدين ،
ان يكونوا بؤساء الى هذا الحد ؟
ماذا تعمل ؟ ماذا تعمل الآن ،
في هذه اللحظة ؟

ورغم الثلج والبرد والرطوبة والظلمة ، ورغم « السجن الذي دام هذه المرة طويلا » ، ظلّ ناظم يطوف الدنيا ، يذهب مع يوسف وقاربه المسكين الى برشلونة ومرافىء العالم ، يسير على أرصفة استانبول ، يستعيد ملامح عائشة وعثمان وابن بيرم ، يغني ، يكلم نفسه ، ينظم الشعر ، ويفكر ، أبدا، بالملهمة والحبيبة والرفيقة :

ما أسعد ان أفكر بك ،
عبر ضوضاء الموت والظفر
ان افكر بك وانا في السجن
وبعدما تجاوزت الاربعين .
ما أسعد ان أفكر بك ،
ها هي يد صديقة منسية على
نسيج أزرق .
وها هو ، في شعرك ،
استرخاء ثرى مدينتي استانبول وكبرياؤها ،
ان سعادتي بحبك
لتشبه قيام انسان آخر في داخلي .
ما أسعد ان أفكر بك
ان اكتب اليك

وأن اتأملك مستلقية
في غرفة سجني ،
وأن افكر بالكلمة التي قلتها في اليوم الفلاني
والموضوع الفلاني .
ليس بالكلمة ذاتها ،
وانما بطريقتها في احتواء عالم بكامله .
ما أسعد أن افكر بك !
سأصنع لك علبة صغيرة وخاتما
واحيك ثلاثة أمتار من الحرير
وفجأة ،
أندفع واقفا ،
لالقي بنفسي على قضبان ،
نافذتي
واصرخ في سماء الحرية الزرقاء ،
بكل ما كتبته لأجلك .

٥

واخيرا يأتي اليوم الذي يصرخ فيه ، عبر العالم كله ، بكل ما كتبه لاجل منوّر ، وبكل ما يكتبه لاجل ابنه محمد ، ولأجلها هي ، التي يحملها معه ، مثل استانبوله ، في قلبه وجرابه .

يأتي ذلك اليوم الذي ترى فيه الرجعية التركية المندريسية انه لا جدوى من السجن ، والزنزانة ، وحبل المشنقة الذي أرجحته طوال عقد ونصف فوق راسه .

وليس من السهل ، ومكانة الشاعر بهذا الحجم ، أن تقطع راسه كما تقطع راسا من اللفت .

وليس من السهل كذلك ، وناظم مريض ، وحملة الاحتجاج العالمية كموج العاصفة ، أن تبقيه في السجن ، فتتحمل مسؤولية موته امام الشعب التركي وشعوب العالم .

وهكذا تضطر ، عام ١٩٥٠ ، الى اطلاق سراحه ، ويضطر ناظم الى تخطي الحدود والذهاب الى البلدان الاشتراكية ، حيث سيستقر في الاتحاد السوفياتي ، ويموت فيه بعد اثني عشر عاما من ذلك .

وبمغادرته تركيا التي لن يراها ثانية ، يغادر اعز مخلوقين لديه ، زوجه منوّر وابنه محمد ، وعنهما ، ولهما ، سيكتب قصائد رائعة ، وعن رفاقه ، ولرفاقه ، سيكتب قصائد تترك دويا في آذان الدنيا :

يا رفاقي ،
انني احس ، بأوجاعكم ،
مثلما تحسون بها تماما .
ويا اخواني !
ان الدمع ليتحير في المآقي ،

فأتمالك نفسي مثلكم تماما ،
وبنفس الحزم .

(من قصيدة ٥ اذار ١٩٥٣)

. . .

لعلني ،
قبل ذلك اليوم بكثير ،
اتأرجح على راس جسر ،
ذات صباح ،
ويتأرجح على الاسفلت ظلي .
ولعلني ،
بعد ذلك اليوم بكثير ،
وعلى ذقني الحليقة
ابقى سالما ،
إثر لحية بيضاء .
اذا بقيت سالما بعد ذلك اليوم ،
سأكتب على الجدران ، وفوق الارصفة ،
في الساحات العامة ،
اشعاري .
وسأعزف على الكمان ،
في ليالي العيد ،
لمن يبقون من المعركة الاخيرة ،
وكذلك سأعزف ،
على الارصفة المغمورة بضياء ليلة رائعة ،
للذين يغنون اغاني جديدة ؛
للناس الجدد ، والخطوات الجديدة .

(من قصيدة : لعلني)

. . .

جاء نبأ منهم ،
من هناك ،
منهم .
قمصانهم ليست وسخة ،

ولا حواجبهم مقطبة ،
ولكن حلاقتهم طويلة قليلا ،
ليس غير .
لم يقولوا :
« احترقنا »
بل قالوا :
« صمدنا »
واني لأعرف انهم صمدوا .
بعيون ضاحكة ،
ينظرون الى الانسان ،
وعلى أصداغهم جرح طري ،
وحواجبهم غير مقطبة ،
ولكن حلاقتهم طويلة قليلا ،
ليس غير .

(قصيدة نبا)

وفي التاسع من تشرين الاول ١٩٥٤ ، وبهـذا العنوان ، يكتب الـى منوّر قصيدة :

اخرجي من صندوقك ،
الثوب الذي ارتديته يوم لقائنا الاول .
وبغدائرك ،
علقي القرنفلة التي أرسلتها اليك ،
داخل مكتوب ،
من السجن .

• • •

البسي ، وتغندري ،
وتزيني كأشجار الربيع ،
فليس هذا اليوم للرعب ،
ولا هو للحزن ،
انا ادري بأية مناسبة ،
في مثل هذا اليوم ،
يلوح للاعداء ،



جبين زوجة ناظم حكمت ،
مرفوعا الى العلاء .

. . .

احبك ،
ولكن كيف ؟
اشدّ بكفي على قلبي ،
كآنية من بلور ،
مدميا اصابعي ،
وهذا أجر جنونها .
احبك ،
مئة بالمئة ،
وخمسة آلاف بالمئة ،
ومئـــات لا عدّ لها بالمئة .

(من قصيدة : قصة فراق)

. . .

ايه يا حبيبتي !
ان حبك ليشبه ،
سعادة يوم صاف ،
بلوري ،
لماع من أيام الشتاء .
وقرقشة تفاحة ،
لحمية ،
ماوية ، تحت الاسنان
والتنفس بعمق ،
في غابة صنوبر ،
ظليلة الاغصان .

. . .

الحياة شيء يدعو الى الامل يا منور ،
الحياة شيء يدعو الى الامل ،
يا حبيبتي
والتفكير بك شيء جميلٌ ،

كأجمل اصوات الدنيا ،
وكسماع اجمل اغنية .
انما الامل وحده لم يعد يكفيني ،
انا لا أريد ، بعد ، سماع الاغاني ،
اريد أن أغني الاغاني .

. . .

سيولد منا ، يا منور !
أكمل من ولد من التراب ،
ومن النار والبحار .
ودون خوف ،
ولا تفكير ،
سيترك الناس أيدي الناس ،
ناظرين الى النجوم ،
قائلين :
« الحياة شيء جميل »
انها ، كعيني الانسان ، دون قرار ،
ناضرة كعنقود من العنب ،
فرحة ، مستبشرة .
وستكون الحياة اغنية لم تسمع من قبل ،
وثمرة لم تحمل مثلها شجرة من قبل ،
ونغما ، لم يعط الصباح مثله ،
ولا ليلة صيف ،
ولونا ، ليس كمثله بين الالوان .
من التراب ،
من النار ،
من البحار ،
سيولد منا ،
اجمل من ولد ،
من التراب ،
من النار ،
من البحار .

ويظلّ ناظم ، طوال أحد عشر عاما من منفاه الجديد ، يكتب قصائده لمنوّر ، ولابنه محمد ، ولرفاقه ، ولبلده، وينشر قصائده التي كتبها سابقا، ويتلفت ، ومعه الناس الذين احبوه ، في كلّ قـــارة وكل بلد ، الى المرأة التي غادرها هناك ، بعيدا ، على ضفاف البوسفور ، ولم يعد يأتيه عنها خبر.

ولكن العام ١٩٦١ ، سيقدر له أن يحملُ هذا الخبر ، وسيكون مفاجئا، لان منوّر ، بذاتها ، ستكون الخبر المنتظر . فقـد لحقت به ، هذا العام ، متخطية حدود تركيا كما فعل ، ولكنها بعد فترة تفترق عنه ، وبرضاها . وهنا المفاجأة .. هنا النقطة التي اثارت الدهشة والحيرة ، ورسمت علامة استفهام كبيرة ، وظلت ، في الدراسات عن ناظم ، في الظل أو الاهمال ، لعدم توفر المعطيات الحياتية والشعرية التي تساعد في فهم هذا المـوقف الغريب .

هل أقول انني أملك هذه المعطيات ؟ زعم عريض هــذا . لديّ بعض الاخبار عن ذلك ، ولكن لديّ بعض ما أقوله حــول ذلك ، ولعله أن يلقي ضوءا على علاقة ناظم بمنوّر ، وعلى شعره فيها ، وسبب افتراقه عنهـا ، واحب لكم ، في هذا الامر ، الا تأخذوا كلامي على انه راي اقطع به ، فأنا اطرحه اجتهادا ، ولكم أن تجتهدوا ، وأن تفكروا بدوركم ، وأن ترسموا ، مثلي ، علامة استفهام ، فعلامات الاستفهام ، حين ترسم ، تستثير الاجابة، او محاولتها على الاقل .

والذي يحسن بنا أن نقدّره ، في الكلام على هذه الناحيــة ، هو ان الحلم يظل حلما حتى يتحقق ، فاذا لم ينشأ عنه ، في لحظـــة تحققه أو قبلها ، حلم آخر ، جديد ، بهت الحلم القديم ، وصار الطموح الى ذبول ، وتجمد التوق الى التغيير الذي هو هدف الانسان وفعله الاسمى في هــذا الوجــــود .

قيل ان رجلا في الحضيض من السلم الاجتماعي كان يعدد في مجلس صحب أمانيه في الارتقاء ، فقال له جليسه : « اختصر ، تريد أن تصبـح رئيسا للجمهورية ؟ » فقال : اما هـــذا فلا ، رئاسة الجمهورية ليس لهــا مستقبــل !

نكتة ؟ نعم ! ولكنها ذات دلالة ، ودلالتها ان الطموح يتجاوز المحدود الى اللامحدود ، فاذا تحدد تحجر ، صار عقبة ، صار قديما ، ومن هنــا تناقض القديم والجديد ، برغم ان القديم قد كان جـــديدا ، وأن الجديد

سيصير ، بدوره ، قديما ، ومن هنا ماساة الذين يحسبون ان مسار الدنيا بلغ بهم ذروته ولا مزيد ، فيدخلون في صراع معه ، ثم يمشي عليهم كما تمشي العاصفة على الاعواد اليابسة ، لان الذين يزعمون تقرير مصير الاشياء لكل المراحل انما يقررون سخفهم . ان جهد العاملين أن يواكبوا مسيرة هذه الاشياء ويدفعوها ، في دور من أدوار التاريخ ، ثم يخلوا الساحة لغيرهم ، وتخلي الاشياء الساحة لسواها . وقد كان لينين محقا حين وصل الى أحد الاحتفالات ورأى لافتة كتب عليها « عاشت مجالس السوفييت الى الابد » فتساءل ساخرا : « الى الابد ؟ واذن لن نتخطى مرحلتها ؟ » .

على ان الطموح ، في الشعر لا في الفلسفة ، هو بغيتنا الآن ، وان كان لا خلاف . فنحن نتحدث عن الشعر وعن ناظم حكمت الشاعر ، ومع ذلك قاربنا الفلسفة ، لان الشعر والفلسفة حليفان . والرغبة في غير الكائن حتى يكون حلم شعري وفلسفي معا ، وقد كان ناظم حكمت ، في قصته مع زوجته منوّر ، حلما في غير الكائن حتى كان .. فلما تغيرت الاشياء ، نشأ حلم آخر ، وفهم كل من الشاعر وزوجته الحقيقة ، فذهبت « النحلة التي عيناها أحلى من الشهد » لتعيش بعيدا عن الذي كان يناديها ، في قصائده ، وينشد لها في سجنه وغربته ، أغنية « تفوق كل الاغاني أملا » !

اليكم هذه الواقعة :

في الصين تعرفت الى مجري جاء لتعليم اللغة ، وككل الذين مرّوا ، أو أقاموا هناك ، وجد في الشرق الاقصى عالما مختلفا ، مدهشا ، مثيرا ، لا في ناسه وتقاليده وعاداته وحدها ، بل في آثاره أيضا ، وفي فنونه وكل أشيائه . ومثل الآخرين ، صارت له هواية أثرية ، غدا مشغوفا بالتحف التي يشكل جمعها بالنسبة للذين يعملون في الصين ، متعة رئيسية . صار أستاذ الجامعة جامع تحف ، وراح يقرأ عنها الكتب ، ويتتبع المجلات الاثرية ، ويجهد لفكّ طلاسم المقاطع الصينية ، ويدرس تاريخ السلالات ، ويلوث يديه وثيابه وهو يبحث بين ركام العاديات وينفخ عنها الغبار .

جنّ الاستاذ بهوايته . أصابته الحمى التحفية بعدواها ، وبلغ من أمره انه وضع تحفه من الخشبيات المحفورة في الحمام طوال الصيف ، مالئا « البانيو » بالماء ، كي يرطب الجو ويقي خشبياته التشقق بتأثير الجفاف الشديد في بكين .

واقد رأيته في المطعم حزينا الى درجة البكاء . حسبت ان خبرا

سيئا جاءه من أسرته في بودابست ، أو ان مصابا اليما نزل بأحد أصدقائه. لم يكن شيء من ذلك . المسألة انه ذهب يبحث عن التحف كعادتـه ، فوقع على قطعة لم يكن يحمل ثمنها ، فعـاد الى البيت ليأتي به ، ولكن التحفة اختفت حين عاد لشرائها ، وهكذا أصبحت بفعل اختفائهـا ـ لا قيمتها ـ أغلى التحف واعزها اليه .

ومرّت الايام ... بعد سنة أو أكثر ، جلس الى طاولتي في المطعـم وهو يضحك :

ـ تأمل .. تذكر التحفة التي حدثتك عنها ؟

ـ التحفة التي فاتتك !

ـ هي بعينها .. وجدتها اليوم ..

ـ تهانيّ .. بكم اشتريتها ؟

ـ لم أشترها ..

ـ لم تشترها ؟

ـ نعم .. وأنا آسف !

ـ هل فاتتك مرة اخرى ؟

ـ لا !

ـ ولماذا تأسف اذن ؟

ـ لأني وجدتها !

ـ لم افهم ..

ـ كم عمرك ؟

ـ وما دخل عمري ؟

ـ اريد أن اقول انك صغير بعد ، ستفهم هـذه الاشياء حين تكبر ، هل احببت ؟

ـ حدث ذلك ..

ـ وفارقت التي تحبها ؟

ـ لا !

ـ لو فارقتها لنصحتك بأن لا تسعى للقائها .. دعها ذكرى جميلة ، دع تلك المرأة اجمل النساء واعزّهن لديك ...

ـ ولكن هذا يخالف منطق الاشياء ..

ـ في الظاهر ..

ـ لم اقتنع ..

ـ انا اقتنعت .. حزنت لأني وجدت قطعتي الضائعة ، كان من الافضل

ان تبقى ضائعة ، وفي هذه الحال اظل أحلم بها ، وتظل اعز تحفي عليّ .

لم أكن في تلك الايام قد سمعت بقصة ناظم حكمت وزوجه منوّر . قرات بعض اشعاره التي تتحدث عن زوجه ، ام ولده محمد ، وكنت اقول في نفسي : « لماذا اذن يعاقب الزمن هذا الشاعر بفراق أعزّ مخلوق لديه ؟ وكيف لا يستطيع ان يعرف ما حلّ بها ، بعد أن تخطى حدود بلاده تركيا ، واقام في الغربة التي قال عنها : « يا لها من مهنة شاقة ؟! » . ثم كيف لا تستطيع « منوّر » أن تتدبر أمرها وتلحق بناظم ، لتصنع له الفرحة الكبرى التي يعيش لها ؟» .

وتمتصّ شمس الايام اسفنجة العمر . سنوات أخر ، وها انا في اوروبا . في بودابست هذه المرة . وقال الزائر ، وهو صديق لناظم حكمت :

ـ هذا البيت محظوظ .. سكنه قبلك صديقي ناظم !

كان ناظم ، في هذا الوقت ، قد ارتحل عن دنيانا . وبقينا لحظة صامتين : يا للمصادفة العجيبة ! من كان يظن ؟ آه يا بيتي العظيم ! وتلفتّ الى الاثاث والجدران .. هنا ، اذن ، كان يعيش الشاعر الاسطورة ؟

في مقدمة قصيدته « تارانتا بابو » قال ناظم ان صديقا له سكن غرفة كان يشغلها قبله افريقي ، وانه عثر في الادراج على رسائل منه الى زوجه « تارانتا بابو » يخبرها فيها عما يتوقعه من هجوم فاشيست موسوليني عليه ، ليقودوه الى الموت .. وهذا ما جرى كما نفهم من القصيدة .

انصرف الزائر ... وبخشوع وقفت وحيدا في بيتي لا اجرؤ على الحركة . « اخلع نعليك فانت في الوادي المقدس » . هنا ، ايضا ، واد مقدس . هنا كان يسكن شاعر يعزف على « قيثارة تحركها روح نبوءة » .. بيديه لمس كل هذه الاشياء ، وبنظراته صافحها ، ومن وجوده فيها أعطى الوجود قصائد جميلة ... هنا تنفس وعاش وعمل ، والجو ، ربما ، يحفظ انفاسه ، والهواء صوته . كان عليّ أن اغلق النوافذ ، فعل جبران بعد خروج سلمى كرامة (١) ، لكنني تصرفت بوحي من « تارانتا بابو » ، جعلت افتح الادراج والخزائن وابحث في كل زاوية من البيت عسى أن اعثر على صورة ، قلم ، صفحة ، قصيدة لناظم ، ومع الاسف لم اعثر على شيء ، لكني ، بالمقابل ، عثرت على الاهتمام بناظم ، وبعلاقته بمنوّر ، وذهبت الى

(١) بطلة « الأجنحة المتكسرة » لجبران خليل جبران .

صديقه أسأله عن ذلك ، فكان جوابه لي ، كجوابي لصاحب التحفة الضائعة : « ان موقفه منها ، بعد اللقاء بها ، مخالف لمنطق الاشياء » .

غير ان فهم هذه العلاقة ، في غير ظاهرها ، ينبع من مخالفة منطق الاشياء ومطابقتها معا . المنطق يقول بالوفاء الزوجي ، بالاخلاص للحلم ، بممارسة السعادة عند لقاء « التحفة » بنفس الحرارة ، أيام كانت ضائعة ، ولكن الامور لا تجري على هذا النحو ، وقديما قيل : « أحب الاشياء الى النفس ثلاثة : المريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود ، والصغير حتى يكبر » . والمسيح ضرب لذلك مثلا بالخروف الضائع ، صار في ضياعه ، احب خراف الراعي الى نفسه .

كانت منوّر « نحلة » ضائعة طوال ثلاثة عشر عاما ، وكان ضياعها مصدر الهام صاغ منه ناظم أعظم قصائده في الغزل ، والحنين الى الوطن ، ومناجاة الارض التي تطأ ، والهواء الذي تتنفس . ان وطن ناظم لم يكن تصورا مجردا ، بل كان عالما من الناس والتراب والماء وكل مقوّمات الوجود الارضي في بقعة معينة من الدنيا ، فلما صارت منوّر الى لقاء بعد ضياع ، وقرب بعد بُعد ، وواقع بعد حلم ، كان على ناظم أن يعيش هذا الواقع بدون حلم ، ويسعد بمعطي الالهام ، وقد كفّ الالهام الذي اعطاه ، كان عليه أن يصبح زوجا وفيا ، وابا صالحا ، ورب بيت عاديا كسائر ارباب البيوت العاديين . بكلمة أخرى ، كان عليه أن يخون الفن مقابل الوفاء للزوجية ، أن يقبل بالحلم الذي صار واقعا فمات ، بغير أن يعيش حلما جديدا لواقع اجدّ ، وأن يكرر نفسه في الالهام الذي تجسد وكفّ عن الاثارة الملهمة ، الناشئة عن التوق الى الآتي في رفض سكونية الحاضر .

وهنا نواجه السؤال الكبير الذي تطرحه ، أبدا ، الحياة الفنية ، بأمثلة مأساوية من حياة الفنانين انفسهم : الوفاء لمن ؟ للفن مع مخالفة منطق الاشياء ؟ أم للزوجية مع موافقة منطق الاشياء ؟

بعيدة عن الذهن حرفية الكلمات . فالمقصود بالفن ما يمثله من نزوع الى الحركة ، والمقصود بالزوجية ما تمثله من ميل الى السكونية ، في معظم الحالات . ان الحركية الفنية تعني الظمأ الى الماء اذ هو سراب ، والبحث عن الجديد اذ هو نطفة في رحم القديم ، والارتعاش ، كأوراق الشجر ، أمام العاصفة وجدا بها ، اذ هي ثورة مضمرة في الغيم والريح . الحركية تعني ارق الليالي في تخيل الجسم ، قبل ان يصبح هذا الجسم شريحة لحم في

متناول الشفاه واليد والحواس الخمس التي سرعان ما تشبع فتملّ وتنقلب ساغبة ، باحثة ، في حرمانها ، عن غذائها . انها تعني طفولة العاطفة ، اذ هي نار لا تطفئها سوى شيخوخة العاطفة نفسها .. أما السكونية الزوجية فتعني الارتواء ، الاكتفاء بواقع الحلم لا الحلم نفسه ، بالقديم وقد كان جديدا ، بالطقس المعتدل ، الملائم للامزجة الهادئة ، وللعجائز في عواطفهم لا أعمارهم ، للفاترين الذين يتقيأهم ، الذين يحبون الحرارة أو البرودة ، للمصابين بالروماتيزم ، وللمتشمسين الذين يتسلون بقراءة الذين صنعوا التاريخ ، دون أن يصنعوا تاريخا جديدا ، للكهول الذين شاخت قلوبهم لا جسومهم ، وللذين صالحوا الحياة ، وهادنوها ، فهم ينعمون بأشيائها الصغيرة ، يغازلون زوجاتهم بابتسامات صغيرة ، ويحضنون ، كالدجاجات، أفراخهم ، ويسألون أهلهم عن المؤونة ، وما نقص من الطحين ، وزاد من الزيت ، ويؤدون الفرائض ، ويستحضرون أكفانهم استعدادا لارتدائها عند مغادرة دنياهم ، في ميتة مجانية على فراش العجز أو المرض .

رجل كان يحب امرأة . مضى على حبهما زمن وهما سعيدان ، وذات يوم سألته : « لماذا لا نتزوج ؟ » قال الرجل : « اذا تزوجنا ، أين أسهر ؟ » .

قال العازف العجوز للراقص الفتى : « رايتك تبتسم وانت ترقص ، فلمن كنت تفعل ذلك ؟ هل رقصت من اجل احد ؟ امراة مثلا ؟ هذا يحدث.. ان نعزف أو نغني أو نرقص للاشيء ، فهذا تمثيلٌ زائف .. لا بد ان يكون هناك أحد ، وعندئذ يكون للعزف ، أو الغناء ، أو الرقص معنى .. ان تعيش ، للاشيء ، هكذا ، لاجلِ العيش ، لاجلِ تمضية الايام ، فهذا هو الموت .. تكون كالمسافر الذي جمع حوائجه بانتظار قطار النهاية .. تكون مثلي ، الآن ، حيث مات كل شيء ، والجليد وحده ، في مخي ، في فراشي، في أناملي ، في كياني كله .. اسمع يا فتاي ! حين لا يكون هناك شيء ، لا ترقص ، لا تعزف ، لا تكتب ، لا تتكلم . الانسان لا يخاطب نفسه ، وان فعل مرة اقتنع بعدم الجدوى في الثانية . ليكن لك شيء ما . اخترعه ، ولو بالخيال . لا تبق وحيدا ، لا تنم مع جسمك ، مع نفسك » .

قال الفتى للعجوز : « انت لك زوجة ! » . فنهض العجوز وانحنى عليه وقال : « أعرف ، اعرف ، ولكني أنام مع جسمي ، مع نفسي ، أتفهم ؟ » (١) .

---

(١) من قصة « الشمس في يوم غائم » .

عند انشاء اتحاد الكتاب العرب في سورية ، عام ١٩٦٩ ، نصّ النظام الداخلي على أن يتقدم طالبو الانتساب الى الاتحاد ببعض الاوراق الثبوتية ، ومنها ورقة « لا حكم عليه » . جميع الذين ضمهم الاتحاد ، قدموا ورقة « لا حكم عليه » . كلهم ، جميع كتابنا ــ وانا منهم ــ على الصراط المستقيم ، على صلح مع الدنيا ووفاق مع القوانين والاعراف والتقاليد . ماذا سيقول التاريخ الادبي عنا بعد مئة عام مثلا ؟ كانوا خرافا ... طوبى للخراف !! كانوا عجائز ينامون مع انفسهم ، مع جسومهم .. ولذلك كان أدبهم بحجم كيانهم ، لم يخرق أبدا جدار الصوت .

ناظم حكمت ، الذي رفض أن يقرأ التاريخ وهو يتشمس ، أو يعامل الفكر في نطاق الكتب وحدها ، كما يفعل بعضهم في أيامنا ، رفض ، كذلك ، أن ينام مع نفسه ، مثل العجوز العازف ، كان وفيا لحركية الفن بأكثر من وفائه لسكونية الزوجية . وقد فهمت « منوّر » هذه الحقيقة ، وضحت لاجلها . قالت لناظم ، عندما التقيا ، عام ١٩٦١ ، في الاتحاد السوفياتي : ما جئت ، يا طيري العزيز ، حاملة القفص ! غناؤك أثمن من سعادتي . انسانة أنا وقارئة قبل أن أكون زوجة وأما ، وأنت انسان وشاعر قبل أن تكون زوجا وأبا .. أحبك كزوج ، وأحبك ، بقدر أعظم ، كشاعر .. لنكن صديقين ... ولتكن ، أنت مع صديقتك كما معي ، بل معها لا معي ، فهي حلمك الذي ما زال حلما ، والهامك الـذي يعطي قصيدا ، ولتعش ، يا ناظمي ، يا ذا العينين الزرقاوين ، سعادتك في جديدك ، خارج قفص الزوجية ، وخارج بحيرة البيتوتية ، الراكدة ، المحدودة الآفاق .

ربما لم تكن كلمات « منوّر » بهذه الصياغة ، ولكنها كذلك بالفكرة . كان ناظم ، هذا «الطروسي» الجائب البحور السبعة، قد ألف « أم حسن » وغدت « ماريا » التي وراء أفق تركيا ، مبعث حنين ، ومصدر الهام ، وتوق الى غير الكائن حتى يكون ، وحين كانت الاخرى ، ماريا ، اكتشفت انها اخطأت ، وبادرت الى اصلاح الخطأ بالعودة الى مرفأ الفراق .

لقد رحلت منوّر الى بولونيا ، لتقيم مع ابنها محمد هناك ، وظل ناظم في الاتحاد السوفياتي (١) ، لكنه بعد عامين ، سيرحل هو أيضا في سفرة بعيدة والى الابد ، هذه المرة .

---

(١) من المعروف ان ناظم كان قد صادق ، في سنواته الاخيرة ، وبعد ان يئس من لقاء منور ، طبيبة روسية ، كانت تعتني بصحته ، هو المريض ، وتكن له اعجابا وحبا كبيرين .

لقد احتفى ناظم بمنور حين التقيا . وفرح بها وبابنه محمد ، ويقال انه أصيب بما يشبه الذهول لشدة المفاجأة ، ولكن منور الواقع ، بعد ربع قرن من الفراق ، لم تكن منور التي كانت قبل هذا الواقع . عبثت أصابع الزمن بالصورة الاولى . وعينا ناظم الشاعرتان كانتا تنطبقان على الصورة الاولى ، قبل أن يأتي الهرم ، ويتقدم العمر .

ومنور الزوجة ، المثقفة ، الانسانة ، أدركت ان عيني ناظم يجب ان تظلا منطبقتين على الصورة ، كما كانت ، يوم التقاها على ضفاف البوسفور ، وان اللقاء ، كأمنية ، تحقق ، فلا يهم ، بعد ، أن يطول أو يقصر ، والافضل الا يطول ، وأن يقصر ، وألا يتعذب ناظم ، فوق ما تعذب ، بفراق ينتج عن لقاء ، فراق التي في بيته ، بلقاء التي تأتي ، ومهما تكن عزيزة ، طارئة على هذا البيت .

وكذلك تعيش فترة معه ، في هذه العاصمة أو تلك ، كهلة مع كهل ، لا للحب بل للذكريات ، ثم تغادره ، ليقع ، مرة أخرى ، الفراق ، الفراق الذي أرادته ، الآن ، هي بنفسها ، لاجل ناظم ، وحلمه ، وشعره ، لاجل الذي تعذب كثيرا ، وأحبها ، في عذابه ، كثيرا .

لقد قبلت التضحية ، واخذتها لحسابها وحدها ، فكانت كبيرة في الحياة ، كما كانت كبيرة في الشعر . كانت ، في الفراق واللقاء ، المحرض الداخلي لعاطفة الرجل حيال الانثى ، وحيال الفن .

والمرأة ، كأعز المخلوقات ، وأكثرها تأريثا لنار الابداع ، ان تكون كذلك ، وان تصبح ، نتيجة لذلك ، موضع احتفاء المبدع ، فهذا من طبيعته الفنية ، من ذاته المرهفة ، الجاذبة ، والمنجذبة ، بالجمال ، الباحثة عنه ، في بحثها عن تأكيد نفسها ، المشتعلة به ، والحريصة عليه ، بحرصها على دوام اشتعالها ، أو باشتعالها الدائم الذي هو هي ، في الجوهر الفني .

ولكن المرأة ، بهذا المعنى ، تظلّ توقا الى غائب حتى يحضر ، الى مجهول حتى يصير موجودا ، تظل الحلم الذي لا ينبغي أن يصير واقعا ، والا كفّ فيه الخيال ، وانطفأت النار الملهمة :

من يدري ! فقد كان من الممكن
الا نحب بعضنا الى هذا الحد ،
لو لم تكن روحانا تريان بعضهما
البعض من كل هذا البعد

ومن يدري ! فلربما لم نكن
قريبين الى هذا الحد
لو لم يفرق شملنا
الزمان .

في « الشراع والعاصفة » (١) تشكل ماريا ، توق الطروسي الى الغائب، بينما تشكل « أم حسن » ـ قبل أن تصبح زوجته الشرعية ـ توقه في الموجود . ويظل طيلة مكوثه على البر ، في توتر عاطفي بين التوقين ، الى ان ينتهي بالزواج من أم حسن ، مع الاصرار ـ غير المقصود وغير المعلوم ـ على ديمومة التوق الآخر ، بعدم السعي الجاد الى لقاء صاحبته . ان ماريا هي الحلم الباقي ، بينما أم حسن ، بالزواج ، صارت الحلم الملغى.

ولماذا هي حلم ملغى ؟ لانه لم يبق منها ، بالنسبة اليه ، ما هو غائب او مجهول أو ممتنع . صار في دائرتها ، بطل تحديها له وتأثيرها عليه ، كما يصير المرء في دائرة العطر الذي تعطر به ، فلم يعد يشمه . ان ما يجمع المرأة والرجل ، في حالة « الحلم الملغى » هذه ، فضل الحب ، لكن الحب يولد ويموت ، والزواج ـ ولو بعد فترة منه ـ موت للحب ، أحيانا ، لانعدام التغذية العاطفية بانتفاء ما هو غائب أو مجهول أو ممتنع ، وعندئذ تتولد حالات بديلة ، مثل الالفة ، والمعزّة ، والتآخي ، وهذه عوامل تسكين، لا تهييج ، والفنان ، باخلاصه لفنه ، يبحث عما يحرض خياله لا عما يسكنه ، ومن هنا كان طلاق الفنانين ، ولااستقراريتهم البيتية ، لاوفاءاتهم الزوجية التي تخالف منطق الاشياء ، حين يكون هذا المنطق عرفا جامدا ، أو نظرة تقليدية ، أخلاقية ، لما هو فوق الاخلاق والتقاليد ، للفن ، مبدع الاخلاقيات والتقاليد الملائمة والمواكبة للعصر .

ان صفة فنان ليست بالضرورة وبالحصر ، صفة الذين يبدعون الفنون . ربّ زوج في رهافة حسه ، وتذوقه للجمال ، وعمله ، فنان بغير انتاج فني ، وربّ زوجة ، في هذه المعايير ، فنانة بدون عطاء فني ، يقعان، بصرف النظر عن النزعة الجنسية ، في حالة « الحلم الملغى » أيضا ، ذلك ان جمال الزوج أو الزوجة ، والحب بينهما ، لا يكفيان ، ولا يستمران ، ولا تكفي الاغراءات الاخرى المادية ، ولا تدوم . عندئذ يتولد الشعور بالفراغ ، واللوبان في تيه السغب ، وتنشأ الحاجة الى اطفاء الالم عن طريق

---

(١) رواية للمؤلف ، مع الاعتذار عن الاستشهاد بها في هذا الفصل .

اللذة ، ويبدا البحث عن الغائب والمجهول والممتنـــع ، او عن غير المملوك ، بكلمة اخرى . وقد نصير في نفسية معذبة ، نكبتها في شرقنا ، او نعالجها بالتوق الى آخر والى اخرى ، وبتجسيد التـــوق الشعوري في ممارســة مستورة له ، ممارسة العاطفة في غير جوها الصحي ، لان هذه الممارســة تخالف منطق الاشياء في رأي التقاليد !

ونحن نحتمل أن نرى الرسام بيكاسو ، الذي رفض العيش في حالة « الحلم الملغى » العاطفية ، يصاحب ، وهو في التسعين ، فتاة في العشرين، ولكننا لا نحتمل أن نرى الشاعر محمد مهدي الجواهري يفعل ذلك ، لماذا ؟ لاننا ، كمجموع ، نئن تحت رصاصية التقاليـد ، ونرفض ان يخرج الفرد عليها ، حتى ولو كـان فنانا . اننا ، في حقيقتنـا ، لا نزال في معبد هذا الصنم : التقاليد ! ندين الفنان ، الذي يسبق في خروجـه على المألوف ، لانه خرج عليها ، وفي هذا الفعل ، لا ادانة للجهد الفني فقط ، بل اخصاء له أيضا . وحين يرضخ الفنانون لهذا القدر التقاليدي ، يوقعـون بانفسهم وثيقة اخصاء فنهم ، ومـن الخير ان بعضهم لا يفعـــل ، والا كان فننـا مخصيـا كـله .

ومن الخير ان ناظم حكمت لم يفعل أيضا ، مع انه من هذا الشرق ، ومن الذين ورثت بيئتهم تقاليده . لقد كان مخلصا لفنه ، لمعاناته ، لحلمه ، وهذا ما ساعده في استعمال جناحي النسر ، لا جناحي الوطواط !

رفض « الحلم الملغى » في الراحة ، والمنصب ، والاقامة ، والثروة ، والمراة . وناضل ضد السكونية ، ناشدا الحركـــة ، اذ الشعر هو الفاعل والمنفعل ، هو المحرك والمتحرك على دروب التغيير المستمر باتجاه المستقبل.

ورفض كذلك ، وعلى حساب هناءته ، أن يتشكل فنه من زيف الانفعال لا من الانفعال ذاته . ولو انه ، حين اجتمع بـ « منور » بعد طول فراق ، اطمأن ، لانتفى قلقه ، ولو عاش معها لانتفى انفعاله ، وسقط في الزيف ، وسقط وشعره في الافتعال .

تألم للفراق الجديد ؟ وما قيمة الالم ؟ وخـالف الاعتبارات العائليــة والاجتماعية ؟ وما الضير في ذلك ، ما دام ألمــه ومخالفته كانا في سبيل فنه ؟ ان الفنان وحده ، وبدون أن يؤدي حسابا لاحد ، يعرف لماذا يفعـل ذلك ، بترفع ، في سبيل الفن ، وما أروع ما قاله الكاتب الالماني تومـاس مان : « الفنان يريد أن يعاني وأن يشكل ، يعـاني بعمق ويشكل بجمال ،

واحتماله المتعالي للآلام ـ الصفة المصاحبة لهذه الارادة ـ هو ما يعطي حياته ذلك الالهام الاخلاقي . هل يعلم احد بتلك الآلام ؟ ان كل بنـــاء ، كل عمل وانتاج ، انما هو تألم ، كفاح ، وعذاب مخاضي . يحتمل أن يكـــون هذا معروفا . بل من الواجب أن يعرف ، ومـــن الواجب الا يتمادى احد فـــي الشكوى اذا ما نسي فنان ، في غمرة آلامـــه ، الاعتبارات الاجتماعية التي قد تقف في طريق عمله . هل من المعروف أيضـــا ان تلك المعرفة ، المعرفة الفنية التي تسمى عادة دقة الملاحظـــة (ومعاناتها) مؤلمة ؟ هل معروف هذا ايضا ، دقة الملاحظة ، كانفعال واستشهاد وبطولة ، من يعرفها ؟.. ان الم المعرفة والتشكيل يعطي للفنان الحق (أي للفنان الذي ليس بنصف روحه فقط فنانا ، وانما هو فنان بعاطفته ووظيفته) يعطيـــه التعويض الاخلاقي الذي يرفعه فوق كل حاسيات وفضائح العالم » (١) .

غير ان ناظم ، كالمتنبي ، لم تشكل المرأة لديه فضيحة عاطفية ، بـــل ممارسة وجدانية عاطفية ، ترتفع فيهـــــا الانثى الى مستوى « الضلع » الحقيقي الرجل ، الضلع الصائر ، في الجزء الـــذي هو الكل ، شطرا من الكيان . ان الشهوة التي تستعبد منتفية هنا . لم يكن ، كلاهما ، عذريا ، ولم يكن ، كلاهما ، متهالكا ، والهوى الذي « يشكّ في الوصل ربه » كان كان هواهما ، لانه أحلى الهوى ، وأشده فتنة ومناداة للخيال .

وفي هذا الشك في الوصل ، الى أن يصير وصـــلا فيرتوي ، نجد مفتاح « الموقف الفريب » في الحلم ، والحلم الملغى ، اللذين بحثنا القضيـــة من خلالهما ، كمحاولة للتفسير ، واخرى للتعريف بناظم شاعرا وانسانا .

ولقد عثرت الرجعية ، في بدايـــة الستينات ، على هـــذا المفتاح ، واستخدمته بذكاء ، فأحالت ، بمهارة ، الحلم الى حلم ملغى .

ففي عام ١٩٦١ ، كما سبقت « الاشارة » ، اطلقت السلطات التركية سراح « منور ناظم حكمت » من « السجن الاخضر » الذي عاشت فيه منذ دخل زوجها السجن الاسود عام ١٩٣٨ . سمح لها ، اخيرا ، بمغادرة تركيا والالتحاق بناظم في الاتحاد السوفياتي ، وطنه الثاني، واعطيت جواز سفر، مع التسهيلات اللازمة .

كانت منور قد يئست ، في هذه المرحلة ، من الافـــلات . فالرصد الامني يحصي عليها حركاتها وسكناتها ، ورسائل ناظم لا تصـــــل اليها ،

---

(١) توماس مان : عن الفن والفنان ـ « مجلة الفكر المعاصر » ـ أيار ١٩٧٠ .

ورسائلها تبتلعها صناديق البريد التركية ، ولم تنفع المساعي ، ولا شفعت سنوات الفراق الطويلة . اما قصائد الاحتجاج التشهيرية التي كان ينشرها ناظم ، وتتجاوب أصداؤها في كل اطراف الدنيا ، فلم تزد الا في تسوير الزوجة والابن بنطاق من الرقابة الصارمة .

وفجأة يتبدل الموقف ..!

ذات يوم يتصل بها احد المعارف (ولنسأل : هل كان مبعوث السلطة المندريسية ؟) ، ويستوضحها لماذا لا تحاول الافلات والالتحاق بناظم ؟ ويكون الجواب : « فشلت جميع المحاولات ، ولا سبيل للخروج الا بأعجوبة، او بجواز سفر هو أعجوبة الاعجوبة ! » . ويقول الرجل : « أنا من سيحقق أعجوبة الاعجوبة هذه ! » . وفعلا ينجح .

الجواز بين يدي منوّر ، تنظر اليه ولا تصدق ، وتلمسه فتشكّ ، ولكن الرجل يضيف : « ليس الجواز فقط ، بل سمة الخروج ايضا ! وقد دبرت أمر السفر ، وكل الحاجات الضرورية » . وتنظر اليه منوّر متسائلة، في حيرة وشك ، وفي ذهنها انه فخ للايقاع بها ، لكن الرجل لم يكن ينصب فخا ، كان صادقا على شرط : الا تسأله : كيف ؟! هذه الـ « كيف » كانت مزعجة ، وغير مسموح بطرحها ، أو غير مسموح بالجواب الصادق عليها وقد طرحت ، فالاخراج المسرحي كان مرتبا بعناية ، وما تنشده منوّر قد تحقق : السفر ! الرحيل ! الافلات من « السجن الاخضر » !

ان عملية خروج « منور » بعد تلك الاعوام الطوال ، الى العالم الذي يلي حدود بلادها ، قد تمت على هذا النحو ، كما يقول اصدقاء ناظم نقلا عنه في حياته ، وحتى لو داخلها بعض التحوير، فان أساسها يبقى صحيحا، ويبقى متلمسا الصحة ، التحليل الذي أعطي لها ، وهو يؤكد ، ـ ان كان ثمة حاجة ـ على فعلين مترابطين ، ومتصارعين : فعل الفنان ، اثره ، في السلطة ، وفعل السلطة ، أثرها في الفنان . فالاستئناف الذي يرفعه هذا الاخير ضد الحاضر لاجل المستقبل ، يقابل من السلطة بالاهمال اذا لم يكن الفنان ذا شأن ، وبالحجز اذا كانه ، وهكذا تشتد لهجة الاستئناف ، ويشتد معها الجواب عليه : يصل الىالسجن والتعذيبوالتشريد ، وأحيانا، الى الحذف ، عن طريق الاغتيال او الحكم بالاعدام .. ولكن السلطة ـ والرجعية منها غالبا ـ تملك ذكاءها الخاص المستمد من تجاربها .. فهي تحاول أن تلفّ عنق الفنان بخيوط من حرير بدل الانشوطة : تغريه ، ترشوه ، تفسده ، فاذا استعصى عليها ، تلجأ الى التضييق عليه ، وفي

المرحلة الاخيرة ، وتبعا لخطره ، وظروفها الخاصة ، تبطش به ..

هذه الاساليب ستتبع ضد الشاعر منذ بزغ نجما بحجم الشمس في سماء الادب التركي . وبعد الفشل في اغتياله واعـدامه ، يصبح التصميم على قتله صبرا في الخندق الزنزاني، أو في الحفرة التي القي فيها ثلاثة عشر عاما ، حكة في جسم السلطة . واذ تنتزعه حملة الاحتجـــاج العالمية من الزنزانة وكل دائرة نفوذ وبطش هذه السلطة ، تعمد الى الانتقام منه بأسر زوجه وابنه ، ويعمد هو الى قراعها عن طريق هـــذه الزوج وهذا الابن . يعيد سلاحها الى صدرها ، وينتصر في المعركة .. يصبـــح اسم « منور » و « محمد » مادة للشعر ، ومادة للكفاح ، ومطالعة اتهام أدبية على جميـع المنابر ضد السلطة المندريسية .

لنعترف اذن ، أو لنسلم بحقيقة لا سبيل ، ولا فائدة من انكارها ، وهي ان الرجعية ذكية ، وانه من الضرر البليغ للحركة التقدمية أن تتجاهل ذلك ، أو تخدع نفسها عنه . بدلا من ذلك ، يصبح الاعتراف بهذا الذكاء ، وبتجاربه في كل مراحل التاريخ ، وأخذه في الحساب ، ثم فهمه وامتلاك ذكاء اكبر ، أو قدرة على التحرك في مواجهة جمود الخصم ، تعطي لذكائنا فعالية المؤاتاة المهيئة له من جو العصر ، يصبح كـــل ذلك لزوما معركيا ، ورؤية معرفية .

ان الرجعية ، تقدّر خطر الفن ضد واقعها ومواقعهـــا بأكثر مما يفعل خصومها . هي تعرف ان الفن في استئنافه ضد حكمها ووجودها ، يشعل الشرارات في السهب الذي أيبسته بمظالمها ، وهي تتابع هذا الفن ، وتلفّ عليه ، وتعارضـــه ، وتسعى لتفريغه ، وتزين له الشكليـــة ، والذاتية ، والغموضية ، واليأسية (الجزع البورجوازي الصغير) ثم تطلق عليه بحقد لا يرحم ، حين يصبح الاطلاق ضرورة لا محيد عنهـــا . وفي تتبع الرجعية (وحلفائها أيضا) للفن المستأنف ضدها ، ذكاء ومنهجية ، يبلغان ، كما عند البورجوازية الغربية ، درجة عالية من دقة الملاحظة وخطورة التخريب .

ولسنا في صدد البحث عن السم الثقافي الــذي تصطنعه وتنفثه في كل « حلويات » الثقافة البورجوازية ــ وبعض الثقافة البورجوازية اليسارية الآن !!! ــ بل نحن في صدد الفهم السيكولوجي لعملية الفن المستأنف ضد هذه البورجوازية ، وصدد اناملها الخفية والظـــاهرة ، الممتدة الى كـــل « متفجرات » الفن الثوري لابطال مفعولها .

لقد فهمت الرجعية التركية ــ أو أفهمت ــ ان احتبـــاس منوّر وابنها

يعطي مفعولا معاكسا ، مفعولا هو في الفهم السيكولوجي لمحرضات الفن ، مصدر تحريضي في فن ناظم الشعري ، وان عليها ، بأناملها الخفية ، أن تبطل « كبسولة » هذا المحرض ، بابطال مصدره .. وهذا بسيط : جواز سفر لمنوّر ، وتسهيل خروجها من تركيا !

وكذلك كان ...

لم يعد ناظم قادرا على توجيه رسائل شعرية اليها . ولن تضيع رسائله في التيه الشيطاني للعنوان المفقود والحبيبة الضائعة ، أو يظل هو ساعي بريد يوصل كل المكاتيب لكل الناس ، الا المكتوب العزيز للابن الاعز :

أخبار الناس والدنيا والوطن ،
وأخبار الطير والشجر والذئب والحجر ،
أحملها الى الناس في حقيبة قلبي ،
عند منتصف الليل ،
او في السحر ،
فقد صرت ، عن طريق الشعر ،
ساعي بريد للبشر .

. . .

في حقيبتي الربيع ،
في حقيبتي زرقة الدانوب ،
وزقزقة العصافير ،
ورائحة تعبق برائحة العشب النضير ،
من بودابست الى موسكو ،
في حقيبتي الجنة ،
وفيها رسالة مكتوب على غلافها :
« محمد ، ابن ناظم حكمت ـ تركيا »
وقد وزعت الرسائل واحدة واحدة ،
على أصحابها ،
ما عدا رسالة محمدي ، لا أستطيع ايصالها الى صاحبها ،
ولا أستطيع حتى ارسالها اليه ،
لان طريق ابن ناظم حكمت يقطعه اللصوص ،
ولا يسلمون رسالته اليه .

(من قصيدة « ساعي البريد » أيار ١٩٥٤)

والآن ، بعد أن أطلق سراح منور ومحمد ، صار عنـوانهما معروفا ، لكن لا حاجة للشعر به ، ولن يكتب ناظم الى محمده الذي أصبح في احضانه ، ولن يكتب رسائل حب الى منور التي اضحت الى جواره ، بل لن يكتب ، خلال السنتين اللتين سيعيشهما ، أية رســـالة الى الوطن ، لان صحته ستتدهور من جهة ، وعواطفه المشبوبة ستبترد ، من جهة أخرى ، وتمتص فرحة اللقاء لاعج الفراق ، ويطاح بالسلطة المندريسية ، وتلوح بوادر تغيرات في تركيـا .

٦

عودة الى منوّر ..

هي الآن في بولونيا ، تعيش مع ابنها محمد . لقد ذهبت الى هناك ، بناء على دعوة من جامعة فرصوفيا ، لتدريس اللغة التركية فيها ، هي المثقفة الكبيرة ، والضليعة باللغة الفرنسية .

ومن فرصوفيا كتبت اليه ، وطلبت منه الا يقلق ، وان يستريح ، ويهنأ ، ويعمل . وكتب اليها ناظم ، ومن المؤسف ان رسائلهما لم تنشر ، ليس الرسائل التي تبادلاها بعد اللقاء ، بل تلك التي تبادلاها خلال سنوات التشرد والنفي والسجن في تركيا ، وقد تكون ضاعت (١) .

ولم تجد تضحية منوّر ، ولا رسائلها أو نصائحها ، في دفع الاذى

---

(١) يقول أكمل الدين احسان ، في مقدمة مسرحية « شيرين وفرهاد » لناظم : « كانت رسائل زوجه اليه ، تشف عن نفس عزيزة تدرك انها زوجة شاعر عظيم . وكانت منور – بيراييه هانم – تزوره في سجنه الحين بعد الحين من العام ، فيكوي ملابسه من المساء ، ويدهن حذاءه ، ثم ينزل الى الحلاق من الصباح الباكر .. فاذا جاءت في اليوم التالي تقابلا في غرفة مدير السجن او الفناء .. وكان ناظم يحب منور حبا لا عهد لزوج بمثله ، ويحترمها غاية الاحترام . وكان يراسلها من سجنه ، وتعد رسائله اليها من اجمل وارق الرسائل في الادب التركي ، وهي نثر تتخلله بعض المقاطع الشعرية ، وقد كتبها ناظم بروح متفائلة مقبلة على الحياة ، عاشقة لها .
كذلك كان يراسل امه ، جليلة هانم ، التي كانت تزوره احيانا . وهي امراة وقورة فنانة ، كانت تجلس ناظم امامها ساعات طويلة في فناء السجن لترسمه ، بينما يتململ ناظم في جلسته معترضا على مذهبها في الرسم قائلا : « أماه ! ليس التصوير مجرد محاكاة للجمال ، ولكنه اضافة الفنان شيئا الى هذه الطبيعة » .
وكان يثور جدل شديد حول مفهوم الفن بينهما ، ينهض ناظم خلاله ويذهب ليجيء بلوحاته ويريها لامه ، ويستمر النقاش الى ان ينشد ناظم أمه آخر اشعاره ، فيسكن كل من حضر ، وتنصت اليه صامتة في كبرياء ، والدمع يترقرق في مآقيها » .

عن الشاعر الذي سيشتدّ عليه المرض ، ويغمض عينيه ، ذات يوم من عام ١٩٦٣ ، فلا يفتحهما أبدا . لقد طواهما على كل ما في ماضيه من ذكريات ، وكل ما في المستقبل من رؤى وامنيات ، مخلفا وراءه وصيته الشعرية التي كتبها في آذار من ذلك العام :

يا رفاقي ،
اذا متّ قبلَ يوم الخلاص ،
وهذا ما يبدو ،
فادفنوني بمقبرة في احدى قرى الاناضول .
واذا امكن ، فان غرسة فوقي تكفي ،
ولا حاجة للشاهد والحجارة على قبري .

ولم تنفذ الوصية حتى يومنا هذا ، ولا يزال جثمان الشاعر يرقد في ظلال السرو في مقبرة العظماء بالعاصمة السوفياتية .

وتستعيد منوّر ، وهي جالسة مع ابنها محمد قرب الموقد في الشتاء ، أو هي تتنزه معه في امسيات الصيف ، قصائد ناظم ، الزوج والحبيب والشاعر .

هي تعرف ، وتحفظ ، قصائده فيها . لقد اعطاها اسمه ، ومحمده ، وقلبه ، ولكن اعطاها ما هو اعظم : شعره . وقد لا يكون هتف ، كما فعل الشاعر المجري « ادي » : « أيتها المراة ! انا الذي صنعت لك كل هذا البهاء ، فاذا أحبك الناس ، فلأني أحببتك ، واذا تغنوا بك ، فلأني تغنيت بك ، واذا عرفوك ، فلأنهم نظروا بعيوني اليك ! » .

غير ان الحقيقة تظل حقيقة ، ولو لم يناد عليها .. ونحن ، من جميع الامم ، وفي جميع البلدان ، ننظر الى منوّر بعيني ناظم ، نراها ، كما رآها ، بنفس البهاء ، بنفس العذوبة ، وبنفس المعزّة .. لأن ما خلع عليها من مجد كلماته ، سيظل مجدا في الكلمات التي لا تموت ، والصفات التي زينها بها ، صفات للبقاء لا للفناء ، فالجمال يذبل في كل شيء ، الا في الفن ، ومن يأت في موكبه العظيم يكن قد عانق العظمة الى آخر الدهر .

وهي ، منوّر ، قد عانقت هذه العظمة ، لانها جاءت في موكب الفن ، في موكب الشعر والنثر ، في القصائد والرسائل التي كتبها ناظم لها ، منذ ان تعرف اليها ، ذات يوم في مدينته استانبول .

لقد صرخ ، كما وعد ، في سماء الحرية الزرقاء ، بكل ما كتبه لاجلها ،

وبكل ما كتبته لاجله ، او ما تخيل انها ، لو استطاعت ، لكتبته اليه . ذلك ان ناظم ، في مقابل قصائده ورسائله الى منوّر ، كان يضع قصائد ورسائل منها الى ناظم ، ويعيش ، هو وحده ، عزاء هذه الخدعة ، لكي تبقى اللعبة ، في وهم الرجاء ، رجاء دائما .

كان يدرك ان الكتابة ، اذا لم تكن متقابلة ، سقطت في الاحادية وماتت . فان نعشق ، نحاور ، نراسل لمرة واحدة ، لثلاث ، لخمس ، ومن طرف واحد ، تبدو العملية ، حتى في خداع النفس ، وحتى في مناجاة الطيف ، محتملة . وبعد ذلك ، واذا لم نكن مرضى ، نحتاج الى المقابل ، في الحلم او الواقع ، أو في خداع النفس الذي ، في التفكير الرغبي ، ينقلب الى امنية مغذية للمشاعر .

لا بد ، اذن ، للانسان ، من مقابل . لا بد له أن ينقذ اللعبة ، ان يبعث فيها قدرة على التجدد ، والاستمرار ، باخراجها من الاحادية الى الثنائية ، بأن يناجي الطيف ، ويجعل الطيف يناجيه .

اية مأساة صامتة ، مستترة ، تمثل اذن في عالم انسان كهذا فرض عليه أن يخترع لنفسه ، من شقاء حرمانه ، مادة معوّضة ، يعرف انها خيالية ، ويعاملها على اساس من ذلك ، ولكنه ، في التصعيد او التعويض ، يمارس الوهم على انه حقيقة ، لكي يتعزى ، ويتقوى ، ويقاوم البؤس والظلم في اصطناع حالة من الانتصار عليهما ، حالة خيالية مؤلمة ، ولكن مسعفة في مواجهة الواقع الشقي حتى يصير واقعا سعيدا .

ان اصطناع الحالة الانتصارية الخيالية هذه لا يحمل على الاسى في شيء . بالعكس هو الذي يجعلنا نبارك الانسان ، هذا القادر والقاهر كل الصعاب وعوامل اليأس .

في قصة « ليزا » لغوركي نجد هذه المأساة ، وهذه الحالة الانتصارية الخيالية عليها . كان يسكن غرفة في بناء كبير تقطنه طوائف من العمال والفقراء . وكانت ليزا تقطن في غرفة مجاورة ، وهي من النساء اللواتي في سمعتهنّ موضع للشك والريبة . كانت وحيدة ، مهجورة ، منبوذة من سكان البناء . وقد تجنبها غوركي ، برغم انه كان في مثل وضعها ، يعاني الضيق والضجر في خريف يبعث على السأم . وذات يوم رآها فابتسمت له . ثم تكرر اللقاء فتكررت الابتسامات ، واعترضته مرة طالبة منه أن يكتب لها رسالة الى حبيبها بولس . قال غوركي في نفسه : « انها تسعى لايقاعي في

شباكها ! » فرفض ، وازاء الحاحها كتب لها تلك الرسـالة . جلس الى الطاولة وانشأت تملي عليه كلمات غزلية لا تتناسب مطلقا مع ضخامة جسمها وجلافة مظهرها . نادت حبيبها بألفاظ مثل : « يا بلبلي ! يا حبيبي الصغير ! يا جميلي ! » وجعلت الامضاء بنفس الرقة : « حبيبتك ليزا ! » .

ومقابل هذه الخدمة رجته أن يسمح لها بدخول غرفته لتنظيفها وغسل ما لديه من ثياب ورفو ما يحتاج الى الرفو ، واصرت عـلى ذلك وغوركي يمانع ، وقناعته تزداد بأنها تريده لنفسها ، وهو ، لذلك ، يزداد نفـورا منها ، حتى كان يوم اعترضته امام الباب طالبـة منه ان يكتب لها رسالة اخرى ، فانتهرها ، وادار ظهره لها ، ودخل غرفته، لكنه لاحظ ، وهو يفعل ذلك ، ان ليزا تبكي ، وان دمعا يترقرق في عينيها .

بعد قليل شعر بالندم . أحس ّ انه تصرف بشكل سيىء ، فمضى الى غرفتها ، وعرض عليها أن يكتب الرسالة ، وامسك القلم لتملي عليه ما تريد، وعندئذ ابتسمت، واقبلت مسرورة على الاملاء ، وقالت له أكتب : « حبيبتي ليزا ، يا حمامتي ! يا حلوتي ! » ، حتى انتهت الرسالة ، فجعلت الامضاء : « حبيبك بولس ! » .

حنق غوركي على المرأة ، وقد اكتشف اللعبة ، فصاح بها : « ولكـن من هو بولس هذا ؟ وكيف تضحكين عليّ ؟ اتريدين ايقاعي في حبالك ؟ » . فأطرقت حزينة ، خجلة ، ثم قالت : « لا يوجد ، في الحقيقة ، لا بولس ولا ليزا ولا حب .. انني امرأة شقية ، عرفت كثيرا من الرجال ، ولي علاقات مع كثيرين منهم ، ولكن ليس لي حبيب بينهم . ولانني أريـد أن يكون لي حبيب كما لسائر النساء ، فقد دابت على استكتاب الرسائل مني الى بولس ومن بولس اليّ ، واخترعت هذه الحيلة لأعزّي نفسي » .

عزاء النفس ! وعلى هذه الشاكلة ! رهيب ، اليس كذلك ؟ ولكن أن نتعزّى افضل من ان نياس . العزاء ، في هذه الحال ، امل خيـالي ، عدم رضوخ لبؤس الواقع ، وطموح الى بديله ، وهو ، في ايجابيته ، نوع مـن الحلم الذي يجانب الواقع ولكنه يعلو عليه . قال لينين : « ينبغي أن نحلم ، وعدم التوافق بين الحلم والواقع ليس من السذاجة في شيء ، اذا كـان من يحلم يؤمن بحلمه ، ويلاحظ الحياة ، ويعمل على تحقيق ما يحلم به » .

ناظم في علوّه على معنى البؤس والحرمان ، لم يكن يحلم فقط ، بل يقيم طرفي المعادلة في العلاقة العاطفية أيضا . فالحب من طرف واحـد ،

وكذلك التراسل ، والتضحية ، أشياء قصيرة الامد ، سرعان ما يصاحبها الشعور بالاحادية واليأس ، ولكي نتجنب ، في كل الظروف ، أحادية الموقف ، لا بد من اقامة الصلة بيننا وبين الآخرين ، ولو عن طريق الفكر والخيال والعلاقة « الليزية » ... عن طريق الحلم والعمل لتحقيقه . وناظم يقيم التقابل الثنائي الذي ينفي الاحادية ، يجعل ، ولو في الخيال ، منوّر تزوره كما يزورها ، وتكتب اليه كما يكتب اليها ، وتتحدث عن بيتها وحياتها وابنها واصدقائها ، كما يتحدث عن سجنه وغربته واصدقائه وأشيائه .

بعنوان « مكتوب من استانبول » ، ينشىء قصيدة في موسكو على لسان منور ، عام ١٩٥٥ ، تقول فيها :

عزيزي ناظم !
اكتب اليك من حيث أستلقي
لأني تعبة .
رايت اليوم وجهي في المرآة .. انه ممتقع !
فالريح باردة ، والصيف لن يأتي
وأنا أحتاج حطبا بثلاثين ليرة في الشهر ،
فمن اين لي ذلك ؟
لهذا لففت نفسي ببطانية ،
فيما أنا جالسة أشتغل .
الزجاج متكسر ، واطارات النوافذ متخلعة
والسكنى ، هنا ، غير ممكنة .
عليّ ان ارحل ،
فالبيت سينهار ،
والايجار غال بشكل مذهل .
لماذا اقول هذه الاشياء ؟
ستغتمّ ،
ولكن لمن اشكو همومي ؟
لا تؤاخذني
فاذا كانت النهارات باردة ،
باردة جدا
فكيف هي الليالي ؟
ضقت ذرعا !
مللت البرد !

وفي الحلم ارى افريقيا
وقد سافرت ، في الحلم ، الى الجزائر .
كان الجو حارا
واصبت برصاصة في جبهتي
فسال دمي كله ،
لكني لم أمت .
صرت في حال ،
احسّ معها بالشيخوخة كثيرا ،
مع انك تعلم ،
انني دون الاربعين .
أقول هذا فيغضبون ،
يلومونني ،
وعلى كل ، لنغلق هذا الحديث .

بعد ذلك ، وكأنما حول الموقد ، تتحدث اليه عن الادب : « قصة تشيكوف : صرصور آب » ، اخرجت فيلما . لماذا أخذت السيدة الطائشة بكل الذنب ؟ انا أحبّ الطبيب ، ولكني لا اغفر حيونته .. سمعت الراديو يذيع اغاني شعبية من بورغواي ، مطرزة على ورق شائك ، ومجبولة بالغزل ، والشمس ، وعرق الانسان . وكذلك بالجوع والامل ... وصلتني رسالة من علياء ، ترغب فيها أن تراني ، وتقول انها لا تنساني ، وقد احترت في أمري ، لان سنوات مرت ، منذ ان غادرت أنت الوطن ، ولم تطرق علياء بابي ، ولم تبعث اليّ بأيما خبر . ولقد تقابلنا في الشارع ، صباح عيد ، فأدارت راسها ومضت ، هي أقرب صديقاتي . لا غرابة ، الصداقة تشبه الشجرة ، وحين تيبس الشجرة ، لا تخضرّ ثانية ..

ذهبت الآن والقيت نظرة على طفلنا ،
وجهه مورّد ، وشعره كستنائي ، وهو نائم هادىء في نومه .
وكان غطاؤه منشمرا فاعدته .

« .. الراديو اذاع خبرا محزنا هذا المساء : ماتت ايرين جوليو كوري ! تذكرت زوجها ، فلو كتبت رسالة تعزية اليه ! خطر لي ذلك . ولكني اجهل عنوانه .. قرات ايضا ان كاتبا فرنسيا مات ... كان مغرورا ، انانيا ، متشائما ، لا يحتمل . احتقر كل شيء في حياته ، ولم يحب ايما مخلوق

سوى الكلاب والقطط ، وعلى شرط : أن تكون كلابه وقططه . وفي مقابلة معه قبل وفاته ، حاول أن يحتقر الموت ، ويخيل اليّ انه كان يخافه بشكل مرعب . وقد نشرت الصحيفة صورته ، فتخيل جدتنا رجلا ، على رأسه قبعة ، تكن هذا الرجل . لقد رثيت له أيضا ، ربما لانه يشبه جدتنا ، وربما لانه عاش وحيدا في هذا العالم .

لك عندي خبر مفرح :
ابنك التنبل يتعلم القراءة والكتابة ،
وقد نجح فيها بعض النجاح ،
فهو يعرف كلمات : امسك ، اركض ، كتاب ، قلم ، محفظة .
أليس هذا جميلا ؟
انه يشبّه الحروف بالاشياء :
الألف بالمأذنة
والباء بالكرش
والتاء ... بما لا ادري ،
واني لأخشى ان يصير تنبلا كبيرا ،
فأسعى لحمله على الاجتهاد ،
ولو كان بنتا لهان الامر ،
فالنساء ، في جميع الاعمار ، يصلحن لعمل ما ،
اما صبي مثله ، في الخامسة من عمره ،
فماذا يستطيع ان يعمل ؟

آه لو يزداد الجو دفئا ،
ان ذلك سيصير يوما ..
أطلت الرسالة جدا ،
اعتن بنفسك ،
واكتب الجواب حالا ،
لا تنسني
اكتب الجواب حالا ،
ولا تخدعك نفسك ،
فتتوهم ان « منور » حكيمة ،
تدبر كل شيء ..
انا ، من دونك ، مقصوصة الجناح .

لا تنسني ،
اقبلك من عينيك يا روحي .
ليلة سعيدة ،
اعتن بنفسك ،
جاوبني بسرعة ،
لا تحمل همومي ،
انسها ،
ولكن لا تنسني !

ويكتب ناظم جوابه بسرعة ، ولكنه يوجهه الى ابنه محمد ، وعنوانه : « الى محمدي ! » :

الجزارون ، من ناحية ، ضربوا ضربتهم بيني وبينك
وهذا القلب اللعين ، من ناحية ، يلعب بي لعبته !
فهل يكون نصيبي ، يا صغيري محمد ، أن أراك بعد ؟
أنا اعلم انك ستكون رشيقا كسنبلة
فأنا كنت هكذا في صغري ،
ممشوقا ، فارعا ، نحيفا ، أشقر .
وعيناك ، ستكونان واسعتين ، كعيني أمك .
وسيغشاهما ، من حين لحين ، حزن غريب .
وجبينك سيكون وضاء لا يتناهى في الالق .
وظني انه سيكون لك صوت جميل ،
فقد كان صوتي أنا غريبا عن الجمال !
وستغني اغنيات حلوة تلامس القلب ،
وستكون عذب الحديث ، يسيل العسل من لسانك .
اي محمدي !
كم ستتعذب بك الصبايا ؟
كم سيفتتن بك ؟!
عسير .. عسير أن تطيب نشاة الصبي ،
وعين أبيه غير العين التي ترعاه في صباه .
يا ولدي !
لا تعذب أمك
لا .. لا تعذبها

انا لم استطع ان امنحها الضحك
فاجعلها أنت ضاحكة .. دع وجهها يضحك
على الدوام ،
امك .. يا محمد !
قوية كالحرير
وناعمة كالحرير
امك .. ستبقى جميلة ، حتى حين تصبح جدة
فكأنها ، يومئذ ، هي هي التي التقيتها أول مرة ،
على ضفاف البوسفور ، وهي في السابعة عشرة :
ضوء القمر ، ضوء النهار ، سمرة الخوخة قبيل نضجها ،
بل أجمل ما تكون المرأة في دنيانا .
امك ..
لقد افترقنا ذات صباح على رجاء الملتقى
ولكن هيهات .. لم يتحقق الرجاء ،
لم نتمكن من اللقاء !
امك .. أذكى الامهات ، واطيب الامهات ،
لتعش مئة سنة ان شاء الله
ابني !
انا لا اخاف الموت
ولكني ، احيانا ، انتفض فجأة وانا اعمل ،
وحين اكون وحدي ، على سريري قبيل الغفو ،
يهتف بي خاطر :
من الصعب ان يحزر الانسان ، ما قد يعيش ، بعد ، من أيام .
ولكن هل نشبع من الحياة ؟
لا يمكن ، يا محمد ، أن نشبع ..
ابني !
لا تعش في الدنيا مستأجرا
كمن جاءها ليصطاف ..
عش دنياك كأنها بيت ابيك
ثق بحبة القمح ،
ثق بالارض ،
ثق بالبحر ،

ولكن ثق ، اكثر من ذلك ، بالانسان .
احب الفيوم ، الآلة ، الكتاب ،
ولكن اكثر من ذلك ، أحب الانسان .
احسّ بحزن الغصن الذي يجف ،
بحزن النجمة التي تنطفىء ،
بحزن الحيوان العليل ،
ولكن أحسّ ، قبل ذلك ، بحزن الانسان .
كل نعمة في الارض تعطيك السرور :
النور والظلمة ، يعطيانك السرور ،
الفصول الاربعة تعطيك السرور ،
ولكن الانسان أعظم مسرّاتك .
محمد !
وطننا تركيا ، جميل بين الاوطان ،
ورجاله الحقيقيون مجتهدون ،
محبون للعمل ، من طبعهم الدأب ،
شجعان ..
ولكنهم فقراء ، وفقرهم بشع ، رهيب .
لقد تعذب شعبنا ، ولا يزال يتعذب ،
ولكن ما أجمل المصير ..
وانت هناك في الوطن ، ستكون
من بناة ذلك المصير الجميل ،
من بناة الاشتراكية ، السعادة ،
ستراها بعينيك ، ستلمسها بيديك .
محمد !
سأموت بعيدا عن لغتي ، واغنياتي ،
عن ملحي وخبزي ، في لهفتي اليك ،
في لهفتي الى امك ، الى رفاقي ، الى شعبي ،
ولكن .. لن اموت في المنفى ، لن اموت في الغربة .
سأموت في بلد أحلامي (١)
في المدينة البيضاء : مدينة أجمل أيام عشتها في عمري .

---

(١) الاتحاد السوفياتي (ح. م.) .

محمد ! يا صغيري !
أنت وديعتي عند حزبي ،
لذلك سأرحل باطمئنان ،
والحياة التي تنطفيء بي ،
ستبقى جذوتها فيك أنت سنين معدودة من عمرك ،
ولكنها ستبقى الى الابد .. في شعبي .

. . .

ليست هذه نبوءة . لكن ما قاله ناظم حدث . في مدينة احلامه مات ، وبعيداً عن لغته واغنياته مات ، وفي لهفتـه الى منوّره ومحمده مات .. اما شعره فباق !

وأما اللقاء الذي تمّ فما أطفأ اللهفة ، ضنا بالشعر الذي هو منهـا ، وما تنكر له الشاعر ، بل وفى له بوفائه لشعره .. لقد ظلّ الحلم حلمـا ، وهذا هو الجوهر ، ظلت منوّر المراة والحبيبة والرفيقة ، لانها عرفت كيف تظل المراة والحبيبة والرفيقة ، فلنبعث بتحية اكبار اليها .

اما ذلك الضريح ، تحت أشجار السرو في مقبرة العظماء في موسكو ، فلتتساقط عليه رقاقات الثلج زهرات ربيع بيضاء ، وليهم الغيث غاليه من قارورة عطر السماء ، ولتقبّل الشمس ، بشفاه خصلاتها الذهبية ، أحجاره وتربته ، فانما الاشياء تفنى ، ولكن الشعر يبقى ، والذين جاءوا في موكب الكلمة سيحيون معها.. منوّر ستحيا معها ، ومحظوظة ، ماجدة ، عظيمة ، المراة التي تستدعي الكلمة ، وتجيء في موكبها .

ايها الراقد في ثرى موسكو ،

تحية من دمشق !

القِسْمُ الثاني

« لم يكن ناظم يحب التحدث عن السنوات الطويلة والصعبة التي امضاها في السجون التركية . كان حديثه ، غالبا ، حول بعض ما رافق تلك السنوات من حوادث طريفة » (١) .

بهذه الكلمات القليلة والمعبرة ، ترسم فيرا توليكوفا ، زوجة ناظم حكمت السوفياتية ، الطبع الابي للشاعر الذي امضى ربع حياته في السجن ، ولم يسمح لنفسه ، بعد خروجه منه ، أن يتخذ من سنوات السجن مادة مباهاة وتفاخر . ظلّ وفيا لتلك الروح العالية التي تعتبر النضال في سبيل المستقبل واجبا ، والعذابات التي يتحملها المناضل خلال ذلك شيئا من طبيعة الاشياء ، وهذا هو الخلق الكريم للرجال الافذاذ الذين كانوا يعدّون انفسهم ، في العملية النضالية ، شهداء أحياء .

تضيف فيرا توليكوفا : « الآن ، اقلب كتابا وصل مؤخرا من تركيا يتحدث عنه . في الكتاب صورة لناظم اخذت له في السجن ، حيث كان واقفا عند جدار الزنزانة ، وقد تكوّر على نفسه ، بسبب البرد والهواء الشديد ، وكان يلبس معطفا طويلا باليا ، وحذاء دون رباط ، وهو يضم الى صدره قطة هزيلة ، بينما أرسل بصره بعيدا مفكرا » .

الصورة التي تتحدث عنها فيرا اخذت في سجن بروصه ، حيث امضى ناظم اطول سنوات حكمه ، وكتب منه الى زوجته بيرايه قائلا : « لقد طال السجن هذه المرة : ثماني سنوات ! » ، وحيث وجه الى صديقه وزميله في القضية كمال طاهر كل تلك الرسائل التي جمعت ونشرت بعد وفاته ، والتي سنعرض لبعض منها في هذا القسم من الكتاب ، في محاولة لانارة جوانب من حياة الشاعر في السجن ، الحياة الحافلة التي قضاها وهو يناضل ، بالعمل وبالقلم ، لكي يكون جديرا بالرجال الذين هو في صفهم حسب تعبيره .

لقد تحدثت ، في القسم الاول من هذا الكتاب ، عن قضية ناظم حكمت

---

(١) حكايات من حياة ناظم حكمت ، ترجمة عرفان عبد النافع ـ جريدة «البعث» السورية.

الشعرية ، وعن التطابق الخلاق بين القول والفعل عند شاعر كبير ، دفع ثمن هذا التطابق عن وعي ، وعرف كيف يأخذ الحياة بجدّ ، وكيف يصمد للعذاب في الموت البطيء ، وكيف ينتصر هو الاعزل الا من الايمان بقضيته والثقة بانتصارها ، على جلاديه الذين تسلحوا بكل أدوات القهر ، وتفننوا في وسائل التعذيب ، وتطلعوا بحقد فاشي رهيب الى قطف راسه « كما يقطف رأس من اللفت » ، فلفقوا له التهم ، والقوه في غياهب السجون ، وتركوا حبل المشنقة يتدلى فوقه طويلا ، ثم عجزوا عن قتله ، وتراجعوا امام الضغط العالمي فأطلقوا سراحه ليهرب من تركيا ولا يعود اليها ابدا .. لا يعود حتى جثة في تابوت ، كي يرقد بمقبرة في احدى قرى الاناضول كما اوصى .

ان السجون التركية التي دخلت التاريخ مع الشاعر وقضيته ، قد كان عليها ، لو قدّر لها أن تحسّ ، أن ترتجف هلعا من ادانة هذا التاريخ . ونحن الذين نقرأ قصة ناظم حكمت ، ونقشعرّ من هول ومن غضب ، نقرأ ، في الوقت ذاته ، قصة هذه السجون ، وكأننا نعيش فيها من الداخل ، مع انسان ماجد تعلم ، بقوة الارادة ، ان يتجاوز ظاهرة الاحتجاز الذهني بفضل نضال يومي واع ، وأن يتصل بالعالم الخارجي ، عبر الكلمات التي صاغ منها اشعاره ، والكلمات التي انطوت عليها رسائله الكثيرة، الى السجناء وغير السجناء ، والى الناس كل الناس الذين وهب عمره لاجل قضيتهم .

اعتقل ناظم لاول مرة عام ١٩٣٢ بتهمة كتابات ثورية على الجدران ولصق منشورات معادية للسلطة ، وجزاء هذه التهمة الاعدام . لكن ناظم يناضل ، وهو في السجن ، ضد محاولة الاغتيال المدبرة باسم القانون ، ويخوض صراعا بطوليا كي يفضح أعداءه ويثبت براءته ، وينجح في ٣١ ـ ١ ـ ١٩٣٥ بالخروج من السجن ، مشمولا بالعفو الصادر بمناسبة عيد الجمهورية .

وفي هذا العام يتزوج منوّر التي كان قد خطبها قبل دخوله السجن ، وسنتعرّف اليها ، في رسائله ، باسم بيرايبه ، ويصبح ولداها : محمد وسوزان ، بمثابة ولدين عزيزين له ، وكان ينادي ابنه محمد باسم « عجلي محمد » لان ناظم لم ينجب اطفالا ، وهو يعترف بذلك في رسالته المؤرخة في ٣ ـ ٣ ـ ١٩٤١ الى صديقه كمال طاهر قائلا : « انني لم اعرف الاستمرار البيولوجي .. لي بالفعل طفلان أحبهما كثيرا ، لكنهما بيولوجيا ليسا من صلبي » .

وقد ظهر منذ مدة كتاب يضم رسائل ناظم حكمت الى زوجته منور ، ونشر بعض الصحف ان بيرابيه هي غير منور (١) ، وان بيرابيه زوجة وداد عرفي ، الرجل المغامر الذي ابتعد عن زوجته وطفليه أربع سنوات ، قضاها في باريس والقاهرة ، حيث قام بتجارب سينمائية خائبة ، وان ناظم تزوجها ، ثم أحب في آخر أيام سجنه منور ، وتزوجها بعد ان طلق بيرابيه عام ١٩٥٠ ، وتستشهد هذه الصحف على ذلك برسالة من ناظم الى بيرابيه يقول فيها :

« ربما هذه آخر رسائلي اليك . أعرف انني لم اعطك حقك جزاء صبرك واخلاصك ، لم اكن زوجا مخلصا لك ، أعرف الآن انني لم اعد زوجك ، ولا اخاك ، ولا طفلك الذي يحتاجك الى حد الموت . لقد خنتك كزوج ، لكنني كنت دائما صديقا مخلصا لك . انت تطلبين مساعدتي بصفتي صديقا لك . مدّي لي اذن يدك الصديقة يا بيرابيه ، زوريني يا بيرابيه . لتكن هذه الزيارة بأية صفة كانت ، زوريني » .

« ألن تمدّي يديك الى غريق يلفظ أنفاسه الاخيرة في بئر عميق ؟ » .

ان هذه الرسالة ، في رأيي ، لا تقدم اي دليل يثبت ان بيرابيه ليست منور ، فناظم الذي كان في السجن لم يكن يستطيع خيانة زوجه مع امرأة اخرى ، حتى لو اراد ذلك ، وسبب الرسالة يعود الى جفوة من تلك الجفوات التي كانت تقع بين الشاعر وبينها ، والتي أتى على ذكرها اورخان كمال في كتابه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » في السجن (٢) .

ومما يؤكد هذه الحقيقة كون منور هي أم محمد ، ابن ناظم الذي وجه اليه كثيرا من القصائد بعد خروجه من تركيا ، وان منور التي ظلت على حب ناظم الكبير ، هي التي الهمته أشعارا خالدة ، تشكل كل شعره الغزلي

---

(١) أكد لي كثير من أصدقاء ناظم حكمت الاتراك ان بيرابيه هي منور ، وان ناظم لم يتزوج غيرها في تركيا . ولم اجد في رسائله الى صديقه في السجن كمال طاهر ، ايما ذكر لزوجة اخرى . وقد ورد اسم منور في احدى رسائل ناظم قبيل اضرابه عن الطعام وخروجه من السجن ، اذ يقول انها قامت بجمع التواقيع على عريضة تطالب باطلاق سراحه ، وربما كانت منور اخرى غير زوجته ام محمد (ح. م.) .

(٢) كذلك اتى ناظم على ذكر هذا الخلاف مع بيرابيه في رسالته الاخيرة الى كمال طاهر ، لكنه لم يذكر ابدا انه احب امراة اخرى ، أو اعتزم الزواج بها (ح.م.) .

تقريبا ، وان الفراق الذي وقع بينهما كان بعد خروج ناظم من تركيا ، حيث استوطن الاتحاد السوفياتي وتعرّف بفيرا توليكوفا وتزوجها .

لقد أمضى ناظم ومنور ثلاث سنوات من الحيـــاة المشتركة ، الملأى بالحب والفرح والكفاح ، امتدت بين فترتي سجنه الاولى والثانيــة . ففي عام ١٩٣٥ خرج من السجن وتزوج منور ، وكان يعمل كمترجم للافلام في استديو « لالا » ، لكن سعادتهما لم تطل ، فقـــد قبض على ناظم في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٨ ، بتهمة محاولة قلب نظام الحكم في تركيا وتعاونه مع بعض المتمردين في الاسطول ، وتحريضه لهم ، وظلّ في السجن الى عــام ١٩٥٠ ، حيث انتزعته موجة الاحتجــاج العالمية كما هو معروف ، رلولاها لبقي في السجن ومات فيه ، لان الاحكام التي صدرت عليه تجاوزت مدتها نصف قرن ، وكانت تتوالى بتهم مختلفة .

ان هذا القسم من الكتاب سيتناول حياة ناظم حكمت في الفترة الثانية من سجنه ، التي امتدت اثني عشر عاما متواصلة ، وتنقل الشاعر خلالها بين السجون التركية المختلفة ، من استانبــول الى تشافكيري الى بروصه ، حاملا خشبة صليبه ومرتفعا على المعنى الذي اراده أعداؤه ، ليعطي ، في صموده ، دلالة على المعنى الآخر ، الاكبر ، لما تمثله خشبة الصلب ، اذ هي راية مفاداة .

لقد قبض على الشمس بيدين أسطوريتين ، وانصهر بالحرارة المحيية فيهما ، معانقا في تساميه مصدر النور ، مانحا ، عـلى نحو قلّ نظيره ، خصلات من أشعتها ، كي تنير ظلمات الزنزانات لاولئك الرجال ــ والنساء ايضا ــ الذين كانوا يدفعون من عذاباتهم مهرا غاليا لحريـــة الفكر وكرامة المبـــدأ .

وبمقدار ما كانت سنوات سجنه مريرة ، كانت مبدعة . انه يفهم ، حتى بعد اندحار الفاشية في الحرب العالميـــة الثانية ، ان فاشية جديدة ستظهر ، وان سجنه سيطول ، لذلك يوصي صـــديقه كمال طاهر بالعمل المفيد من داخل السجن . ورغم آلام المرض ، والابواب الحديدية الموسدة ، والجو الرصاصي الثقيل الذي يطالعه من النافذة ، والحر الشديد الخانق في الصيف ، ومرض ابنه محمد بالسل ، والتواطؤ عـــلى قتله بيـد بعض السجناء ، فقد ظل متفائلا ، محبا للحياة ، مهتما بكل ما يدور من حوله في السجون التركية ، وما يدور خارجها في وطنـــه والعالم ، يكتب ويترجم وينظم الشعر ، ويساعد زملاءه السجناء ، وزوجته ولديها ، ويناضل ،

عبر ظروف صعبة ومعقدة ، ضد الظلم الواقع عليه ، وضد « عدالة » خاطئة ، وضد كل ما يشوّه الحياة ويجعلها تعيسة الى حد مريع .

ان أشعاره التي تستمد نسغها من روح شعبية ، وتجسد حلما شعبيا، يزيدها وعيه عمقا ، ويكسبها مفهومه الجدلي بعدا انسانيا واجتماعيا ، وتأتي معرفته الواسعة بتاريخ بلاده ، وحكاياتها الشعبية ، واساطيرها ، وناسها الذين فهمهم على نحو أفضل في السجن ، يأتي كل ذلك ليغني قصائده ، ويجعلها قادرة على التوحيد بين الانسان والطبيعة ، وبين الذات الفردية في أدق خلجاتها ، والذات الجمعية في أخفى ، واظهر منسرباتها وتطلعاتها البشرية ، وهذا ما جعل لشعره ذلك الوقع الساحر على سامعه ، حتى كان السجناء يبكون وهم يصغون اليه .

وقد استطاع ، بدقة ملاحظته ، وخبرته الطويلة بالسجن ، ومعاناته وحبه الكبير للانسانية ، أن يفهم الانسان على نحو شديد الشفافية ، شديد السبر ، بالغ الاهتمام بالمعطى الحي لمشاعره الدفينة تحت تراكمات الجهل والفقر والظروف المبهظة ، فكان يحاول ، في كل ما يعمل ، ان يكشف عن تلك المشاعر ، ويفجرها ، ويوجهها وجهة كفاحية واعية .

وسنجد ، من خلال أشعار ناظم حكمت ورسائله ، ومن خلال اقواله وتصرفاته في السجن ، انه استطاع ، بقوة ارادة خارقة ، ان يرتفع على الشدائد ويتغلب عليها ، وان يفهم دوافعها ويكافح ضدها ، وان يحتج على الظلم ، بألف شكل للاحتجاج ، وأن يتجنب اليأس ، بألف شكل للتجنب ، وان يصوغ مفهوما « للسجن » ، تمتزج فيه كبرياء الصبر بكبرياء المقاومة ، وان يجعل من مفهومه هذا تطبيقا عمليا خلاقا لحياته .

لقد كسر ، ذات يوم ، قلمهالوحيد الذي يكتب به ، وبدلا من التشاؤم، عثر على نقطة التفاؤل العجيبة في هذا الحدث الصغير ، ولكن الكبير بالنسبة اليه . استنتج انه لن يستطيع الحصول على قلم حبر جديد الا بعد خروجه من السجن ، ولانه لا يمكن أن يبقى بغير قلم ، فان الافراج عنه بات قريبا .

وهم ! لكنه وهم في حساب الحلم ، والحلم حين يكون قابلا للتحقق ، يصبح مادة أمل وعمل ، ومشاعر فرحة خصبة تعطي العافية للنفسالبشرية في كفاحها ضد اليأس والتصوح والذبول .

اننا سنمضي الآن في رحلة غير قصيرة مع ناظم ، وسيكون انطلاقنا

معه من سجن بروصه ، هذا الذي يصفه لنا في أول رسائله الى كمال طاهر ، صديقه في سجن تشانكيري :

عزيزي كمال (١) :

« ها انا في سجن بروصه . النوافذ والجدران والممرات المحصبة هي نفسها دائما . لم تشخ ولم تتبدل . حتى انني التقيت بعض الموقوفين الذين ما يزالون هنا . لقد وجدوا انني شخت ، ووجدت انهم شاخوا كذلك .

لكم وصفت لك هذا السجن : بناء على شكل طائرة ، وغرفتي في الطابق الثالث ، الى اليسار ، في آخر نقطة منه . انها غرفة صغيرة ، بل اصغر جدا من غرفتي في سجن تشانكيري ، نقيم فيها نحن الاثنين ، انا وزميل يدعى كمال . نعم ، كمال مثلك . وليس اسمه الذي هو نفس اسمك فقط ، بل ان له أشياء كثيرة تذكرني بشبابك : حبه للشعر ، حماسته الموّارة . انه محكوم بالسجن بموجب المادة ٩٤ . وقد لا يشبهك في شيء سوى الاسم ، ومن الجائز انني انا الذي احتاج للبرهنة على مثل هذا التشابه الموجود بينكما ، ما أهمية ذلك . انني راض بزميلي في هذه الزنزانة ، ونستطيع أن نتكلم عنك ، كما لو انني أتكلم معك . وقد بلغ هذا التماثل ذروته أمس مساء ، فخيل اليّ ان الباب سيفتح وانك ستدخل منه » .

يتحدث ناظم حكمت بعد ذلك عن معارفه في سجن بروصه ، ويختم رسالته قائلا : « اعتن بنفسك يا كمال ، لا تعرّضها للبرد ، ولا تدع الزكام يصيبك ويهزم جسمك ، فقد فارقتك وانت كالبلوطة ، وآمل أن القاك كالبلوطة واسمن قليلا .

« تحيات مفعمة حنينا الى كل الذين يسألونك عن اخباري ، والى الذين يفكرون بي ، اقبّلك ، اخي » .

ان هذا الانتقال ، من تشانكيري الى بروصه ، قد سعى اليه ناظم بالحاح لوجود حمامات معدنية في المدينة ، يستطيع أن يتمالج فيها من « العرق الانسر » ، حين تتوفر لديه النقود ، وما اندرها .. واذ يتم النقل

---

(١) كمال طاهر ، المعتقل كناظم حكمت ، وللاسباب السياسية ذاتها ، واللذي سيغدو ، بفضل تشجيع ناظم له ، من ابرز الروائيين الاتراك . انظر كتاب « من الامل الى ما يجعل الانسان يبكي غضبا » ، الطبعة الفرنسية ، ترجمة منور انداش عن التركية. وقد عربنا مقتطفات من رسائل ناظم عن هذه الطبعة ، الدكتورة نجاح العطار وانا (ح.م)

يروح ناظم يتوجع لفراق كمال ، زميله في السجن وفي القضية الادبية والسياسية على السواء ، الذي كان يدعوه ولدي : « جاءت بيرابيه وعادت. لم نصنع شيئا سوى الكلام عنك . لقد شعرنا اننا عجائز لان لنا ولدا عمره أكثر من ثلاثين عاما . لكننا شعرنا أيضا اننا شباب جدا ، لان لنا ثقة كبيرة فيه » .. « مضحك يا كمال ! انني أسأل نفسي غالبا ، لماذا لست عجوزا جدا ، ولماذا لم تكن انت ابني الاشد ذكاء ، ابني العظيم ؟ » .

« كمال ! أجد ما يقلقني بسبب الرطوبة في غرفتك ، فاذا كان من غير الممكن أن تأتي الى هنا بسرعة ، فاستخدم « منقل » نار ، ولكن احذر خطر الاختناق بغاز الفحم » .

« كمال ! كنت سعيدا جدا حين علمت بأنك وضعت فيزنزانة جديدة، لكنني حزنت لانهم أخذوا منك الراديو . هنا توجد اذاعة داخلية في عدد كبير من الغرف ، ولدينا ايضا محطة اذاعة مشتركة في البهو . تحياتي الى رفاقك في الزنزانة ، واذا كانوا يحملون لك التقدير والمودة ، فسيسعدون سجينا آخر على بعد مئات الكيلومترات ، لا يعرفون اسمه » .

« سيكون رائعا يا كمال ان أعيش أنفا لأنف مع بيرابيه ومعك ، ومع زميلي طالب الجامعة القوزاقي (الذي حدثتك عنه) في هذه الغرفة من غرف سجن بروصه . معكم فقط وليس مع الآخرين . انا مسرور من رشيد كمالي ، وكل يوم ازداد سرورا به . وليس ذلك لانه لا يرتكب حماقات ، فهو يرتكبها بكثرة ، بل لان الحياة معه في غرفة واحدة لا تزعجني أبدا . أعتقد انني أستطيع ان أعيش معه عاما أو عامين ، حسب الحاجة ــ وليجف لساني ــ في هدوء تام » .

ان رشيد كمالي ، الذي سيصبح ، بفضل مساعدة وتشجيع ناظم حكمت ، الكاتب اورخان كمال ، والذي كان يعيش معه في زنزانة واحدة ، قد كتب كتابا عن حياة الشاعر في سجن بروصه ، عنوانه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (1) ، وقد وصف في هذا الكتاب كيف وصل ناظم الى سجن بروصه :

« كان ذلك في شتاء ١٩٤٠ ، كنت أعمل في تنظيم « دفتر السوابق »

---

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية الاستاذ جوزيف ناشف وراجعه الاستاذ علي الطنطاوي ، ونشرته مجلة « الموقف الادبي » ــ كانون الثاني ١٩٧٥ ــ وقد اعتمدت عليه في بعض المقاطع من هذا القسم ، واغتنم هذه المناسبة لاشكر الزميلين وانوه بجهدهما .

لقلم السجن . وذات صباح ، فيما كان الكاتب يقلب الاوراق الواردة حديثا قال : « أوه .. لديّ خبر مفرح » .

نظرت اليه بحيرة .

ـ أستاذك قادم .

ذهلت لانه لم يكن لي أستاذ .

قال : اتخدعني ؟

قلت : لا ، ولكن ليس لي أستاذ .

ـ يا حبيبي .. انه ناظم حكمت .. أليس استاذك ؟

لم أصدق . قدم الي مذكرة كانت في يده . تناولتها : حقا انـــه في الطريق الينا . انه يشكو من العرق الانسر ، ويرغب بالمعالجة في الحمامات المعدنيــة » .

« كان النهار رصاصيا ، والثلج يغطي أوراق الزنبق الخضر في حديقة السجن ، واليأس من خروجي من السجن ، لطول مدة حكمي ، يزيــد من ضيقي ، غير انه سرعان ما تغيرت مشاعري هذه ، وانجلت كالغيوم عنــد شعاع الشمس .

« لم تكن بيننا أية معرفة او صداقة او مجرد تحية ، كما لم يكن ثمة احتمال أن نغدو « رفاقا » في يوم من الايام . كنت ، مثل الجميع ، افتقد غيابه ، ومثلهم لا أدري السبب بالضبط . ربما لانني اخاف عليه ، أو لان معرفتي به بسيطة ، ومهما يكن فقد كنت احبه واحب فنه العظيم » .

كانت معرفة رشيد كمالي بناظم سماعـــا . الاذن تعشق قبل العين احيانا . القلب كذلك . ان الذين يهبون حياتهم للناس ، نضالا وادبا وفنا ، يصيرون في الاحياء الى الناس ، معقد رجاء ، ومسحة عزاء في الشدة . والسجناء في تركيا ، الذين التقوا ناظم في سجن التوقيف في استانبول ، أو عايشوه في السجون المختلفة ، أو سمعوا به من السجناء الآخرين ، او قراوا شعره المتداول بينهم كالخبز الابيض ، هؤلاء ، جميعا ، كانوا ينطوون على رجاء : أن يروه مرة ، وان يشدوا على يديه ، ويقدموا له خدمة صغيرة ، او يقولوا كلمة ، هي في مقابل عطائه الكبير ، تحية قلب الى قلب .

نجاتي ، في سجن بروصه ، كان من هؤلاء . لقد تعرّف الى ناظم في سجن التوقيف في استانبول . احبه جدا ، وحدث السجناء في بروصـــه عنه . كان يكتب الشعر ايضا ، مثل كمال ، ومثل عزت ، زميلهم الثالث ، وكان قدوم ناظم بالنسبة اليهم شيئا كبيرا ، لانهم سيعرفون رايه في مـــا

يكتبون من شعر ، وسيكونون على مقربة من انسان قال نجاتي عنه : « ان له سمات الرجال العظام المشهورين » .

الفرحة تضجّ في صدر كمالي . انه يمتلك خبرا اكبر منه ، اكبر من وجوده وكيانه ، ولكي يتخفف ويهدأ ، يترك عمله ، ويركض بين طوابق السجن ، مندفعا بقوة غير عادية .

« قابلت نجاتي عند غرفة « المواجهة » قرب الشبك الحديدي في الطابق الارضي ، حيث كان يعمل في ادارة تنظيفات السجن . قلت له : « هل تعلم ان ناظم حكمت قادم الى هنا ؟ » . لم يصدّق . اقسمت له ، صفق مثل طفل صغير ، وانطلق يصيح : « يعيش » ، وقال : « يجب أن أطلب من عزت الا يضايقه بالذهاب اليه ، وقراءة شعره أمامه ، فهو يكره أن يزعجه احد . لا يجوز أن يسأله عن كل شاردة وواردة .. وربما كان من الافضل الا نخبر عزت ، خشية أن يقول ناظم « آي » ، ويحمل أمتعته وينتقل الى زنزانة أخرى » .

غير ان كمالي يعجز عن كتمان السر . يركض ويخبر عزت ، ويخبر السيد امين ، وبعد قليل كان خبر وصول ناظم قد سرى بين جميع السجناء ، وقال نجاتي : « يا رجل ! لا يمكن للعدس أن يبتل في فمك ! » وشرعا يتحدثان عن ناظم :

ـ هل استمعت اليه وهو يقرأ الشعر ؟

ـ استمعت .. عندما يقرأ الشعر يحسّ الانسان بانفعالات تتماوج في أعماقه .. واذا ما اخذ طفلا يبكي بين ذراعيه سكت الطفل فورا .

وراح نجاتي يقصّ ، كعادته ، الحكايات عن ناظم .. يخترع بعضها ، وينقل بعضها الآخر سماعا ، ويجد في ذلك فخرا وزهوا على الآخرين .

وبعد أسابيع ، فيما الثلج يتساقط ، والدنيا رصاصية ، يركض نجاتي الى كمال وهو يلهث :

ـ لقد أحضروا ناظم حكمت قبل قليل . .

يقول كمال : « كنت في رئاسة القلم ، بجانب دفتر السوابق ، فسقط القلم من يدي ، وعاد اليّ نجاتي يقول :

ـ لقد أدخلوه عند السيد المدير .. حدثتك عنه طويلا .. تعال فهو الآن على وشك الخروج .

« امسكني من يدي وخرجنا . كنت منفعلا الى درجة انني احسست بالسطح يدور فوق راسي . وفي زاوية من القاعة البيتونية ، العائدة لادارة السجن ، لفت نظري الى الاغراض الموجودة : قماش برتقالي مصنوع من

الشعر حزم به فراشه ، وحقيبتان عتيقتان وسلة .. انـه انسان مثلنا ، يفكر بغير الشعر أيضا .. لكنه ، على اية حال ، فوق مستوى البشر ـ. قلت في نفسي ـ انه نابغة .. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرى سوى نابغة واحد ، كلما اتجهت أفكاري الى النابغين ..

« كان على وشك الخروج من غرفة المـــدير و .. (على راسه قبعة سوداء) كلا (لم تكن قبعة ، بل هو خروف ضخم مشقوق البطن) أو ربما (يبدو جالسا بكبرياء الى جانب دفة السفينة كما ذلك البحار في قصيــدة بحر خزر) .. انه انسان تركي على شكل بوذا ، يقف بعظمة الى جانب دفة السفينـــة » .

« صرّ باب غرفة المدير وانفتح . حبست أنفاسي . جحظت عيناي ، وحدقتا الى أمام ، كأنني أنتظر أن أرى هيكلا عظيما من المرمر . لحظة .. وكنا وجها لوجه .. ثم التقت أعيننا . كان يضحك برقة ، ضحكة تذكرك ، بغير شك ، بطفل نظيف ، ناضج ، صديق حقيقي .

« كان يفكر بالشيء الذي عليه أن يفعـــــله ، ثم بدا يبحث عن وجه يعرفه ، واخيرا لمح نجاتي ، وعندما همّ بالتوجه اليه أسرع نجاتي وعرّفني به . تصافحنا بحرارة ، وبدات عيناه التركيتان تتنقلان بين الموجودين في القاعة ، وكانوا كثيرين .. بعضهم تعرّف عليه في سجون اخرى ، وبعضهم سمع باسمه فقط ، وكان ناظم ما ان يلمح شخصا يعرفه ، حتى يسرع اليه ويعانقه ، كوالد وولد طال فراقهما . « آه يا أخي العزيز .. انت ؟! » كان يقول : « وانت أيضا ! » . ويسأل كل واحد عن قضيته ، وأحواله وبيته ، وعما اذا كان يتلقى مساعدات ، وعن استئنافه او تمييزه ، وكان يبدو كأنه يتابع ، عن بعد ، قضايا هؤلاء الرجال .

ويتجه الى « رمزي المجنون » ، النحيل ، الحافي ، المرتجف مـــن البرد ، ويسأله :

ــ .. اذن حكموك ثلاثين سنة ؟ ولم كل ذلك ؟ هل قتلت احدا ؟ هل يقتل المرء انسانا آخر في السجن يا رمزي ؟ ماذا ؟ حرّضوك ؟ اذن قتلتــه نتيجة التحريض ؟ اهذا معقول يا رمزي ؟ أيليق بك يا ولدي ؟ هل يقتل المرء من أجل سبع ليرات ؟ نعم .. انه الجهل ، لكنك جـددت الثلاثين سنــة مرة أخرى .. هيا .. هيا .. لا يجوز مثل هذا ، انت انسان طبعا ، فلماذا تجور على نفسك ؟

ويتجه نحو شخص آخر ، يسأله عن صحته وعن ماكينات الجوارب والخيوط ، ويأتي دور السيد امين ..

ــ آه يا سيدي ، يا أميني العزيز ، يا أستاذي ، يا عزيز روحي .

ويقول حارس قروي ، متوجها الى زميله :

ــ يا له من رجل حي !

وفي تلك اللحظة يأخذ رئيس الحرس والحراس بتفتيش اغراضه ، وبعد الانتهاء من تفتيش احدى الحقيبتين ، يسحبها ناظم ويفتحها . كانت فيها أوراق ، ودفاتر ، وأقلام ، وفراش ، ودهان زيتي ومائي ورسوم ، أخذ يرينا اياها ويشرحها لنا ، ثم يرينا صورا ويقول :

ــ هذا هو كاتبنا كمال طاهر .. وسيكون في المستقبل من اقوى كتاب الرواية الاتراك .. وهذا محمد العصري ، كان مصورا في سجن تشانكيري، وهذا محمد كلجي بطل احدى قصص كمال طاهر الكبيرة . ويتخذ وجهه طابع الجدية ويقول :

ــ ان شعبنا التركي ذكي ، مدهش .

« كانوا قد جهزوا له زنزانة انفرادية في الطابق الثالث ، فحملنا بعض اغراضه وتركناه ، بعد رجاء ، يحمل الاغراض الاخرى ويسير خلفنا . صعدنا سلالم ، دخلنا من أبواب حديدية متشابكة . مررنا بدهاليز مظلمة ذات رائحة كريهة ، ورأينا السجناء مجتمعين ومنفردين ، ثم بلغنا الزنزانة فوضعنا الاغراض فيها .. » .

في هذه الزنزانة سيعيش ناظم حكمت سنوات طوالا من عمره . ان هذا الانسان المحبوب حتى من أعدائه ، كان في وسع اي سجين ان يتحدث معه بسهولة وراحة . وقد شعر كمالي بالغربة معه ، لاول وهلة ، لانه كان يسيطر عليه مثل هذا الشعور أمام المشهورين ، غير انه ، بعد مضي ساعتين ، كان صديقه ، وبعد فترة طلب ناظم من ادارة السجن أن ينقلوا كمالي الى زنزانته ففعلوا ، وراح هو ، بعد ذلك ، يرتب أوقاته ، بما اشتهر عنه من دقة وتنظيم ، متابعا على هذا النحو كفاحه السياسي والادبي من قلب السجن ..

« كمال !

« زميلي في الزنزانة فتى حسن النشأة ، يحب الادب والشعر ، ونحن نتفاهم جيدا ، وهو يهديك صداقته .

« عليّ أن اخبرك كيف تنقضي ايامي حاليا. في الساعة الثامنة صباحا تفتح الابواب . اذهب الى التواليت فأغتسل ، وأتناول الافطار واتنزه حتى التاسعة ، في التاسعة بعض القراءة ، وغالبا قراءة لتحسين فرنسيتي مثلك . في العاشرة انصرف الى الرسم ، والى أن يهبط الظلام ، اي الى حوالي الخامسة ارسم . تغلق الابواب في الثامنة ، وحتى ساعة اغلاقها أدردش مع امين والآخرين . وبما انه ليس لديّ ما أقرأه ، أنام في التاسعة. هاك كيف تمضي حياتي في السجن . انني لا أكتب الشعر ، ولا أدري لماذا ، لكنني أحسّ ان امتلاء يحدث في داخلي ، وعندما أفرغه قد أكتب أشياء جيدة .

لا استطيع ان أكتب دائما الى نوري طاهر (١) . سأكتب له غدا ، وأطلب منه أن يبعث اليّ بصورته النصفية ، على الا تكون صغيرة جدا ، وسأرسم له ، بألوان معتنى بها ، صورة جميلة .

صدقني يا كمال ، انني مستعد ان أدفع كثيرا لاكتب رسائل مثل رسائلك . لو كنت قادرا ، بدل الرسم ، أن أكتب رسائل جميلة اليك !

غالبا ما أسفت لانه ليس لي أخ ، الآن لديّ اخوان : نوري طاهر وانت . لا تستطيع أن تتصور ، أنت الذي لك شقيقان ، الى اي حد انا سعيد بالتفكير بك من بعيد ، كأخ أكبر ، غير انه يمكن أن تأسف أنت ايضا لانه ليس لك اخت .

لشدّ ما ارغب أن ارى ثانية سجن تشانكيري ، والموقوفين هناك ، وغرفتنا ، وكل تلك الاشياء . ان بي حنينا الى ذلك . حانوت « مودرن » الصغير لبيكير الخياط ، ورشة النجارة ، والفحام الصغير ، كانت تلك اوقاتا سعيدة .

حالتي ليست سيئة هنا . غير ان هذا لا يكفي ، المهم هم الناس ، الانسان .

بيرايه تبعث اليك بكل صداقتها . لقد سلموني رسالتك يوم الاثنين، حين كانت هنا ، وقرأناها معا ، فاندفعت الدموع الى عينيها ، ووبختني لانني قبلت بالمجيء الى بروصه وتركتك هناك . غير انها تعزت حين قرأنا المقطع الذي تحكي فيه عن مدى ارتياحك الى المدير الجديد ، وقالت لي : « كمال ! انه بمثابة ابن عظيم . انه مثل بكري « محمد » ، وانا سعيدة حين

---

(١) نوري طاهر شقيق كمال طاهر ، ومحكوم لنفس الاسباب في سجن سينوب .

افكر ان لي ابنا عظيما بهذا الشكل ، من ناحية اخرى فان حزنا ناعما ينتابني حين أرى الى اي حد شخنا ، انت وانا » .

في اليوم التالي تسافر بيرابيه تاركة ناظم في زنزانته مع رشيد كمالي : تدعه هناك ، في سجن بروصه ، وراء ستة أبواب : « آه يا أخي.. ما هذا ؟ ابوابوراء أبواب ، وأقفال علىأقفال ، بالله كم بابا يغلقون وراءنا ؟ »

ويصمت كمالي ! هو يعرف ، أو سيعرف ، ان لدى ناظم مادة دائمة للاحتجاج ، ولكن ليس لديه مادة لليأس .

« سيرى احدنا الآخر يا أصدقائي ، سيرى احدنا الآخر . سنضحك جميعا للشمس ، ونتعارك جميعا أيضا .

« هناك كما تذكرت في هذه اللحظة ، هناك اغنية لموريس شيفاليه :

وداعا ، لا ، سنرى بعضنا ثانية ،

وداعا ، لا ، الى اللقاء .

« كمال !

« يتبدى مزاجك رضيا دائما عندما تحدثني عن أخبار عملك . اندفع الدمع الى عينيّ واحسست كم أنا فخور بك . انني مقتنع بأنك ستغدو يوما كاتبا من الطبقة الرفيعة ، وهذا الاقتناع يقوي ايماني ، يعزز ايماني بجمال العالم . انه لجميل أن نعيش ، وسيظل جميلا » .

ان هذا النشيد العلوي لجمال العالم ، سيظل ترنيمة صلاة يومية للشاعر الذي يعشق الحياة ، حتى وهي تبدي له أفظع جوانبها قباحة . ما همّ . انه من نافذة سجنه يضحك للشمس ، ويتأمل ، على جناح خاطر طائر ، كل الدنى التي يكسوها أرجوان الزنابق ، في خضرة الربيع ، وفي حقول الصيف ، حيث الثمار الذهبية قناديل على الاغصان ، وفي نتاج الادباء الاتراك ، الذين يعززون ايمانه بالبهاء الازلي لوجود يعطي نفسه لمن يعرف ان يأخذه ، وكذلك في الوجوه الطيبة للسجناء السياسيين الذين يتوجه اليهم برسائله ، طافحة بشوق حقيقي ، ونابضة بصوت مجلجل : ان اصمدوا ، وابدعوا ، واغزلوا من أحلام المستقبل قمصان عرس لليوم الكبير ، الآتي .

وكان هؤلاء السجناء يبررون ثقة ناظم بهم . كانت رسائله نداءات معركة يخوضونها مع احرار العالم بجسارة مدهشة وفرح عظيم ، وكانت ، كذلك ، نجاوى قلب يختزل قلوبا عامرة بالمحبة والدفء ، وفوقها ، كان

الاهتمام بأقل شؤونهم اثارة للاهتمام ، يعطيهم الشعور بأن لهم اخا اكبر ، اعظم ، أحسن من كل الاخوة ، لانه رفيق دربهم وزميل قضيتهم .

يقول عابدين دينو ، في مقدمتـــــه لكتاب « من الامل الى ما يجعلك تبكـي » :

« من المؤكد ان ما هو مكتوب ببساطة (في هذه الرسائل) مثير جدا ، أو نكتشف فيه شاعرا كبيرا متوجها باستمرار شطر الآخر ، يهتم به يوميا ، يهتم بالحاح بكل ما يتعلق به ، بما يحتاج اليه من دراهم ، وكذلك بأحذيته وبنطاله المثقوب ، ويعمل كل ما بوسعه ليسدّ هذا النقص .

« وتكشف رسائل ناظم عن وجه هام من تصوره للشعر ، فالفن عنده مغامرة جماعية ، اذ الشاعر ، كما الكرّام الذي يعنى بكرمته ، مهتم بالحصاد المقبل ، وبما سيأتي من روائيين وشعراء ورسامين من الشبـــــاب . انه يساعدهم مباشرة ، يكوّنهم ، وعندما ينقـدهم ، يهلل ، يعرّف العـــــالم بالذين سيصبحون أفضل كتّاب تركيا .

« كان يرقص فرحا لاية بادرة تنمّ عن قريحة ، شأنـه شأن الساحر الذي يكتشف كنزا مخبوءا في الارض . ويحلف انه لا يوجد شيء ممـــاثل لهذا في ذاكرة انسان !

« لقد اعتبر بعضهم ظواهر التساهل معهم على انها حق أبدي لهم ، في حين ان البعض الآخر ، وكانوا اكثر وعيا ، حاولوا بالعمـــل المفيد ألا يكذّبوا تفاؤل الشاعر . فكمال طاهر ، وشبيهه في الاسم أورخان كمـال ، اللذان نستشعر وجودهما في الرسائل ، اثنان من أحسن الكتـــاب الذين كوّنهم ناظم . ونكتشف كذلك وجود المصور الفلاح بالابان الذي علمه الرسم ، وهو واحد من المشهورين في تركيا ، ومن الذين عاصرهم ناظم وكانوا معـه في السجن .

« ومهما يكن من أمر فاني ما أزال أرتعش لذكرى تلك الساعات والايام والسنوات التي أضاعها ناظم في سبيلنا ، عوضا عن أن يعمل فيها من أجل قصائده .

« كان كل مرة يقسم بأن ما قاله كاف ، وعبثا كـان يقسم ، وكل مرة كان معلمنا الاول يصوغ بتواضع ، ومن اجل المتخلفين من امثالي ، حقـائق اولية ، وهو يتظاهر بأنه يكتشفها معنا ، اذ يلخص ، من أجلنا ، الانتقادات الماركسية المتعلقة بالفن بين الاعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٥٠ ، ويشرح لنا الكثير من المسائل الفلسفية والفنية المتعلقة بالشعر والقصة والرواية .

ويقول أورخان كمال (رشيد كمالي) في كتابه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (١) في السجن :

« لم يمض على قدوم ناظم الى سجن بروصه اكثر من ساعتين ، وخلال هاتين الساعتين أصبحنا أصدقاء ، وبدأت أحسّ بأنني قد تعرفت على جميع الاشخاص القريبين الى قلبه : أمه ، زوجته ، ابنه ، اخته ، ومجموعة من أصدقائه ، كيف حدث هذا ؟ لا ادري ! ولمعرفة ذلك سألني : « ما دراستك ؟ » .

« أصبحت باردا كالثلج ، خجلت خجلا شديدا ، فهوّن عليّ قائلا : « يا رجل ، ما دمت لا ترغب أن تكون موظفا فما حاجتك الى الدراسة ! » . ثم سألني : « اتعرف لغة اجنبية ؟ » اجبت : « مجرد معرفة بسيطة بالفرنسية » . قال : « اترغب في اتقانها ؟ » واجبت : « طبعا ! » . فشرع يحدثني عن الحرب العالمية الثانية ، وعن الاحتلال الالماني ، وعن الفلسفة ، ولما عرف انني قرأت كتبا كثيرة ، سألني عن أشعاري، وطلب مني احضارها، فأحضرتها ، وشرعت اقرأ ، لكنه علق قائلا : « يكفي .. ركيك ، قصيدة رديئة » . وقال : « كل هذا الكلام ، يا أخي ، ثرثرة ، وعفوا لتعبيري ، ما الداعي لكل هذا ؟ لماذا تكتب عن أشياء لا تنبع من صميمك ؟ » . بدأ الدم ينزل من راسي الى قدميّ ، واشعاري تتهاوى على الارض ، وانشأ هو يشرح كل شيء بدقة . تكلم عن « الواقعية » و « الواقعية الجديدة » ، كان حديثا طويلا مسهبا ، لم أفهم منه شيئا . كنت احسّ بعالم كبير ينهار في داخلي ، عالم مبني على الوهم والكذب ، لم أكن مؤمنا به . وبعد ان قرأ عليّ أشعارا من دفتره الاسود الصغير ، وسألني رايي فيها ، وغضب لانني مدحتها كثيرا ، قال : « لديك قابلية جيدة للصنعة ، وهذا واضح . لقد كنت خشنا في تقويمي لشعرك ، ويجب أن تعذرني لذلك . انا لا أمزح في امور الصنعة .. وانطلاقا من هذه النظرة فانني أؤكد لك انك تملك خامة طيبة للشعر » . وسحب نفسا عميقا من غليونه واضاف : « أريد أن أعمل معك عن قرب .. اعني اريد ان اشذب ما تكتب . اريد ان اعلمك الفرنسية اولا ، ثم نخطط للدروس الاخرى ، الديك استعداد لذلك ؟ فوعدته ، وتصافحنا ، وعاد يضغط على التبغ في غليونه بنشوة .

« كنت ادرس ثماني ساعات أو سبعا كل يوم ، واكتب اشعارا ، لكنني ما كنت اجرؤ على اطلاعه عليها . كانت اشعاره سلسة تزخر بالمعاني الكبيرة،

---

(١) سبقت الاشارة الى هذا المرجع .

بايجاز شديد ، بينما اشعاري تتخبط في متاهات ، مليئة بالحسك من البداية حتى النهاية . وبعد أشهر اطلعته على أولى قصائدي وكانت بعنوان « قصة بيروت » ، فأصغى اليها بانتباه ، وطلب مني أن أقرأها ثانية ، ومن حين لآخر كان يقول : أحذف هذه الكلمة ، وهذه .. او يطلب مني تغيير ترتيب الابيات ، وبعد تهذيب أشعاري على هـذه الصورة ، نظرت اليها بحيرة ، اذ كانت سابقا محشوة بالخشونة والتفاهات ، فأصبحت اشعارا تذكر بأشعاره » .

ان هذه الصرامة فيمسألة الصنعة كما كان يقول ، تنسرح على اشعار الآخرين بمقدار ما تنسرح علىأشعاره هو . كان يريد منقرائه أن ينقدوه، ان يبينوا له موضع الضعف والرداءة في شعره ، وكثيرا ما استجاب للنقد الصحيح ، ففير وبدل بالكلمات في قصـائده ، وكثيرا ما عتب على كمال طاهر ، لانه تردد في نقد شعره بجراة :

« لقد جرحني ان أعلم انك ترددت طويلا قبل أن تعرّفني برايك في أشعاري ، منذ متى تعوزك الشجاعة في أن تكتب لي انك وجدتها رديئة ؟ حين تجد شيئا لا يرضيك فلا ينبغي أن يمنعك أيما شيء مـن أن تجهر برأيك للذين هم أعز الناس لديك . أنت تعلم انني ، انا نفسي ، لا تأخـذني رحمة ـ بقدر ما أستطيع ـ نحو ما أكتبه . الاشفاق على اشعاري سأحسّ به في اليوم الذي أقتنع فيه بأنني غير قادر ان اصنع خيرا منهـا . وهنا ستكون الشفقة التي أحسّ بها ، بسبب من موتي الذاتي كفنان » .

صارم في نقد الشعر ، صارم في اخذ نفسـه بأن تصنع خيرا ممـا صنعت ، عامل دائب في سبيل أن يكون السجن نافعـا لشيء ما ، قادر ، رغم الم الارق ، أن يسيطر على اعصابه ، وان يعلم الناس محبة كل يـوم افضل ، وكل يوم أجمل ، مكرّسا ايامه في سبيل تعليم من يتوسم فيهم الموهبة ، كيف يكونون كتابا جديرين بالذين هم في سفهم . لقد صاغ مـن سنوات السجن الطويلة فلسفة خاصة بالسجن ، تقوم على الصمود ، وعدم استهلاك النفس حسرة على ما هو خارجه ، وعلى الثبات في النضال لاجل الوطن ، والقضية ، والناس الذين هم أبناء الوطن وجوهر القضية :

انه لنا ،

هذا الوطن الذي يطاول شاطىء البحر الابيض ،

كراس فرس مقبلة خببا من آسيا القصية .

. . .

لتتوحد ثغور البلاد فلا تفتح لغاصب ابدا

وليننتف استعباد الانسان للانسان .
هي ذي قضيتنا .
حياة حرة ، فردية ، مثل شجرة ،
رفاقية ، جماعية ، مثل غابة ..
تلك هي حسرتنا .

غير ان الحسرة في سبيل حياة كهذه ، لا ينبغي ان تقتلها روح التعجل، ولا أن تراود النفس ، بسبب قسوة النفي والسجن والتشرد وجميع الآلام والمصاعب ، رغبة في الخلاص الفردي ، ولو عن طريق الموت ، هذا الذي يحمل الراحة والهزيمة معا ، حين نقاربه بملء اختيارنا ، كي نتخلص من آلامنا وشقائنا ونحن نرسف في القيود . ان ناظم يوجه نصائحه الى السجناء ، الى أولئك الذين يذوون مثله في الظلمة والرطوبة ، قائلا لهم : « ان قراع العدو دين في أعناقكم » ، وان على السجين ، من اجل ذلك ، الا يقول : « حبذا لو تأرجحت كراية في طرف حبل » ، بل ان يغرز قدميه في الارض متشبثا بالحياة :

تعلقك بالحياة والوطن والانسان يعني :
ان تشنق ،
او ترقد في غيابة السجن ، عشر او خمس عشرة سنة .
عليك الا تقول :
« حبذا لو تأرجحت ، كراية في طرف حبل »
بل أن تغرز قدميك في الارض ، متشبثا بالحياة .
قد كان لك عيش آخر في الدنيا ،
لولا ان قراع العدو دين في عنقك ،
وانك تستطيع ان تظل وحيدا ، على جنبك ،
مثل حجر في قاع بئر ،
بينما جنبك الآخر يشارك الحياة ،
بزحامها واحداثها ،
الحياة التي تقشعر لها الابدان في السجن ،
وان لم تحرك ، خارجه ، ورقة شجر على الارض ،
منذ اربعين يوما .
ان انتظارك الرسائل في السجن ،
وترديد المواويل ،
وفتح عينيك والحملقة في السقف ، فوقك ،

وتسمر ناظريك عليه ،
شيء حلو ولكنه خطر .
انظر الى وجهك بين الحلاقة والاخرى ،
انس عمرك .
صن نفسك من القمل ،
ومن امسيات الخريف أيضا .
لا تنس اكل الخبز حتى آخر لقمة ،
والضحكة العريضة ملء الفم ،
ثم من يدري ،
فقد تتخلى المراة التي احببتها عنك .
لا تقل هذا امر تافه .
انه يهصر المقيم في السجن .
فيصبح كأنه غصن اخضر مقطوع .
التفكير بالحديقة والورد سيىء في السجن ،
أما التفكير بالجبال والامواج فشيء حسن .
اوصيك بالقراءة والكتابة دون توقف ،
وبالحياكة ،
وصنع المرايا .
ان قضاء السنوات العشر ،
او الخمس عشرة ،
أو ما هو أكثر ،
ليس بالامر المستحيل ،
انها تنقضي ،
شريطة الا تسودّ الجوهرة ،
التي تحت ثديك الايسر (١) .

هذه التفاؤلية العملية ، المبنية على ملاحظات واقعيـة موضوعية ، تكشف خبرة انسان عرف السجن والنضال كليهما ، فصاغ خبرته في الصمود على شكل نصائح ، قد لا تكون ، اذا اتبعت ، العلاج الشافي لأزمة السجين، كل سجين ، غير انها ، بالنسبة لسجين معين ، يعرف ان الزنزانة هي امتداد للباحة او الشارع في الكفاح اليومي ، جديرة بأن تلجم في ذاته نفاد الصبر ، والقلق ، والشكوى ، وكل ما يجعل البعد في النفس الصمودي

(١) هذه القصيدة ، وشذرات من قصائد اخرى قليلة من ترجمة الاستاذ ثابت العزاوي .

قصيرا ، وتحمله ، عن طريق الممارسة والاقتناع ، على مزاولة عمل مفيد ، من اي نوع كان ، لكي لا يستشعر الفراغ القاتل ، الـذي يحرك أحاسيس الضيق والملل والسأم ، ويدفع الى الشكوى والنواح ، فيخلق لدى السجين أزمة نفسية تزيد من عذابه بغير طائل .

العمل : القراءة ، الكتابة ، الحياكة ، النجارة وغيرها ، كل ما يجعل الانسان نافعا ، وكل ما يملأ الفراغ الناهش في أعصابه كمقرض ، هو شيء حسن بالنسبة للسجين ، وربما كانت المشاغل التي تقام في السجون خير حل لمشكلة الوقت الذي يتمطى ويطول مع الفراغ ، ويبهظ المرء الى درجة فقدان الشعور بالراحة . ولقد اختبر ناظم كل ذلك ، فأوصى ، عن تجربة ، بعدم التحديق في السقف وعدّ الايام الباقية ، وبعـــدم التفكير بالبيت والحديقة أو انتظار الرسائل ، لان تطلعا من هذا النوع يضني صاحبـه ، ويجعله يعيش ازدواجية حياة ، ينمو ويتضخم ويتلألأ جانبها الخارجي على حساب ضمور وقتامة الجانب الداخلي ، فيزداد السجن في عيني الراقد فيه سوادا على سواد .

ليس معنى هذا أن نعزل انفسنا ، ونحن في غيابة السجن ، عن كل ما هو خارجه ، وأن نقبع بغير تطلع ولا رجاء ، والا نسوح بعواطفنا فيما وراء الاسلاك الشائكة ، ونقيم سورا من حولنا فلا ندعو الى غرفتنا ، في رؤى اليقظة ، اولئك الذين أحببناهم ، والذين هم في صفنا ، والـذين يشكلون المصدر لكل الهاماتنا . ان فعلا كهذا يقطع صلتنا بمن هم أساس في قضيتنا وصمودنا ، هؤلاء الذين هم « في عدد أسماك البحر ونجـوم السماء » ، والذين تعجز قضبان السجن عن ان تمسك روحنا أن ترفرف مع ارواحهم ، بل المقصود ، من الاستغراق في العمل ، والاقبال عـلى الحياة ، وصيانة النفس من القمل والصدأ ، أن نجد سبيلا الى التآلف مـع حياة السجن ، ونعتبرها حياتنا لفترة طويلة ، ونتقبلها ونحبها على هذا الاساس ، ونحفظ هذا الخافق تحت الثدي الايسر ان ينقلب حجرا يثقل الصـدر ، بدل ان ينتفض ليضخّ الدم حارا في عروقنا .

الوثوق ، امتلاك الوثوب على الاذى ، اكـل الخبز حتى آخر لقمة ، والضحكة المعافاة ، ثم العمل ، والعمل ، والعمل ، وتعميق الثقة بأن الشمس تشرق كل يوم ، وان الغيم سينجلي ، ومن الايام السود الى الايام البيض ، سيحمل الناس الناس ، في موكب الآتي الجليل ، كـل ذلك هو العدة التي تساعدنا على غزل الفجر خيوط ضياء للمستقبل .

لا للحزن ، لا للعزلة ، للضجر ، وللخوف من الوحـدة . لا للجلوس

تحت قدم جدار ، والكف على الخد ، والفكر مبلبـل ، ورصاصية الطقس مناحة في النفس . لا ، ايضا ، لكل ستارة تحجب عنا رؤية الآفاق المترامية وراء الجدران ، ولكل صمت مقبري يحول بيننا وبين ان نسمـــع زقزقة العصافير ، وتراتيل الاناشيد ، واصوات الذين هم صوتنا ، يحملها الاثير الينا ، ليذكرنا اننا لسنا وحدنا في الطريق الرحب الذي تسير فيــه امـم بكاملهـــا :

لا تبق مسمرا على جدار ،
وذقنك بين راحتيك .
لا تضع ذقنك بين راحتيك .
انهض ،
وانظر ،
الى الليل الجميل في العراء كأنه بحر الجنوب
تصطفق امواجه على نافذتك ...
تعال ،
اصغ الى النسيم ،
فهو مترع بالاصوات ،
اصوات الارض والماء والنجم
واصواتنا ايضا .
تعال الى النافذة ،
واصغ الى النسيم
فهو يحمل اصواتنا .
ان اصواتنا عندك ،
معك ايضا .

قولة القائل : « من كانت له اذنان للسمع فليسمع » ، تعني ان ثمة آذانا لا تسمع . ليس بها وقر ، ولا هي مسدودة بقطن ، ولكنها لا تستطيع ان تسمع هسيس الورق في غابة ، ولا دبيب النمل في ارض فلاة . انـه الانطواء على الذات ، فعل القانطين ، والذين لا رجـــاء لهم . هؤلاء ، في المناجاة المتبادلة لا احبة لهم . يعجزون عن سماع اصوات البلابل وتسابيح القبّرات ، ويتشرنقون في سوداوية تجعـــل من غرفهم نواويس . هؤلاء موتى . قيامة اليعازر اقرب من قيامتهم ، والـذين مثلهم ، اينما وجدوا ، لا يعرفون طلوع الفجر ، ولا يسرّون به ، والسجن ، بالنسبة اليهم ، حفرة للعدم ، لا ارتفاع عليها ، فهم زواحف ، ولا اجنحة طيور .

ناظم كان مريضا. انواع الامراض التي تكاثرت عليه أكثر من أن تحصى، لكنها لم تبلغ أن تلوي من شكيمته . « اشعر بأنني بكامل لياقتي كمصارع ، مقاتل ، لاعب كرة قدم ، طيار ، واذا لم اتوقف ساكتب مئة بيت في اليوم، لكنني أضبط نفسي ، ولشعوري بأنني ساعيش حتى ابلغ المئة عام ، ولانني لا ادرك ، هذه الايام ، انني محكوم بالموت كالآخرين تماما ، فأنا ارتجف ، أحيانا ، حين يخطر لي انه قد يصيبني شيء خلال ستة اشهر ، قبل ان اتمكن من انجاز هذه القصيدة . كم أنا سعيد يا كمال ، اذ يكون لي صديق مثلك ، أستطيع أن اكتب اليه كل هذه الاشياء » .

محكوم بالموت ، وينسى انه كذلك . سيعيش مئة عام ، فيا للامل العريض ! خوفه ، فقط ، ألا يستطيع اكمال قصيدته ، بسبب حادث مفاجىء ، فهو يكتب مئة بيت في اليوم . ان صاحب القلب المعطوب ، يشعر انه مصارع ، لاعب كرة قدم ، مع انه تجاوز الاربعين ، فكيف تأتت له جراة ان يجهر بكل هذا التحدي في وجه الموت من حوله ؟

ان هذا الذي كان يغني عند التعذيب ، مثل الديسمبريين الذين كانوا يضحكون من القياصرة في المنافي ، كان يعذب جلاديه ، بأكثر مما يعذبه جلادوه ، فعل فوتشيك وهو تحت اعواد المشنقة ، والشهادة من بابلو نيرودا ، في مذكراته التي تؤرخ ، ببساطة مذهلة ، لحياة مذهلة في قوتها وروعتها :

« كنت على الدوام ازور في موسكو او في الريف ، شاعرا كبيرا هو الشاعر التركي ناظم حكمت ، وهو كاتب خرافي أسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته طويلا .

« لقد اتهم ناظم بأنه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية ، فأدانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ، ومن بعد ادخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر ، فشعر اخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد ، عند ذلك فكر : لا بد ان الجلادين يراقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون أن يروني اتداعى ، يريدون ان يروني تعيسا يائسا . فانبعثت قواه في انفة وبدأ يغني ، أولا بصوت خفيض ، ومن بعد بصوت اكثر علوا ، وفي النهاية شرع يغني ملء حنجرته . غنى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، اناشيد شعبه

النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه ، وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . وعندما قص علي ذلك ، قلت له : « يا أخي ، انك بهذا قد اجبت عنا جميعا ، فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب أن نبدأ الغناء » .

« كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قسوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان ناظم يراهم وهم يأتون الى السجن جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبغ بقطعة الخبز التي كانوا يعطونها حصة وحيدة وجراية يتيمة . اخذوا ينظرون الى المرعى في باحة السجن بذهول ، ومن بعد بانتباه وتركيز ، ثم بشراهة ونهم ، وذات يوم التقطوا الحشائش والاعشاب وقرّبوها من افواههم وراحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الايدي فيبتلعونها ، الى ان انتهوا الى الرعي بأربعة ارجل كالدواب » (١) .

هكذا كان يعيش الفلاحون الاتراك . ان هذه اللوحة ، بكل ما فيها من قسوة الشقاء الانساني ، لم تكن مبعث أسى بالنسبة لناظم حكمت ، بل مصدر غضب ، يتحول في سلوكه الى نضال ، وفي شعره الى مقاومة . وكان سجنه الطويل ملحمة غير مكتوبة ، لكنها مسموعة جيدا ، تتنداح أصداؤها في ارجاء تركيا ، وتحرض الناس ، وبخاصة المثقفين ، على النهوض والكفاح .

ولقد نهض مناضلون أشداء ، وتبعوا ناظم على طريق الجلجلة ، أو نهضوا وسبقوه ، فاستلهم منهم ملاحمه الكبيرة ، وعجز الاغتيال والبطش والارهاب عن قهر ارادة الكفاح في نفوسهم . وعجز السجن ايضا عن الحيلولة بينهم وبين متابعة المسيرة ، برغم معرفتهم ان اشواك الطريق وصخوره ستدمي اقدامهم وتستنزف دماءهم .

لقد فعلوا كل ذلك لاجل الوطن ، لاجل العمال الفلاحين ، والشعب التركي الذي « يعمل اربعا وعشرين ساعة في الاربع والعشرين ساعة » ، وهو جائع ، بجلوده الصفراء ، وأيديه الخشنة ، وأصابعه ذات العقد ، والسل يفتك به .

من أجل هذا كله كانت آلام افضل ابناء الشعب التركي ، وكانت اوجاعهم ايضا ، وهم يتعفنون في رطوبة الزنزانات ، وناظم بينهم ، يكتب

(١) مذكرات نيرودا ، ترجمة الدكتور محمود صبيح .

الرسائل ، ويستنهض الهمم ، ويقوّي العزائم ، وينظم الشعر ويصيح : « ضمد جراحك بيديك الرهيبتين ، وعض على شفتيك مقاوما الاوجاع » ، « انني معكم يا رفاقي ، لم تحولني الريح ، الى ورقة في مهبّ الريح ، لقد سقت الريح أمامي » .

كان شجاعا الى درجة الجنون ، وعاشقا للحياة الى حدّ الذوبان فيها، وقد نهض والسلاسل في قدميه منتصبا بجلال وعنفوان الذات المتمردة ، ليتحدث في أمور جدية . غير انه ، في حبه للانسانية ، لم ينس الجانب الدنس الذي لا يحب ، فانهال عليه ، عن طريق الذين كان ينقدهم ، مسلطا الانوار على رذائل الحياة ، ونقائص الناس بغير رحمة ، بغية تعليم الكفاح والصمود ، وتربية الظمأ الى الافضل في النفوس : « ان ما أكتبه هو من أجل الناس ، من أجل الذين بكثرة نمل‌الارض وسمك البحار وطير السماء . فالذين يهبون قلوبهم ورؤوسهم واحشاءهم للثورة ، هم الاثقل أحمالا بيننا » . والى هؤلاء ، في السجن وخارجه ، كان ينوجه بالنداءات مصاغة في شعر ذاتي يلامس الوجدان ويشحذ الهمم ، ويدوي بنبرة تعلو على الاسى وتجلجل كالصنوج في خاتمة ملحمة موسيقية . « انا الذي ـ كان يقول لهم ـ أحمل في رسغي الطوق الحديدي ، وكأنه سوار من ذهب ، اتطلع الى حبل المشنقة دون أن يهتزّ جفني » . ولئن غدا دستويفسكي استاذا في احتمال اللذة والالم ، وتحوّلت متعة المعاناة عنده الى سعادة ونعيم ، فان ناظم غدا استاذا في مقاومة الالم ، وفنانا في الارتفاع على الظلم ، وداعية الى رباطة الجأش في تقبل الاذى حتى الانتصار عليه ، ومواجهة الخوف حتى تكون للانسان الشجاعة التي تنطلق كعاصفة فلا تسأل من بعد عما يصادفها من عنت . ان هدير الطاقة الثورية في ذاته كان داويا كنفير ، مجلجلا كرعد ، يسمعه كل من حوله ، كل من في وطنه ، فيترجع الصدى حبا غامرا ، يسبقه ويمهد له الطريق ، كانه ذاك الذي يمشي الى الصلب ، مبشرا بقوة الحق ، والحق هالة من نور تنير سبل الآتين في مجد الفداء لاجل الخلاص .

لقد كان واعيا ، وكذلك واثقا ، ان التغيرات الثورية في حياة الشعب، أي شعب ، اشد من الحاجة الى الخبز واقوى من العطش الى الماء ، وان الناس في طموحهم الى احداث هذه التغييرات ، يحتاجون الى من يقودهم على الدرب الصعب ، والى من يخاطبهم بالكلمة التي تنفذ الى القلب وتأسر المشاعر ، لانها ، في بساطة الحقيقة ، كلمتهم ، وفي رسم الصورة تستمد

الوانها من بؤسهم وشقائهم ، فهي منهم ولهم ، وهي قادرة ، في صدقها ، وقوة المثل الذي يضربه صاحبها ، على أن تسكن اوجاعهم ، وتحملهم على تقبل هذه الاوجاع ، تضحية لاجل الصحة والفرح والغصون الخضر في الربيع الذي سيعود ، مهما تشتد عربدة الشتاء :

آلام المفاصل واوجاعها ،
سوف تسكن ،
وسوف نتعافى ،
يا رفاقي ،
المرضى .
ستأتي الراحة خلل اغصان خضر مثقلة ،
كأمسية ناعمة في أول الصيف .
يا رفاقي المرضى !
ما ينتظرنا خارج الباب ،
ليس الموت ،
بل الحياة !
اذن قليل من الصبر ، ومن العناد .
خارج الباب عالم يعجّ ويعجّ ،
وانتم ستنهضون من أسرّتكم وتمضون ،
وستكتشفون فورا طعم الخبز والملح والشمس ،
واصفرار الليمون وذوبان الشمع ،
وانهيار شجرة الصنوبر النخرة .
أيها الرفاق المرضى !
نحن لسنا ليمونا ولا شمعا ولا صنوبرا .
اننا بشر ، والحمد الجزيل ،
ونعرف اضافة الامل الى دوائنا ،
وشدّ اقدامنا واطالة أمد مقاومتها ،
والمناداة بـ « حق الحياة »
ايها المرضى !
ايها الرفاق !
ستصحون ،
وستسكن الآلام ، واوجاع المفاصل ،

وسيحلّ مساء
صيف ،
بهيج ،
وستحلّ الراحة ،
بين الاغصان الخضر المثقلة .

المهم ، لديه ، ليس الحرية في العيش ، دون مقاومة . الحرية ، مع الاستسلام للواقع السيىء ، هي حرية موت بطيء . « الحرية الاهم ان نقاتل » .. والقتال ممكن من كل المواقع ، وحتى من داخل السجن ، والمسيرة ، بعد ، طويلة ، وعلينا أن نمشي ، محتفظين دائما بأعصاب هادئة، « انت لا تتخيل كم أنا رضي الطبع ، وكم أحتفظ بأعصابي هادئة ، وبالرغم من ألم شديد في أعماقي ، ارى الحياة زاهرة . املك ابتسامة ذلك الذي يعرف انه آخر من سيضحك » .

« كمال ! أريد ان أقول لك شيئا — ولن يكون هذا كلاما في الهواء — انا متفائل الى حد بعيد ، وانت لا تستطيع أن تتصور الى أي حد تنزلق الاخبار الرديئة عني دون أن تترك اثرا ، كافعى على صخرة . أنا لا اشعر حتى ببرودة الافعى ، وبالرغم من انني اتألم كل يوم من الارق ، فان أعصابي لم تكن صلبة الى هذا الحد ابدا » .

« أنا مفعم حبا واعجابا بشعبي ، وممتلىء غضبا أيضا ، الى حد انني غير قادر أن أشرح في رسالة لماذا يحدث لي كل ذلك » .

« تشجع يا كمال ! لنستمتع من أعماق سجوننا بكوننا جئنا هذا العالم في القرن العشرين . انها سعادة حقيقية أن نولد في هذا القرن ، وأن نأخذ مكاننا في الصف الذي نحن فيه ، أنا فخور لاني ولدت في القرن العشرين » .

وهو يتصور هذا الفخر ، في الترجمة العملية ، نضالا بكل أدوات النضال ، وتطلعا دائما الى آفاق جديدة ، والسير أبدا نحو الشمس :

يمشي وجبينه الى العلاء ،
وربطة عنقه الحمراء في الهواء .
يمشي خطوة فخطوة ،
ويمشي .
الريح مزبدة كالبحر ،
والبحر يعصف كالريح ،

والاشعة تتساقط من حوله ،
كالشهب الهاوية ،
الاصداء تتردد من الاعماق ،
من اعمق أعماق القلب :
ـ الى أين انت ذاهب يا بني ؟
ارجع حبيبي ،
ارجع أخي ،
ارجع عماد بيتي ، ارجع الى وراء .
لكنه ظلّ يمشي ،
وجذعه يرتفع وينخفض كسفينة ،
يمشي قدما ، قدما ،
يمشي وئيدا وئيدا ،
يمشي ،
من يدري ،
لعله لا يعود ،
ليمسد بأصابعه ،
شعر اخيه الاصفر ،
او لعله لا يسرّح ،
تحت أشجار الدلب ،
طرفه ،
وكانه ينظر ،
في طريق اخضر صاعد نحو الشمس .
انه يمشي ويمشي ،
وبخطى واسعة مفتوحة يذرع الدرب ،
وذراعاه تتطوّحان كمطرقتين ثقيلتين ،
وصدره المشعر منفتح كالدرقة .
لم يعد يسمع ..
كلام اصدقائه المرضى ،
الذي يقطر كماء القرنفل على القلب ،
وهم حول المائدة الخشبية مساء .
يمشي نحو العدو ،

وعيناه تشعان ،
كنصلين مجردين من غمدهما .
يمشي خطوة فخطوة ،
يمشي وئيدا وئيدا ،
ويمشي .

هذا المفرد بصيغة الجمع ـ حسب تعبير ادونيس ـ يشعرنا ، في وهج القصيدة وايقاعها السريع ، انه كتيبة تتقدم الى الصدام وامامها موسيقاها العسكرية : خطواتها ترنّ ، وصدورها تتحدى ، ونظراتها ترمي كالبنادق. انه «الجماهير التي تتقدم لتسد الافق» ، كما قال عمر فاخوري، وعبثا تقام في وجهها الحواجز والمتاريس ، فهي كاسحة كسيل يتدفق اثر فيضان رهيب ، وهي ترحف كغابة تحركت اشجارها واندفعت الى صدام اسطوري .

فرع هو لكنه أصل . رجل يمشي ، رامزا الى رجال يمشون ، والخطى من الثبات بحيث لا تراجع أبدا ، فكأنها القدر الذي ليس منه مفرّ .

وهذا التصور لمسيرة الرجال ، من سجين محدودة ابعاد زنزانته ، يعطي لطاقة النضال في الذات ، مدى ليس له تخوم . وقد كان همّ ناظم ، في سجنه ، أن يعلو على معنى السجن ، وأن يتحرر من الجدران ، في ذلك الشوق الى معانقة الخطر ، لئلا يتخلف عن المعركة التي ترتجّ لهولها الارض. وخوفه ، اذا فعل ، كان من أن يدركوه ، من أن يجعلوا السجن في نفسه ، هو الذي يرفض الاعتراف بالسجن ، برغم كل ما مكث فيه . وقد كتب الى زوجته ، في احدى قصائده ، يقول :

« لقد ادركونا يا منوّر ، فنحن الاثنين في السجن ، انا داخل الجدران وانت خارجها ، لكن ما هو أسوأ من ذلك ، ان نحمل هـــذا السجن في انفسنا » . وقد تبدو عبارة « أن نحمل السجن في انفسنا » نوعا من التحذير من عاقبة التفكير الدائم بالسجن ، غير انها ، من الناحيــة السيكولوجية ، ذات كشف بعيد ، عن تلك الحالة النفسية بالغة الخطورة ، التي يصبح فيها السجن مستوطنا داخل النفس ، بمثابة عقدة او حالة مَرضية .

ان الامل ، والتفاؤل ، والعمل ، هي العوامل الاكثر تأثيرا في مكافحة الملل والسأم والجزع وكل النوازع المرضية المتولدة عن حالة السجن ، وقد فهم ناظم هذه الحقيقة وطبقها ، واراد ، من خلال الكلمة والنصيحة ، ان

يعممها على السجناء السياسيين من رفاقه ، بل أن يربي كل السجناء الذين لا يتورطون في القمار أو المخدرات بها ، لذلك كتب مقطوعاته المعنونة بالساعة ٩ ـ ١٠ ، أي التي كان يكتبها بين التاسعة والعاشرة كل ليلة ، وفيها يبعث الامل ، ويضرم الحقد على الظلم ، ويعطي للتفاؤل صورا موحية ومنعشة ، مثل مقطوعته : « الخريف سينقضي ، مرة بعد مرة ، والربيع سيعود ، مرة بعد مرة ، ونحن سنقضي شتاء آخر ، متدفئين بنار غضبنا الاكبر ، ورجائنا الاقدس » . ومثل : « اننا لم نبلغ حدّ القتل ، لم يتهيأ لنا بعد أن نموت ، ولكننا نعلم ... ونستطيع أن نعلم الآخرين ، النضال في سبيل قومنا ، ومحبة كل يوم أقوى ، ومحبة كل يوم أفضل » . ومثل : « سيولد منا .. اكمل من ولد من التراب ، ومن النار والبحار . ودون خوف ، ولا تفكير ، سيترك الناس أيدي الناس ، ناظرين الى النجوم ، قائلين : الحياة شيء جميل ، انها كعيني الانسان ، دون قرار ، ناضرة كعنقود من العنب ، فرحة ، مستبشرة » .

وعندما كان يموت أحد المناضلين في سجن ما ، وتترك الفجيعة ظلالها المأساوية على نفوس الآخرين ، كان ينهض للتمجيد لا للرثاء ، لتعظيم الشهادة لا للتفجع على الشهيد :

ما كان في الطليعة ،
ولا في المؤخرة ،
وانما في الصف ،
صفنا !
جاء دوره ،
وعدّ رقمه ،
فلا حاجة للكلام ،
ولا للدمع ،
لا حاجة للاكاليل ، ولا للتهليل .
صمتا ،
كي ينام جندي الصف .

انه ، هنا ، في موقف حزم . لا للدموع ، وللحسرات ، فجندي الصف ادى واجبه ونام ، ومن يؤدي واجبه يبلغ الراحة في الحالتين : الحياة والموت على السواء .

وهذا الحزم نفسه ، يواجه به مصيره ، وهو يتوقع ، كل ليلة ، ان

يقاد الى الاعدام ، لذلك يقول لزوجته : « عبثا سينظرون في عيني ناظم الزرقاوين ، ليروا ما فيهما من خوف ، اذا ما امتدت يد غجري تعيس ، لتضع الانشوطة في عنقي » . انه لا يهاب الموت ، ولا يتصور الآخرين يهابونه ، وهذه المواجهة القاسية تتخذ لديه طابع اللامبالاة والازدراء ، فالرصاصة المنطلقة الى صدرك ، قد تستطيع ، أنت ، أن تشعل بها سيكارتك الاخيرة . المرء ليس سيكارة ، ولكنه ، كما غوركي فعل ، حين صعد المسرح وسيكارته تتدلى من شفتيه ، يستطيع السائر الى الموت ، أن يضع سيكارة في زاوية فمه ، ويعرض صدره للرصاص باستخفاف انتقامي من الجلادين ، وبكبرياء تعلو على صفار الاعداء وتدوس عنجهيتهم باحتقار :

قد يموت برصاصة تحرق صدر سترته ،
هذه الليلة .
لقد ذهب على قدميه الى الموت ،
هذه الليلة .
قال : عندك سيكارة ؟
اجبت : بلى !
ـ وكبريت ؟
ـ كلا !
ثم قلت : الرصاصة ستشعل سيكارتك .
تناول السيكارة وذهب .
لعله يرقد الآن رقدته الطويلة ،
وبين شفتيه سيكارة لم تشتعل بعد ،
وعلى صدره جرح .
ذهب ،
وانتهت ،
اشارة الطريق .

مات ! من أجل من ؟ ليس بالتحديد ، فالشهداء اكرم في العطاء من ان يهتموا ، كيف وأين ماتوا ، ومن أجل من ضحوا بحياتهم ، ان ذلك يدخل في اللعبة الحسابية ، لعبة التضحية أمام جمهور كاف ، ولاجل اشخاص سيذكرون ان الموت كان فدية عنهم . ذلك ، في رأي ناظم ، مرفوض ، واخذ الحياة بجدّ يسمو بها عن هذه المقايضة المقيتة . من اجل القضية والناس وكفى :

تستطيع ان تموت لاجل الناس
لاجل اناس لم تر وجههم قط ،
بينما لا احد يغصبك على ذلك .
ورغم انك تعلم ان الحياة ،
اجمل ما في الوجود ،
والاكثر حقيقة ،
فان عليك أن تأخذها بجد ،
الى درجة ،
انك في السبعين مثلا ،
ستغرس اشجار الزيتون ،
ليس لابنائك أبدا ،
بل لأنك لا تؤمن بالموت ،
رغم خوفك من الموت ،
ولأن الحياة ترجح كفة الميزان .

ثم ان الموت لا يأتي بثقب من رصاصة ؛ أو على طرف حبـل فقط . الاسباب تتنوع ، لكنك ، وانت تموت ، ستكون مرتاحا لعلمك ان المعركـة بعدك ستستمر ، والاطفال سيولدون ، والذين وراء الجدران سيخرجون ، والدنيا ستتغير ، والنجوم ستبزغ كل ليلة في السماء .

ان الموت هو الوجه الآخر للحياة ، هو الحقيقة الاخرى ، ولنفرض انك ستموت بحادث ما ، فهل يمنعك هذا ، وانت مريض او تقاتل او في سجن ما ، أن تفكر بأشياء جميلة ، وان تثق ان الحياة بعدك ستستمر ، والشمس ستطلع ، وانك باق في الذين بعدك ، بقاء هذا الوجود الذي ينتقل ، فـي صيرورته ، من جيل لآخر ، لكنه ، يرتقي ، وتثمر فيه الكلمة الطيبـة ؟

لنفرض : انك مريض ، والعملية خطيرة ،
وانت معرض ،
الا تقوم ابدا عن الطاولة البيضاء .
ستشعر حتما بالحزن ، لذهابك باكرا .
لكنك ستضحك ايضا لكلمة طيبة ،
وتنظر من النافذة ـ هل يهطل المطر ؟
وستنتظر بلهفة كل يوم ،
آخر نشرة للاخبار .

لنفرض : انك على الجبهة ،
وانت تقاتل من اجل شيء يستحق .
وفي اول هجوم ، ومن اليوم الاول ، يمكن أن تسقط ميتا
وانت تعلم ذلك بشيء من الغضب الغريب ،
لكنك سترغب مع ذلك ، دائما ،
أن تعرف نتيجة المعركة ،
التي تستمر بعدك .
لنفرض : انك في السجن ،
وانت تقترب من الخمسين
وبعد ثمانية عشر عاما ،
ستفتح الابواب الحديدية .
لا يهم ، انك ستعيش مع الحياة ،
مع رجالها ، ووحوشها ، نضالاتها ، ورياحها ،
مع الحياة خارج الجدران
في اي مكان ، وفي اية شروط ،
ستعيش ،
كما لو انك لن تموت ابدا .

ان محبة الكون ، الى هذه الدرجة ، وبكل هذه الاحتمالات ، احلاها ، وقائع النضال في سبيل الغد ، هي وحدها التي تسمح لك ان تقول : « لقد عشت » . دون ذلك ما الحياة ؟ همك ، كما قال احد معلمي عمر فاخوري ، ان تأكل وتنام ؟ والمسرات ، اغلاها ، قلب يخفق مع قلبك ، وذراعا امرأة ، وانت ، على سريرها ، تستقبل كفارس ترجل توا عائدا من المعركة !

كوننا الشاسع سيبرد ايضا . ينطفىء ، ويتدحرج في ظلمات اللانهاية، ان ذلك ، يهمك ايضا . عاشق كون انت ، ولا بد ان يهمك هـــذا ، ولاجله تحزن ، وبذلك تستحق ان تقول : « لقد عشت » . فالعيش ان تحب بغير حذر ، بغير حساب ، بغير تفكير بالثمن ، يكفيك ، كما العـــاشق ، انك احببت ، وستكتشف انك محبوب ايضا ، وان الـدورة القصيرة لعمرك ، مهما يكن عدد سنواتها، قد كانت، كسنبلة القمح ، ملأى بالحبوب الناضجة.

دع دمك يحترق ، لا تعط جسمك جديدا الى التراب ، ابذله هنا ، على النحو الذي تريد ، احذر فقط ان تعيش راكعـــا . انتصب ، اعلى ،

فالقدم لا تسحق سوى الزواحف ، اما سنابل الحقـــل ، فهي التي تقطف واقفـة :

أنا في الضياء الذي يتقدم ،
ويداي مليئتان بالشهوات ، والعالم جميل .
عينان لا تتعبان من النظر الى الاشجار .
فهي خضراء جدا ، ومليئة بالامل .
طريق مشمسة تخترق أشجار التوت ،
وأنا في غرفة التمريض على النافذة
لا أشعر برائحة الادوية .
فقد ازدهرت البراعم في مكان ما .
وهكذا ! هكذا كل شيء .
ان تكون سجينا ، ليست هنا المسألة .
فالقضية هي الا تستسلم ...

لنقرأ : الا تقع في اليأس ، أن تمارس حياتك كاملة ، أن تعمل وتعلم من حولك أن يعملوا . أن تكون ، كما ناظم « رجل الجبهات جميعها » حسب تعبير كلود روا في مجلة « فرانس اوبزرفاتور » : « لقد تحمل الشاعر في سجنه وحدة الزنزانات ، لكنه رفض أن يتقبل شعور الوحدة ، فكان يكتب الى أصدقائه ، في السجون وخارجها ، ويبعث بنصائحه ، ويرسل كتبا ومالا وثيابا ، وكان يكتب بخط صغير لانه لا يملك مالا كافيا لارسال رسالة ثقيلة من سجن الى آخر ، ويتخذ من الفلاحين والعمال والسائقين والاطباء والطلاب والشعراء أصدقاء له ، ويقول لهم في قصـــائده : « انني أحس بأوجاعكم ، مثلما تحسون بها تماما ، وان الدمع ليتحير في المآقي ، فأتمالك نفسي مثلكم وبالحزم نفسه » . ويضيف : « اذا بقيت سالما ، سأكتب على الجدران وفوق الارصفة ، في الساحات العامة ، أشعاري ، وسأعزف على الكمان في ليالي العيد ، لمن يبقون من المعركة الاخيرة ، وكذلك سأعزف على الارصفة المغمورة بضياء ليلة رائعة ، للذين يغنون أغاني جـــديدة ، للناس الجدد ، والخطوات الجديدة » .

يقول كلود روا : « خلال سجنه الطويل كله ، أصغى ناظم الى اللصوص والقتلة والمهربين الذين كانوا زملاءه ، واعتبر نفسه سعيدا برغم المحنة التي هو فيها ، وكان يقول ان شيئا لن يمنعه من انجاز عمله كثوري وشاعر » .

« وقد رأى ناظم عند أحد الاطباء في بودابست قلبا انسانيا في وعاء

زجاجي ، فكتب ذلك المساء : « هل جاءه الموت من انسداد شريان أم من الحب ؟ » . وظل الجواب معلقا ، ولكن الذين يقرأون رسائله وهو في السجن ، او قصائده المكتوبة في تلك الحقبة ، رسائله المكتوبة الى كل واحد منا ، وكذلك قصائده المكتوبة من اجل كل واحد منا ، لن يتساءلوا مم مات ناظم بعد ذلك في الثالث من حزيران ١٩٦٣ ، انه لم يمت الا من الحب ، حب الانسانية العظيم » .

وهذا الحب الذي هو بحجم الانسانية ، قد كان زاده طوال اثني عشر عاما ، قضاها وهو يجاهد للانفكاك منها ، دون أن يقع فريسة لليأس ، ودون أن يعرف التخاذل الى روحه سبيلا .

لقد كان معتداً بنفسه ، ونادرا ما ينوء تحت وطأة الظروف الرهيبة من حوله . وكان السجن قاسيا ، الى درجة نقشعر لها ونحن نقرأ كلمات رشيد كمالي هذه :

« يبدأ الصباح في السجن بثقل رصاصي ، ويحلّ الظهر ايضا بثقل رصاصي ، ويأتي المساء رصاصيا كذلك ، وعن بعد تترامى ضجة الاصوات ، وصافرات رجال الحرس تنعكس بصوتها الحاد على جدران السجن العادية، الباردة ، ثم يعلو صرير الابواب الحديدية الموصدة على الزنزانات ، كما تسمع قعقعة أقفالها من الخارج لساعات طوال . لقد ضاعت نوافذ الزنزانات في الظلمة الحالكة ، وانسحبت الايدي والارجل من الممرات ، وامتلأت عيون « رجال بلا نساء » بالحسرة ، وطال ليل السهاد فيها » (١) .

وفي جو كهذا ، خلال سجنه في بروصه ، شرع ناظم بكتابة اشعار الساعة ٩ ـ ١٠ كل ليلة . كان يبعث بها الى كمال طاهر ، ويطلب رايه فيها، ويحمل هذا الراي الى بيرايبه التي كانت الاشعار موجهة اليها في الاصل :

عيون حبيبتي من الفيروز ،
فيروزية .
وهالاتها خضر ،
عسجدية .
واطيافها زمرد أخضر ،
على رقيق من الذهب .
ما قولكم أيها الاخوة

---

(١) اورخان كمال ، المصدر السابق .

انا اشيخ هنا ،
وهي هناك ،
وتسعة أعوام ، يدها لم تلامس يدي ،
يا حبيبتي ، لقد انحنى عنقك الابيض الممتلىء
لكن يستحيل علينا أن نشيخ .
تلزمنا كلمة أخرى لهذا الجسم الذي يذبل .
لان الشيخوخة ، هي أن نحب انفسنا فقط .

وفي ربيع ١٩٤١ يكتب الى كمال طاهر قائلا :

« بيرايبه وصلت . أرغب ان أكرر لك ذلك دون انقطاع . لن يكـون بامكاننا ان نصنع اي شيء اذا لم نكن قادرين على أن نكـــون محبين ، وكل الرجال العظام الذين أحبهم وأحترمهم كانوا محبين .. لم يكونوا متيميـن بالعدالة فقط ، ولم يكن الحب هنا بالمعنى المجرد ، العام ، كلا ! لقد احبوا امرأة بلحمها وعظمها وروحها ، انا فخور بأن أشبه رجالي العظماء من هـذا الجانب على الاقل » .

وفي حزيران ١٩٤٦ يكتب له ايضا :

« انني أحب بيرايبه وهي تحبني منذ أعوام ، هـــذا ليس قصة حب بالطبع . الامر لا يتعلق ، لحسن الحظ ، بشيء بهيمي من هذا النوع . ان فيه حب الام والاخ والاب ، وفيه الصداقة والاخوة الانسانية ، لكنـه ليس رواية ، أو علىالاصح ليس ميلودراما ، بل رواية حقيقية، واقعية ، حية » .

ولو أردنا أن نستخلص جوهر هذا الحب الغريب ، لا لكونه بين سجين وطليقة فقط ، ولا لأنه دام عشر سنوات عـــذريا ، روحيا ، فحسب ، بل الاهم ، لانه كان حبا ينطوي على فكرة مشتركة ، على قضيـــــة لكل من المحبين ، تحققت فيها قولة القائل : « الذين يسمعون كلامي ويؤمنـون بي هم أحبائي واخوتي » .. لو أردنا ذلك لعرفنا ان القضية وحدها ، حيـن تكون في نبلها الانساني سامية الى هذه الدرجة ، تستطيع أن تصنع حبـــا نبيلا وساميا بهذا المقدار ، ومن هنا يمكن ان نفهم لهفـــة ناظم ، وحزنه ، وكذلك شوقه وفرحه ، والحرارة التي تنطوي عليها قصائده الموجهة الـــى بيرايبـــه :

في الخريف ،
تصبح الايام قصيرة اكثر فاكثر ،

وستبدأ الامطار عما قريب ،
وبابي ينتظرك على مصراعيه ،
فلماذا أتيت هكذا متاخرة ؟
على طاولتي ، الفليفلة الخضراء ، والملح ، والخبز ،
وفي الدنّ النبيذ الذي خبأته لك ،
وشربته الى النصف ،
وكنت انتظرك .
ها هي الثمار ملأى ، على اغصانها ،
ما تزال .
ناضجة سادرة ،
ولو تأخرت بعض الشيء أيضا ،
لسقطت من نفسها .

. . .

رايتك في الحلم ليلة امس
وكأنك تجلسين على ركبتي
فترفعين رأسك اليّ وتديرين عينيك ،
الواسعتين ، العسليتين .
لم أسمع همس شفتيك النديتين اللتين ،
تنفرجان وتنطبقان ، ولكن ،
كنت أسمع في جوف الليل دقات ساعة في مكان ما ،
وكانها بشير صباح ،
وأسمع في الهواء وشوشته السرمدية ،
واغنية طير كناري في قفصه الاحمر ،
وصوت البذار يشق التراب ، ويرتفع في حقل محروث ،
ويطرق سمعي صدى زئير ،
جموع منتصرة .
كانت شفتاك الدافئتان تنفرجان وتنطبقان ،
دون ان أسمع لهما همسا .
وأفقت مذعورا
فقد كنت اغطّ في نوم عميق ،
منكبًا على كتابي .

وتساءلت :

الا يمكن ان يكون صوتك كلّ هذه الاصوات ؟

ان الحب الكبير ، الجدير بانسان كبير ، هو الذي يعطي صاحبه هذا التواصل الروحي رغم الفراق الجسدي ، ويتيح له أن يكون سلوة وعزاء وسببا من أسباب الصمود . وعلى امتداد أعوام السجن لم يستطع الفراق ـ امتحان الحب الصعب ـ أن يقهر الشوق ويرتد به الى وراء في صدر ناظم وبيرابيه ، وكما يقول ، لم يكن حبا منسوجا من قصة حب ، بل كان حبا واقعيا ، يوفر لنا مادة قصة غريبة وماجدة في آن . الرجل العظيم يحب حبا عظيما ، وناظم فخور أن يشبه العظماء من هذه الناحية ، فهو ، اضافة الى مشاغله في السجن ، يجد في حب منوّر شغلا شاغلا ، بل يجد في المرأة ، شريكة قضية وزميلة نضال « تعلو على المفاهيم البورجوازية لحياة الدعة والخمول » . « انه يريدها مناضلة لا تستسلم للمغريات الخادعة ، ولا يقعد بها حب الترف عن أن تكون شريكة لرجلها المناضل » .

« كان ، بكلمة أخرى ، يريد المرأة الا تخاف الحياة ، وأن تواجهها بشجاعة ، فلا ترهب الموت اذا كان مصير الوطن يتطلب التضحية . وهو لا يزعم ان المرأة لا تخاف ، أو يجب ألا تخاف ، ولكنه يرى انها قادرة كالرجل تماما ، أن تتغلب على خوفها اداء لواجبها ، حين يفهم الرجل الدور الخطير الذي يمكن أن تنهض به ، ويكفّ عن النظر اليها كتحفة يخشى ان تنكسر ، وقاصرة تتوجب حراستها وحمايتها ، وحين يشركها في اداء الواجب المقدس ، ويضع مسؤولية الوطن امانة في يديها كما هي امانة في يديه » (١) .

ناظم يحب بيرابيه ، ويرى فيها « مغامرة السفينة المبحرة الى قلب القطب ، وجسارة أصحاب الاكتشافات الكبيرة » ، ويحب فيها البعيد والمستحيل ، ويتسلل الى عينيها كما يتسلل الى غابة تغمرها الشمس ، ولا يخلد معها الى اليأس لانها « عبوديتي وحريتي ، لحمي الذي يحترق كلحم ليالي الصيف العاري » .

كانت تقدم له المساعدة التي تستطيعها ، وكان يعطيها ما يحصل عليه من ثمن الكتب والترجمات ، وينتظر زياراتها بفارغ الصبر ، ويحلّ رأيها في شعره ، وفي كتابات كمال طاهر ، محل الاعتبار والتقدير . وكانت هي

---

(١) الدكتورة نجاح العطار : « المرأة في شعر ناظم حكمت » ، الموقف الادبي ـ تموز ١٩٧٥ .

« حساسة وذكية وقديرة ، وفي رسالة جاءته منها أخبرته انها لا تستطيع شراء الحطب في الشتاء ، وانها سوف تداوي ابنتها المصابة بالسل بما توفره من ثمنه » ، فحزن ناظم لذلك الى حد البكاء .

ويعلق أورخان كمال قائلا : « كنت على اقتناع تام بأن بيرايه امرأة مفكرة ومدبرة ، وانها ما كتبت تلك الامور اليه الا لانها كانت في حاجة ماسة . لهذا بدا ناظم تعبا ، مشغول الذهن ، وبعد تجوال طويل ، قال : « لقد عانيت الكثير في هذا السجن ... بقيت على وجبة واحدة أربعا وعشرين ساعة ، ولا أذكر انني انزعجت كهذا اليوم » .

« كانت بيرايه (١) تأتي مرتين أو ثلاثا في العام لزيارته ، فاذا كانت تملك بعض أعمال مكثت ثلاثة أو خمسة أيام في الفندق ، ولا بد لها ، في هذه الحال ، من مشاهدة ناظم ، وحالما تنزل من القطار ، وقبل أن تنفض عنها غبار السفر ، تسرع الى الهاتف ، ثم تصل السجن فتجري بعض المعاملات الشكلية ، وتجلس مع ناظم في غرفة رئيس الحرس أو غرفة مدير السجن .

وكان ناظم يكنّ لها احتراما لا حدّ له ، ويحبها حبا يختلف كليا عن حب أي انسان لزوجته ، وكانت رسائله اليها ملأى بالشاعرية والبساطة والاخلاص ، بشكل يدخل الفرحة الى القلوب ويجعل المرء يحب الحياة ، ويغير الجو في أحلك الاوقات ، ويعطي تجديدا ونضارة . وكانت هي بسيطة وذات ارادة ، ولكونها زوجة « شاعر كبير » ، وتعرف ان زوجها سيكون له شأن تاريخي ، فانها كانت تبدو سعيدة ، رصينة ، ذات حديث موزون ، بينما ناظم يتكلم بمرح ، ويغرد أمامها بشعره كبلبل » .

« كانا يجلسان متقابلين ، فتبدو بيرايه جدية ثقيلة الراس ، بينما يتحدث ناظم اليها بعفوية ، مستعينا بحركات يديه وذراعيه ، ولا تفارق عيناه وجهها ، وكانا يبدوان كمعلمة وتلميذ ، وهو يعتبر نفسه اسعد انسان في العالم ، اذ يسمع اليها تتحدث عما تحمل من أنباء جديدة » .

ويصف اورخان كمال حال ناظم حين يعلم ان بيرايه ستزوره فيقول : « كان يبدو شديد الحماسة ، موفور النشاط ، يكوي ملابسه في الليل ، ويخرج حذاءه الكرزي من تحت السرير فيصبغه ، وفي الصباح الباكر ينزل ويحلق شعره ، وينتهي من كل هذه الاعمال وأنا ما زلت في الفراش.

---

(١) « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » في السجن .

« وذات مرة بدا ناظم منفعلا ، فقد اتصلت به بيرايه التي جاءت لزيارته ، وابلغته انها لن تبقى سوى يوم واحد ، وستعود في المساء . القضية مالية ، فقد كانت في عوز شديد .

« استيقظ في الساعات الاولى من الصباح ، وبعد قليل كان جاهزا يقضم شاربيه ، ويسحب الانفاس من غليونه بعصبية وانزعاج ، وهو يتجول بخطوات قصيرة على ارض الزنزانة الاسمنتية ، ولما جاءت زوجته ابلغوه ، فنزل ، وبقي معها الى المساء ، وفي الليل ، جاءني وهو في حالة غريبة من شدة الحزن والقلق ، القى بغليونه فوق الفراش ، وخلع ثيابه ، وهو لا يرغب في ذلك ، ولبس منامته ذات الخطوط الحمر ، واسند راسه على حافة النافذة وقال : « الله . لقد انتهت ست سنوات » . واضاف بحيوية وعيناه الزرقاوان تلمعان بشدة : « أتعلم ما اشهى شيء لديّ الآن ؟ ان اكون في استانبول وفي بيتي ، في بيتي الذي شيدته بيديّ ووفق ذوقي ... وفي الليالي ننزل أنا وزوجتي وابني محمد الى حانة قريبة لا نعرفها ، ونجلس أنا وزوجتي متقابلين نشرب الخمرة ، وابننا ياكل من المازة فوق طاولتنا » .

غير ان هذه اللحظات من الحزن والقلق ، قليلا ما كانت تمرّ بناظم الذي يعرف ان يعطي لكل شيء حقه . كان قلقه ناجما ، في اكثره ، عن انباء سيئة من رفاقه السجناء ، ومن زوجته وامه واخته ، ومن الاخبار العامة أيضا ، فقد كان يصغي الى كل ذلك ويحسّ وقعا معذبا في نفسه لأي نبأ عن مرض أحد الرفاق ، او حاجته الى المال ، فيعمد الى ارسال ما معه من نقود ، او يستدين أي مبلغ ويبعث به ، ويعمد الى كتابة الرسائل والاشعار ، ويوزع على هذا النحو طاقته الزاخرة بالحب الانساني ، ويضع فلسفته عن العمل المتواصل في السجن موضع التطبيق .

لقد عمل في سجن تشانكيري في زخرفة اطارات المرايا ، وفي الرسم ، وعمل في سجن بروصه بالحياكة ، وهو يكتب عن ذلك الى صديقه كمال طاهر متحمسا ، ويحيك له قطعة قماش ، من القطن والصوف ، لكي يلبسها في الشتاء ، كما يحيك القمصان الحريرية ويبرع فيها ، حتى ان عابدين دينو يقول عنه انه « كوّن فنا غير نمطي ، واشعارا جديدة ، واقمشة جديدة » ، « ونسيج للقميص ، ناعم جدا ، نصفه حرير ونصفه قطن ، وهو من ابداعي الشخصي » . « حريريات بروصه ، التي هي بلد الحرير ، وقفت فاغرة فمها » . « لقد كوّنت معملا ديمقراطيا للحرير ، وايضا يمتص العرق » . ان ناظم حكمت بكليته في هذه العبارة ، فهو ينسج الحرير في

السجن ، بالشغف نفسه الذي يؤلف به أشعاره أو يشتغل بالسياسة أو يهتم بالعصفور ، اذ ان كل شيء لدى هذا الحائك انعجيب مسألة درجة » .

فكرة انوال النسيج كانت فكرة ارتفرول . جـــاء الى ناظم قائلا : « يا أستاذي ، ماذا لو نشتري مناسج نعمل عليها ، وعندما يخرج المرء من السجن يمكنه أن يبيع منسجه بسهولة ؟ » .

« منذ تلك اللحظة ــ يقول أورخان كمال ــ بدأ ناظم يدرس القضية ، ويعطي لكل جانب فيها ابعادا واسعة . ثم قام وتمشى طويلا ، واضعــا الفليون في فمه ، والمعطف الثقيل على ظهره ، فقد لقيت الفكرة لديه صدرا رحبا ، وفي الايام التالية قابل مدير السجن والــكاتب ، وشرع يجمــع المساعدات من السجناء ، وبدأ العمل ... » .

« بعد عدة أيام وصلت ثلاثة أجهزة نسج الى السجن ، ولقينا صعوبة في ايجاد الغزل ، ولهذا كنا نعطي كل جهاز ربطتين . وكان ناظم لا يحتمل نفسه من الفرح ، فهو يتم العمل معنا كما في المعامل ، حيث الاجهزة تدور كهربائيا وتسمع قرقعتها ، كان يركض يمينا ويسارا ، من هذا الجهاز الى ذاك ، يراقب عملها وحركتها ، ويقدم التوجيهات للعاملين على تلك الاجهزة . وكان يخطىء حينا ويصيب حينا آخر ، ويتحدث خلال ذلك عن « الصناعة والتصنيع » .

كنا ننتج الشراشف والفرش والمناشف ، ونسيجــا قماشيا عاديا ، ونسلمها للشركة ونأخذ أجرة النسج فقط . وبعد ان نسلم المواد للشركة ، ونقبض الاجرة ، يتحول ناظم الى محاسب صارم ، يجلس خلف منضدته ، وغالبا ما كان يضع النظارة على عينيه ويمسك بالقلم ويضع الدفتر أمامه ، ويبدأ بالمحاسبة . وقد أصبح اسمه بيننا « الريس » ، لانه كان يدير العمل ويتوسع به ، ويهتم بشؤون جميع العاملين معــه ، ويشرف عــلى الآلات يوميا ... ورغم ذلك لم تشغله هذه الآلات عن الثقافة ، فقد كان يقرأ كل شيء وهو ينسج امتارا بعد أمتار من القماش » .

كذلك لم تشغله الآلات ، ولا القراءة أو الكتابة ، ولا مراسلة السجناء والاهتمام بأحوالهم ، ولامرض ابنه ثم ابنته بالســل ، ولا الرسم أو الحاجة الدائمة الى ما يقي زوجته العوز وبرد الشتـــاء ، ولا المرض وحكم الموت المسلط على راسه ، ان يهتم بالدنيا واخبارها ، وأن يتألم مع ضحايا النازية ، ويفرح مع انتصارات المقاومة ، ويشنق مع النصيرة زويا ، ويستشهد على

الكرسي الكهربائي مع ساكو وفنزيتي ، ويحس اللاحقة مع زوج ترانتا بابو، ويشارك في أحداث الدنيا الكبيرة فيكون له ، في كل ميل من الارض ، من الصين الى اسبانيا ، ومن راس الرجاء الصالح حتى ألاسكا ، اصدقاء واعداء « أصدقاء لم يصافحوني ولا مرة ، لكننا ، قادرون على الموت لاجل الخبز ذاته ، والحرية ذاتها ، والاماني ذاتها » .

انه مع الشعب الفرنسي ، ومع المدافعين ، قبلا ، عن الجمهورية في اسبانيا ، ومع الحارس الواقف على أبواب مدريد ، حيث « ثلج يتساقط في الظلام ، وانت على ابواب مدريد ، وامامك أجمل أشيائنا : الامل، والحنين، والحرية ، وامامك اقبح الاشياء : جيش يقتل الاطفال :

الثلج يتساقط ،
وربما تتجمد قدماك المبتلتان ،
هذا المساء .
الثلج يتساقط ، وبينما انا افكر فيك هذه اللحظة ،
قد تخترقك رصاصة ،
فلا يبقى ثلج ،
ولا ريح ،
ولا ليل ،
الثلج يتساقط ،
وانت الذي تصيح « لن تمروا »
قبل أن تنتصب على ابواب مدريد ،
قد كنت موجودا ولا شك ،
فمن انت ، من اين جئت ، ماذا كنت تعمل ؟

. . .

ان القدمين المبتلتين ، اللتين تحرسان ابواب مدريد
في الرياح الباردة ، المثلجة
ترتجفان الآن ، مثل طفلين عاريين .
انا اعلم :
ان كل ما في الدنيا من اشياء كبيرة وجميلة
وكل ما يبدع الانسان من عظيم وجميل
اعني ذلك الحنين الروحي الرهيب في اعماقي
يرتسم في عينيك الجميلتين ،

يا حارسي الواقف على أبواب مدريد ،
لكنني ، لا الامس ، ولا الغد ، ولا هذا المساء ،
بقادر أن أمنحك شيئا سوى حبي .

الايام ثقيلة .. العام ١٩٤١ ، والجيش الالماني يغزو الاتحاد السوفياتي، وناظم ، في السجن ، يتابع المعارك بقلب مجروح ، صائحا : يا لكثرة ما يموت ناسنا ! يا لكثرة ما يموتون ، يموتون وكأنهم خارجون بأغانيهم وافراحهم ، في تظاهرة عيد :

الايام ثقيلة ،
وبأخبار الموتى تأتينا ،
فيجفّ الدمع في مآقينا ،
نضب الدمع في عيوننا
وخلف لنا شيئا من حزن ،
ولم نركع ، بقينا منتصبين .
ولهذا ،
نسينا الوداع ،
فالمكان الذي سنصل اليه ،
تمرّ دروبه عبر سيول الدماء ،
النصر بلغ اليوم حدا لا يعفو معه
عن أي شيء ،
فليقتلع بالظفر ،
ولينتزع انتزاعا .

ان ناظم يعرف عصره ، « الميزة الاساسية للقرن العشرين هي الثورات، حركات التحرر الوطني » . ولكن سورا ينتصب حول العالم ، هو السور الاستعماري ، الذي يلفّ الشرق منحدرا من أزمير الى البحر الابيض ، ومن بومباي الى بحر الهند . وهو يفكر في هذا السور ، مسندا جبينه الى حديد الشباك :

على الشباك الحديدي ،
المنغرز في اطار من الصخر الاسود ،
المبدد للشمس ،
أسندت جبيني ،
فغاص في الحديد ،

وتمزّق الجبين العظمي العريض .
ومنذ اسندت الى حديد الشباك ،
جبيني ،
اصطبغ بالدم ،
وجهي .
ان ذاك الدم ، دمي .
عيناي تريان الاشياء خلل الستار الدامي ،
من المشبك الحديدي ،
المفروز في اطار من الصخر الاسود ،
المبدد للشمس .
هناك في ذلك السور ،
وفي اعماق ذلك السور ،
كبلوا أيدي رفاقنا ،
شادوه من أجلنا ،
ذلك السور ،
انه يلمع مثل حبال المشانق ، المدهونة بالصابون ،
ذلك السور ،
وفي ذلك السور ،
اسنان عفنة ،
مسوسة ،
لها من الحدة ما تمزق به اللحوم الطرية ،
الدامية .
ذلك السور ،
و « قساوسته » المختنقة عيونهم بدخان الافيون ،
وعلى ظهورهم حزامهم الاسود ،
يلتفّ على خناق الكرة الارضية .
ان اول حجر وضع في اساس ذلك السور ،
هو اول خطوة خطتها الملكية الفردية .
في اعماق ذلك السور ،
ترتفع عظام رفاقنا ،
كابراج الفيل .
احد اطراف ذلك السور ،

في محاريث الصين الخشبية
والطرف الآخر فولاذ مكهرب ،
في جوف نيويورك ،
وله قسائم سندات ،
في كل مصرف .
ذلك السور ،
وفي مجلس اللوردات ، تمرّ نكات اللورد كرزون
كنطق موشح بشعار امبراطوري .
انه يختار رصيده من فوق برج ايفل ،
ممسكا شوارع برلين ،
وهو يتوكأ ،
على هيكل هندنبرغ المرصع بالذهب .
وموسوليني ، ذو الثوب الاسود ،
ينتظر دوره ، لاحسا بلسانه ،
أحجار ذلك السور ،
وجزمة ايطاليا عائمة ،
بدم يفور ،
ذلك السور ،
المرتفع كبلقان ثان في البلقان ،
ذلك السور ،
ذلك السور ،
وفي أعماقه يخرّ رفاقنا مجندلين بالرصاص ،
ذلك السور ،
وفي كل شبر من اغواره ،
ملحمة طويلة تطارده .
والذين يموتون في أعماق ذلك السور ،
تنتزع رجولتهم لتكون طعما ،
يجدد شباب أصحاب الملايين .
ان هؤلاء ،
واجسادهم غائصة في المهر ،
يستمتعون وهم يصغون الى صوت الرصاص وصرعاه .

هذا الحقد الراعف في الكلمات ، هو حقد المناضلين والضحـايا على السواء . ان المباشرة ، هنا ، ليست صراخا بل تعبير فني ، تحلو شاعريته باللغة التركية ، ويعرف ناظم كيف يوظف هذه الاداة في الدفقة الشعريـة الهادرة بين السطور .. وهذا السور الامبريالي الـــذي عرفناه جميعا ، وكانت ثوراتنا وضحايانا بسبب منه ، يفضحـــه ناظم ويعريه ، ويفجر كل طاقة الغضب ضده في صدر القارىء الذي يستشعره سلسلة حديديـة تلتفّ حول عنقه لتخنقه .

وربما كان حقد ناظم أشد عنفا ، لانه ضحيته الراسفة في الاغـلال ، الضحية التي ترى من وراء القضبان الى امتداداته وآثامه ، والى الجرائـم التي يرتكبها بحق الشعوب ، ومنها شعبه التركي .

وعندما ، في أواخر العشرينات ، بدات تتلامح موجة الفاشية المقبلة ، التي تعدّ لها البورجوازية الالمانية ، وتباركها بورجوازيات البلدان الغربية ، كان ناظم يرصد هذه الظاهرة ويستشعر خطرها بحدسه الشاعري ، وقد ادانها فيما بعد بقسوة في قصيدته « ساكو وفانزيتي » .

لقد انتهت هذا العام ، ١٩٧٧ ، وبعد خمسين سنـــة من وقوعها ، حادثة هذين العاملين المهاجرين ، وقرر مجلس ولايـــة ماساشوسيتس براءتهما من التهمة الموجهة اليهما في محاولة لرفع الظلم الذي ذهبا ضحيته، ولكن وصمة العار التي لحقت بالعدالة من جراء ذلك ستظل محفورة فـــي ذاكرة الاجيال التي تعرف ان البورجوازية ، في تحالفها مع الفاشية ، هي التي دفعت الى هذه الجريمة النكراء .

ان نيقولا ساكو وبارتومير فانزيتي ، اللذين فرّا من الفقر في ايطاليا في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، ولجآ الى الولايات المتحدة ، كانا مـــن أنصار السلم وضد الحرب ، وما كانا يخفيان ذلك ، وقد اتهما بأنهما قتـلا رجلين خلال عملية سطو ، وحكما بالموت على الكرسي الكهربائي ، وتبيـــن بوضوح خلال التحقيق والمحاكمة ان الحكم صدر سلفا عليهما ، لان القاضي الاميركي وبستر تاير الذي حاكمهما أعلن عداوته العلنية لهما ، وبعد صدور الحكم قامت مظاهرات الاستنكار في كافة أنحاء العالم ، وطيرت برقيـات الاحتجاج ، وقدمت طلبات الاسترحام ، وأعلـــن البرتغالي سالستينـــو ماديروس الذي كان يحاكم بجريمة قتل انه هو وأربعـــة من رفاقه قاموا بعملية السطو ، وان ساكو وفانزيتي بريئان ، غير ان المحكمة العليـــا في الولاية صدقت الحكم ونفذ بهما الاعدام على الكرسي الكهربائي .

يبدأ ناظم قصيدته بمقدمة يقول فيها (١) :

العبرات كبيرة حارة ، تنحدر على خدودنا النحاسية ، العبرات كبيرة وحارة ، تنحدر الى قلبنا :

وقلبنا غدا ، باحساسه يضايقنا
فلننزع عن جراحنا ،
ضماداتها السميكة ، الدامية ،
ولنصرخ في الشوارع ، بصوت واحد ،
كلبوة ،
يبقر صدور أطفالها خنجر ذو مقبض أسود ،
كلبوة ،
نحمل بأسناننا أطفالنا ،
ذوي الرؤوس الذهبية ،
وقد ضفرنا على جبين حقدنا الاصفر ذي العين الحانقة
ضفيرة ورد من الحب الابيض ،
فيما الكائنات بلون الدم من حولنا
العبرات كبيرة ، حارة ،
تنحدر على خدودنا ،
العبرات ، كبيرة ، حارة ،
تنحدر الى قلبنا .

ثم يروي ناظم حكاية هذين الشهيدين المبكرين للثورة العالمية قائلا :

لم يكن في جيبهما بطاقة فرقتنا
كانا شابين شريفين نقيين
يحلمان بالوصول الى الخلاص ،
عن طريق المغامرات الفردية .
لم يكن في جيبهما بطاقة فرقتنا ،
بل كانا مجرد جنديين للثورة ،
جنديين شريفين من جنود الثورة ،
وكان يشتعل في دمهما الشوق الى شمس ايطاليا ،

---

(١) « الناظرون الى النجوم » ، ترجمة ثابت العزاوي .

فهبا مسرعين ،
بجبهتين سمراوين نقيتين ،
يلبيان نداء الحياة .
وقاتلا مع زملائهما ،
الذين يقاتلون قربهما ،
وسقطا ، في الدنيا الجديدة ،
ضحيتين للظلم القديم .
ووقفا ،
سبع سنين وقفا ،
باسمين أمام الموت ،
وجلسا على الكرسي الكهربائي ،
كأنهما يجلسان على أريكة من مخمل ،
وصمد قلباهما سبع دقائق ،
لضغط تيار قوته ،
اربعة آلاف « فولت »
والتهب قلباهما ،
سبع دقائق التهب قلباهما ،
وما كانا مجرمين بل ضحية اجرام ،
ضحية عدالة في امرة الدولار ،
فاذا لم يكن ،
جنديا الثورة هذان ،
مرشدين للجماهير في حياتهما ،
فقد رفعا ، بموتهما ،
الجماهير الى أوج العظمة .

بعد ذلك يستخلص ناظم مغزى الحكاية قائلا :

البورجوازية قتلت اثنين منا ،
أماتت اثنين لن يموتا ، منا ،
البورجوازية دعتنا الى المعركة ،
وقد قبلنا الدعوة ،
فنحن ، كما نعرف ان نضحك بفم واحد ،
نعرف أن نحيا ونموت كواحد ،

كلنا ــ من أجل واحدنا ،
واحدنا ــ من أجل كلنا . . .

وكما نرى فان موت ساكو وفانزيتي ، على فجيعتـــه ، لا يتخذ شكل فجيعة نواحية في شعر ناظم ، يثير فيه روح التحدي ، يجعله يعلن قبول الدعوة الى المعركة ، ليس بين النجوم ، حيث بدات مغامرة الشعر ، بل على الارض حيث ستبدأ ، وهو في سجن تشانكيري ، المعركة الكبرى بين النازية والاشتراكية ، وحيث سيقف العالم مروّعا أمام الاجتيـاح الهتلري لاراضي الاتحاد السوفياتي ، ويحسب الناس ان الحق في سفر لن يرجع منه ، وان الباطل قد تربع على مائدة نثرت عليهـــا جثث الشعوب ، فالوحش الذي انشب مخالبه في دول أوروبا ، فمزقها وابتلعها واحدة اثر الاخرى ، لـن يلبث ان يمزق أوصال بلد الاشتراكية الاول ، ويصرعـــه ويشرب دمه في قصعات من جماجم أبنائه .

قلة من الناس ، باستثناء المنـــاضلين المؤمنين بقضيتهم ، ظلوا على شيء من أمل . وكان ناظم من هؤلاء ، وعليه ، وهو بين الجدران ، أن يتلقى أنباء المعـــارك والهزائم ، ويتابع زحف الجيـــوش الالمانية داخل الاتحاد السوفياتي ، ويستمع الى تبجحات هتلر ، وينطوي على ألم مضاعف ، ألم الذي لا يستطيع ، وهو يرى قضيته تحت مدية الجزار ، ان يدفع عنهـــا بأي شكل من الاشكال . كـــان يبكي من الغضب ، تعيسا ، مفجوعا ، لكن بغير يأس ، وكان يقرأ انباء بطولات الشعب السوفياتي ، ومفاداة الانصـــار وراء خطوط الجبهة ، فيلتهب حماسة ، ويفور فيه الحقد ، فيرسم صـــور هؤلاء المناضلين ، ويرفعهم ، في نفسه ، الى مراتب القداسة ، وحين قرأ قصة زويا ، النصيرة السوفياتية التي أعدمهـــــا الالمان ، رسم لها صورة شعرية تخلد البطولة الانسانية على مدى التاريخ .

هذه الفتاة القروية التي قامت بقطع اسلاك الهاتف وحرق مستودعات العدو ، اعتقلت وعذبت حتى الموت . كانوا يضربونها بالسياط ، ويسألونها عن أسماء رفاقها من الانصار فتلوذ بالصمت ، أو تقـــول : « لا أعرف » ، ولا يجيد صوتها غير كلمة : « لن اقول ، لن أتكلم » ، وفي لهاتها كبريـــاء تختنق لشدة الالم . وبعد أن يئس الجلادون منها ، اخرجوها شبه عارية ، وجرّوها على الثلج ، وأعدموها شنقا في باحة القرية ، وتركوها معلقـــة لارهاب الفلاحين .

لقد خلّد أدب الحرب السوفياتي قصـــة زويا التي « نحتت للمرأة

المقاومة تمثالا من اندر المعادن وانبلها » (١) . وكتب ناظم قصيدة رسم فيها كل مراحل نضالها واعتقالها وتعذيبها ، وكيف « أخرجوها من غرفةالتعذيب حاسرة الرأس ، شفتاها متورمتان ، والدماء تسيل منهما لشدة ما عضت عليهما ، ويداها مقيدتان وراء ظهرها ، وحارس يضع حربته في جنبها ، وجنود غلاظ حولها ، يشعلون الكبريت تحت ذقنها ، وقام أحدهم بطعن صدرها بسكين ، فسال الدم غزيرا منه » (٢) ، وهي تنظر صامتة ، تعيش في ايمانها وثباتها ، ومن حين لآخر تتذكر امها ، كتبها ، وصورة ايلتش حبيبها ، وزهورا زرقاء ، وطفولتها .

ويذكر ناظم ، بشعر زويا ، شعر ابنه محمد ، وبوطنها وطنه ، وبعذابها على أيدي الفاشية عذابه على أيدي الفاشيين ، ويستهل قصيدته بنبرة هادئة حزينة لا تلبث أن تتوتر وتتوهج :

في أوائل كانون الثاني (٣) ،
في ظاهر مدينة فيرابا
أعدم الالمان
فتاة نقية كالثلج
في الثامنة عشرة من عمرها .
نصيرة ،
من موسكو ،
أحبت ، فهمت ، آمنت ،
وانخرطت في الحركة .

. . .

ها هي ذي تتأرجح على حبل المشنقة
تتمثل فيها عظمة الانسان .
وكما نقلّب بشغف
صفحات « الحرب والسلم »
كانت يداها في الظلمة
تتحسسان اسلاك الهاتف

---

(١) الدكتورة نجاح العطار : « المرأة في شعر ناظم حكمت » .

(٢) المصدر السابق .

(٣) نقلا عن مجلة « الطريق » ـ مجلد عام ١٩٦٣ ، دون ذكر اسم المترجم .

لتقطعاها ،
أو تحرقا مستودعات العدو .
اعتقلت في اليوم الثاني
قبل انجاز عملية جديدة
وعلى حين غرة .
كانت النجوم تسطع في السماء
وقلبها الفتي يخفق بهلع
ويدها المضطربة تحمل البترول .
انقضّ عليها الاعداء
ساقوها ،
أودعوها غرفة صغيرة
كيسها على كتفها
على راسها قبعة الفرو
على جسمها معطف طويل
يغطي فخذيها بنطال من القطن
تنتعل جزمة ثقيلة .
دنا الضابط منها
وكما ترقد اللوزة في قلب السكرة
كانت زويا داخل ثيابها الشتوية .

. . .

الشاي يغلي في السماور
وفوق الطاولة مسدس
وخمسة سياط
وزجاجة كونياك
وفتات من خبز ولحم الخنزير

. . .

طرد الضابط صاحب البيت الى المطبخ
حيث تفوح رائحة عفنة
وتجثم ظلمة رهيبة .
كان هو وزوجته وعجوز
بعيدين عن العالم

يسمعون من خلف الجدار
من الغرفة الاخرى
كلمة : لا اعرف
يسألونها فتصرّ على الجواب نفسه :
ـ لا اعرف
يسألونها :
ـ لا اقول ..
يسألونها ،
ـ لا أعرف ، لن أقول ..
كان صوتها لا يجيد غير هذه الكلمات ..
وهوى سوط على جسمها الغض
لكن النصيرة صمتت ايضا
وسمع من في المطبخ من جديد
صوت لسع السياط
تتهاوى على ظهرها
كالافاعي تحت أشعة شمس محرقة .
ودلف احد الضباط الى المطبخ
وجلس القرفصاء ،
وسدّ أذنيه براحتيه
واغمض عينيه .
هكذا جلس هناك
لكن التعذيب لم ينته .
كان أهل الدار
يحصون عدد السياط
ـ مئة ... مئتان ...
واعادوا الكرّة ،
يسألونها فتجيبهم :
ـ لا أعرف ..
يسألونها فتجيبهم :
ـ لن أقول ..

في صوتها كبرياء ،
وان كان يختنق في حلقها .

. . .

اخرجوها من الغرفة
كان راسها مجردا من القبعة
وجسمها عاريا من الثياب
وشفتاها متورمتين
لشدة ما عضّت عليهما ،
تسيل منهما الدماء .
وكانت يداها مقيدتين الى وراء
وقدماها على الثلج .
النصيرة تتقدم ،
يقودها حارس براس حربته
باتجاه الحظيرة .
طلبت ماء فرفض الحارس
وتحلّق حولها كالجراد
جنود غلاظ يصفعونها
ويعذبونها
أشعلوا الكبريت تحت ذقنها
وخدش احدهم جسمها
بموسى كانت في يده
فتبللت بالدماء .

. . .

ذهبوا ليناموا
وساق الحارس النصيرة الى الشارع .
كان طفل صغير
ينظر اليها من خلف النافذة
في جليد الشتاء
ونجوم الليل .
كان طفل أزرق العينين
يطلّ من النافذة

وغدا عندما يشبّ
ويتزوج
في احدى ليالي الصيف
سيرى امرأة عارية
تسيل منها الدماء ،
وهي تسير على الثلج .

. . .

وتحت الثلج المتساقط بكثرة
تحت الثلج كان الشارع المقفر
وفوق الثلج كانت النصيرة
كانت قدماها حافيتين
ويداها مقيدتين الى وراء
وشعر الحارس بالبرد ،
واستمرت الحال كذلك ،
من الساعة الثانية والعشرين
حتى الساعة الثانية صباحا ،
اربع ساعات كاملة ،
تبدّل بعدها الحارس
وظلت النصيرة ،
فوق المقعد الخشبي ساكنة
تعلم انهم سيعدمونها

. . .

كانت تنظر الى قدميها الحافيتين
المتورمتين ،
المتجمدتين ،
الحمراوين ،
وكما كانت تسكن جلدها ،
كذلك كانت تعيش في ايمانها وثباتها
ومن حين لآخر تتذكر امها ،
كتبها ،
وصورة ايليتش حبيبها ،

وزهورا زرقاء .. وطفولتها .
كل ذلك كان قريبا منها
حتى الوان ثيابها القصيرة
كانت كأنما تمسها بيديها .
وقصف القنابل الاولى
وقوافل العمال الذاهبين الى الحرب
ينشدون الاناشيد .
ومن حين لآخر
كانت تسمع صوت حافلة ،
ودّعت فيها أمها ،
وتذكرت أصدقاءها الكومسموليين
واستجوابها وهي تقول :
ـ لا .. لا أعرف ..
ـ لا .. لن أقول ..
حتى اسمها : زويا
فقد قالت لهم انها تدعى تانيا .

. . .

تانيا !
انا أحب وطني
انت كومسومولية (...) شابة
وانا (...) في الثانية والاربعين
انت روسية
وانا تركي ..
لكننا ..
شنقوك من أجل حبك لوطنك
وانا في السجن ،
لم تعيشي سوى ثمانية عشر عاما
لم ترتوي من اشعة الشمس .

. . .

تانيا !
انت صغيرة أعدمت

وانا شاعر سجين
انت ابنتي ،
أنت رفيقتي ،
انحني فوق رسمك :
حاجباك دقيقان ،
وعيناك كلوزتين ،
لكنني لا أستطيع أن أتبين لونهما ،
ومما كتبوه عنك
استطعت أن أعلم
انهما عسليتان
بلون عيون بنات بلادي
تانيا !
كم هو قصير شعرك
كشعر ابني محمد ،
وجبينك ،
كم هو عريض
يهب نفسي الطمأنينة ،
ووجهك دقيق الملامح
وعنقك يشبه عنق طفل ،
تتدلى من رقبتك ربطة ملونة .
لقد تحلّق رفاقي يتأملون رسمك
ـ تانيا !
ان لي بنتا بعمرك
ـ تانيا !
ابنة أخي بعمرك .
ـ تانيا !
حبيبتي بعمرك .
ـ تانيا !
البنات اللواتي في مثل سنك
في المدارس
والمعامل
ـ تانيا !

لقد أعدموك ..
كم أعدموا اناسا شرفاء مثلك .
وكم يعدمون
وأنا منذ سبع سنوات
في اعماق السجن !

. . .

الساعة السابعة صباحا
تانيا ترتدي ثيابها
لم يسمحوا لها أن تنتعل جزمتها
واحضروا كيسها
كان فيه بترول وثقاب
رصاص وملح وسكر
علقوا الزجاجات حول عنقها
وكيسها حول خصرها
وكتبوا على صدرها
ـ نصيرة ـ
وجلبوا اهل القرية بالقوة .
اصعدوها فوق صندوقين
صندوقي معكرونة
يتدلى فوقهما حبل
كانت يداها خلف ظهرها
نحيفة وطويلة
جعلوا الحبل حول عنقها
وضابط يهوى التصوير
في يده آلة كوداك
التقط لها صورتين .

. . .

خاطبت تانيا الكولخوزيين :
ـ يا رفاقي .. لا تحزنوا
لا تستسلموا للفاشيست .
صفعها الماني على خدها

فسال الدم من ثغرها
قالت :
ـ نحن مئتا مليون انسان
هل بوسعكم أن تشنقونا جميعا ؟
اجل ، تستطيعون اعدامي
ولكن يجب ان تستسلموا
قبل فوات الاوان .
لا تدعوا الفرصة تفوتكم .
وبكى الكولخوزيون ،
وقبل أن تخمد أنفاسها
قالت :
ـ أودعكم رفاقي
اثبتوا حتى النهاية .

وثبتوا حتى النهاية !

وكان العالم كله ، في اعجاب لا مثيل له ، يتابع هذا الثبات المعجزة ، الذي تكلل بالنصر على الفاشية ، وبسقوط الريخستاغ تحت ضربات الانتقام الحق ، المنطلقة من قبضات كمطارق آلهة العدالة .

وفي عام النصر ، ١٩٤٥ ، يكتب ناظم حكمت الى كمال طاهر قائلا : « اخيرا نحن في عام ١٩٤٥ ، وقريبا سنكون في عام ١٩٤٦ ، واني لأولي اهتماما كبيرا لكفاح الشعوب المستعمرة من أجل الاستقلال . يا لها من جلبة ، يا له من ارتباك ، لكن العالم يتبع طريقه الخاص » .

وعندما ، بعد سنوات ، تشنّ أميركا الحرب على كوريا ، وكان ناظم ما يزال في السجن ، يكتب قصيدة بعنوان « العقدة » يقول فيها :

الام ولدت لي طفلا ،
أحمر دون حاجبين ،
ينام كتلة من لحم تزن ثلاثة كيلوغرامات
في قماطه الازرق ،
وفي الوقت الذي جاء فيه ولدي الى الدنيا ،
ولد اطفال يشبهون عباد الشمس ،
في كوريا ،

لقد ذبحهم « ماك ارثر »
فماتوا قبل ان يذوقوا حليب امهاتهم .
عندما جاء ولدي الى الدنيا ،
ولد اطفال في سجون اليونان
اعدم آباؤهم رميا بالرصاص
فكانت القضبان الحديدية المشبكة ،
اول ما وقع عليه بصرهم من مرئيات .
حين جاء ابني الى الدنيا
ولد اطفال في الاناضول
اطفال بعيون سود وزرق وكستنائية
وما ان ولدوا حتى غزاهم القمل
فمن يدري عدد الذين ينجون منهم ،
باعجوبة .
حين جاء ابني الى الدنيا
ولد أطفال في أكبر بلدان الدنيا
وكانوا ، منذ مجيئهم ، سعداء .
وعندما يبلغ ابني ما بلغت من عمر
اكون انا قد غادرت هذا العالم ،
ولكن الدنيا ستصبح ذات يوم مهدا رائعا ،
مهدا غطاؤه من الاطلس ،
يهدهد فيه جميع الاطفال ،
الاسود منهم ،
والابيض ،
والاصفر .

هكذا ، وهو في السجن ، يظلّ على تماس مع كل ما يدور خارجه من احداث ، يتناولها بشعره دون أن يتحرج خوفا علـى سليقته الشعرية أن تكون صوتا دعائيا وهو يتصدى لمشاكل عالمية ، وحين نقرأ ناظم يتضح لنا انه لم يضحّ بسليقته الجمالية الصحيحة بسبب خوفه من الحركات التاريخية ، بل الامر على العكس تماما ، فقد أمدّته هذه الحركات التاريخية بكثير من المواضيع ، والصور ، والزخم الشعري ، وكان يعرف أن يستخرج من قلب الحدث التاريخي دلالات ورموزا تمثـل عصره ، وبيئته ، وتمدّه بالقدرة على صياغة الملاحم .

ان السجن ، حسب رايه ، يتيح للانسان أن يهتم ويتتبع الاحداث بصورة اكبر . ويقول اورخان كمال ان ناظم كان يثق بصورة مطلقة بانتصار الحلفاء على الالمان ، وكان في السجن رجل تركي مغرم بألمانيا « يمجد تقدم الالمان في روسيا خطوة فخطوة » ، ولديه في غرفته خريطة ملصقة على الجدار عند راسه ، عليها خطوط حمراء تشير الى تقدم الالمان في الاتحاد السوفياتي ، تزداد امتدادا كل يوم ، بحيث كان ينتظر سقوط ستالينغراد بفارغ الصبر ، وكان ناظم يكظم غيظه ويقول له : « سنرى .. من يضحك في النهاية يضحك بسعادة يا سيدي ، من يضحك في الاخير يضحك بسرور » . وكان ثمانون بالمئة من نزلاء السجن يهللون لانتصار الالمان ، وكان التركي الملقب «بالجمل» على راس هؤلاء ، وكان ناظم يقول في ثقة : « لا يمكن .. لا يمكن أن يخسر الحلفاء الحرب ، فالتاريخ لا يغير مجراه » . وفي تلك الايام الكئيبة كان يظلّ الى جانب المذياع ، وهو يرسم وجوها بعيون خائفة وآذان عريضة ، ويقول : « ان وفق أولئك الغاصبون في مساعيهم فسوف تتأخر الانسانية في رقيها ألف عام الى وراء » .

« وفي النهاية ، وبعد صمود ستالينغراد ، وعندما بدات الجيوش الالمانية بالتراجع ، بدات الدهشة تعتري ملامح « الجمل » وجماعته ، خاصة « الجمل » الذي كانت الدهشة قد بلغت منه اقصى الدرجات . وبدأ التراجع والقلق والتفكير ، وطفقت القناعة تحتل أذهان الجماعة ، وجاء التراجع وطيّر نوم « الجمل » ونشوته ، وزاد وجع رجليه اثر ذلك » .

« وفي فترات نشرات الاخبار ، كنت أذهب مع ناظم الى زنزانة « الجمل » ونتابع التراجع على الخريطة . وكان ناظم يمسك بالقلم الرصاصي الاحمر ــ اياه ــ ويبدأ بتعكيس تلك الخطوط الحمر التي كانت ترمز الى الحرب الهجومية للجيش الالماني ، ويبدأ بتمديد تلك الخطوط الى وراء ، بينما « الجمل » يراقبه بصمت وبعينين حزينتين ، زائغتين ، مليئتين بالضراعة » .

« كان السجناء يسألون « الجمل » عن أسباب التراجع ، لانه الناطق الرسمي باسم الالمان ، وشيئا فشيئا أصبح موضع سخرية الجميع ، وبدأوا يلعبون بقبعته ويعلقون على ظهره قطعا من الورق ، حتى انهم في بعض الاحيان ــ وعفوا من القارىء ــ كانوا يبعصونه ! » .

ومع تراجع الالمان بدأ تراجع « الجمل » .. وانتهى الى أن يكون « ديمقراطيا » مع الحلفاء مثل كثيرين من الفاشيست الذين غيروا جلودهم،

لكنهم بقوا على حقدهم على كل ما هو تقدمي واشتراكي في الدنيا .

أما ناظم فانه كان يراقب كل ذلك بهـــدوء ودون دهشة ، كان يعرف هذه السلوكية الفاشية ويهزأ منها ، لكنه ، كان يتوقف عند ظاهرات كهذه ، بل يمعن ، وقد أفعمته حماسة شديدة ، بالعمل اليـــومي الذي لا يهدأ . فاضافة الى الرسائل التي كان يكتبهـــا الى السجناء ، والنقود التي كان يوفرها ويبعث بها اليهم ، والدأب عـــلى تعليمهم وتشجيعهم على الكتابة والرسم ، وعلى العمل في ورشة النسيج ، كان يرســـل اليهم الصحف والكتب ، ويستمع الى ما يكتبه زمـــلاؤه في سجن بروصـــه أو السجون الاخرى ، وينتقدهم ، ويطلب منهـــم أن ينتقـــدوه ، ويكتب العرائض والاستئنافات لمن يريد منهم ، ويتوسط لهم عنـــد ادارة السجن ، ويبذل جهده للتخفيف عنهم ومداواتهم بكل ما يستطيع من جهد ومتابعة .

غير ان السجن هو السجن دائما، وفيه تحدثأشياء غريبة لا تصدق. ان الدسائس والمؤامرات والاحقاد تطفـح بها القواويش ، وكثيرا ما وقعت جرائم رهيبة ذهب ضحيتها سجناء أوشكت أيـــام سجنهم على الانتهاء . ولقد حاولوا ، في سجن بروصه كما في السجـــون الاخرى ، قتل ناظم حكمت ، لان قاتله يريد أن يدخل اسمه التاريخ ! أو ربما كان مدفوعا مـن جهة ما . ولولا يقظة أصدقاء ناظم وحمايتهم له ، لذهب ضحيـــة رعونة أو غدر أحد المجرمين . والطريف ان هذا المجرم نقل الى سجن آخر ، وقتل بعد مدة ، وحين بلغ ناظم هذا الخبر كان أشد المتألمين عليه .. « اذ انطلق يتجول طويلا والمعطف على ظهره » .

انه يفهم ، حتى هذه الحالة من الاجرام ، ويعرف انها احدى افرازات مجتمع متخلف ، والناس في يأس من حياتهم الشقية ، يقدمون على قتـل بعضهم البعض ، باحثين في غير هداية عن طريق الخلاص الذي حجبـه عنهم ظلام الجهل .

فيما عدا ذلك كان يسرّ غاية السرور بزيارة أهله وأصدقائه ، ويجهـد كي يعدّ لهم ضيافة ما ، فاذا لم يكن لديه مال ولا طعام ، أسف لذلك أشد الاسف .

وكانت زيارة امه تتخذ طابعا خاصا . يجلسان معا ، ويتجادلان حول مفاهيم الرسم ، ويقرأ لها شعره « ويقرأه أيضا على السجناء ، ويصورهم في شعره » ، كما في قصيدته « نماذج انسانية من وطني » . وكان يقول :

« لكي يكون الفنان شعبيا ، عليه أن يتعرّف على الشعب » . وعندما يشعر ان هناك كلمات أو مقاطع صعبة في شعره ، يتعـــذر فهمها عـلى الناس العاديين ، كان يعيد كتابتها من جديد » .

ويقول اورخان كمال : « كثيرا ما صادفت السجنـاء يتاثرون بشكل مدهش لقراءة ناظم ، ومنهم من كان يبكي أو يتنهد ، وأنا كنت من بين الذين يبكون ، ومنهم من كانت تتجدد ذكرياتهم » ، « وكان يثور كثير من الجدل من أجل كلمة واحدة ، فيراجع ناظم الكتب بحثـــا عنها ، وينزل السلالم سعيا وراء اصلها ، ولاعطائها المعنى الصحيح والمفيد ، ويمرق في الدهاليز كالريح ، وأحيانا ينتظر دقائق طويلة ، أو نصف ساعة أو ساعة كاملة امـام الابواب المقفلة كي يفتحوا له ليمرق من قسم الى آخر . فقد كان هناك قدماء بين المساجين ، يسألهم ويستفسر منهم، ويعيد الحياة الى كثير من الحكايات القديمة . وكان ، في كل حال ، لا بد أن يعرف ما يريد معرفته ، وفي النهاية يعود ظافرا الى زنزانته » .

وكان بين هؤلاء السجناء شاب قوي من احـــدى القرى ، تعهد ناظم تعليمه الرسم ، واصبح بعد ذلك تلميذا مخلصا له ، وكان يقول : « ان اندفاع هذا الشاب مذهل » . وصار بعد ذلك من أشهر رسامـــي تركيا ، وعرف باسم بلابان .

ثم يصف أورخان كمال كيف كان ناظم يكتب الشعر فيقول : « كـان الليل قد انتصف منذ مدة ، وساعة ناظم اليابانية التي اشتراها من مخزن في « باي أوغلي » تشير الى الثانية ، ولا ادري باي شيء كنت مشغولا ، أما هو فقد كان نائما ، وما هي الا لحظات حتى رأيته يقفز من فراشه فجأة، ويلقي بكل أغطيته جانبا ، ويقول والنوم ما يزال منعقدا في جفنيه : « هل تعطيني قلمك ؟ » . أعطيته ، وبدأت أراقب بقلق ما سوف يفعل ، واذ به يسجل شيئا على الجدار فوق راسه ، وعاد الى فراشه فسحب اللحـــاف فوق راسه ونام . قمت من مكاني بحذر وقرات ما كتبه :

على الموجة الاكثر توحدا ،
علبة كونسروة فارغة .

« وفي اليوم التالي كان يتجـــول تحت السقف الاسمنتي بخطواته المضطربة ، ومن وقع الخطوات التي اسمعها علمت انه ينظم الشعر ثانية . خرجت الى باب الزنزانة ، وتركته يغمغم ويقلب بعض الاوراق باصبعيه ،

الابهام والسبابة ، بشرود كامل ، أصفر الوجه . وكان أحيانا يصطدم بشيء ما فيأتي بحركة وكأنه يريد أن يقول عفوا ، ويعود ثانية الى شروده ، والى السير القصير والطويل والعدو السريع ، وخلال ذلك يدخل أية زنزانة يصادفها ، وما أن يشعر بالخطأ حتى تتغير سحنته . كان يبحث عني بغير شك ، مع انني كنت واقفا أمام باب الزنزانة ، وعندما صادفني وقف برهة أمامي وكأنه نسي ما يريد أن يقوله ، ثم طلب مني قلما ، وفيما كنت أمد يدي لابحث له عن القلم ، عاد هو يسير ويعود الى السير بسرعة ، وخلال مروره بي قدمت له القلم ، فظلّ سائرا وكأنه نسي ما طلب ، وظلّ مضطربا لفترة . وكان يقول : أكثر ما يزعجني هو تجوالي هذا ، فانني أفقد خلاله نفسي ، ولا بد أن يكون هناك من يراقبني ، لذلك أخشى أن يقول أحدهم عني انني مجنون ، ولهذا فأنا أتجنب الفوضى كثيرا في نفسي » (١) .

كان يحترم الانسان العامل ، وينزل الى السجناء الذين يعملون ويشجعهم ويبارك جهدهم ، وكان هناك بعض النظريين وأصحاب المبادىء ، ولكنهم لا يطبقونها في حياتهم العملية ، فكان يأسف لذلك ، ويسعى الى تطبيق ما يؤمن به من مبادىء . وكان يكتب رسائل متواصلة الى كمال طاهر ، ويحثه على العمل والابداع .

ويقول عابدين دينو عن رسائل ناظم في السجن انها كانت تحوي كل شيء ، وخاصة بعض الموضوعات التي كانت تلحّ عليه « ففي السجن ، الرسالة الواردة من الخارج ، أو الصادرة عن الداخل ، مع طابع المراقبة أو اي طابع بريدي (والمهم شراء هذا الطابع) ، تصبح حدثا على درجة من الاهمية ، بحيث لا يوجد أي قاسم مشترك بينها وبين ما نسميه ، في لغتنا العادية ، بريدا » .

وقد كانت الرقابة على الرسائل في السجن مثلثة ، فهناك مديرا سجني بروصه وتشانكيري ، وكذلك المدعي العام ، المتواجد في طرف السلسلة ، هذا اذا لم نذكر ممثلي المخابرات ، وهم بعدد وفير في المدينتين ، يغلفهم اسم « المركز القومي للاستعلامات » ومقره أنقره ، وقد كانوا يقرأون باهتمام زائد الرسائل المتبادلة بين السجناء السياسيين . ولهذا كان بعض هذه الرسائل يتكدس في الخزائن الرسمية فلا يخرج منها » .

« وكان على السجناء ان يأخذوا بعين الاعتبار صعوبات كهذه لا مفر

---

(١) « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » في السجن ، ترجمة جوزيف ناشف .

منها ، وأن يكتبوا أحيانا بصورة ملتوية ، وكأنهم يتحدثون الى غير الشخص المعني ، لعلمهم ان اولئك السادة سينظرون اليها نظرة طيبة وينقلون عباراتها الى المراجع العليا . وقد لجأ ناظم فعلا الى الحيلة كي يتمكن من ارسال قصيدته من سجن الى آخر » .

« فعندما يكتب مثل « القصيدة التي راقت لعمه علي فؤاد باشا وعصمت اينونو » علينا أن نفهم ان المقصود هو القصيدة المتعلقة بالجبهة الشرقية وبالبطولة السوفياتية ، فاسم الباشوات ستار من الدخان . وباختصار فان بعضا من هذه الرسائل مدونات يجب فك رموزها » (١) .

ان رسائل ناظم حكمت الى كمال طاهر ، وثيقة شديدة الاهمية عن حياة كل منهما في السجن ، وهي شهادة على تلك الصداقة العميقة التي كانت تربط بينهما ، وعلى الافكار والمشاعر التي كانا يحملانها ، وعلى ذلك الجهد الخلاق والمتواصل الذي بذله ناظم في سبيل تثقيف كمال طاهر ودفعه الى الكتابة .

وقد وجدت من الضروري تقديم مقتطفات من تلك الرسائل ، أو من بعضها على الاصح ، في محاولة لتسليط المزيد من الضوء على حياة الشاعر في السجن ، وعرض بعض أفكاره الادبية والفنية :

عزيزي كمال !

ها هي رسالتي الرابعة . وكما تلاحظ ، فان قلمي ذا الريشة الذهبية، الذي ورثته عن المرحوم عمي ، والذي رفضت اعارته الى أي انسان ، قد انكسر . آمل أن يكون هذا فألا حسنا ، وأن أحصل قريبا على قلم جديد . وبما انني لن أحصل على قلم جديد الا اذا خرجت من السجن، فأنا أستخلص من ذلك اننا سنستعيد حريتنا قريبا .

أخذت هذا الصباح حمامي المعدني الاول ، كلفني ١٧٥ قرشا . تدمرت . أنا مهدد بالموت جوعا اذا ما أردت التخلص من الم « العرق الانسر » .

ارسلت لك خمس ليرات الاسبوع الماضي . هل تسلمتها ؟

لقد رسمت ، منذ مجيئي الى بروصه ، صورتين أو ثلاثا ، وأربع حشيات ، لم يتبقَ عندي ألوان . أقضي وقتي بغير طائل . لم اكتب شيئا .

---

(١) من مقدمة كتاب « من الامل الى ما يجعل الانسان يبكي غضبا » ، الطبعة الفرنسية.

وليلة البارحة فقط ، وهذا يحدث لاول مرة ، انشدت قصيدة في الحلم ، وعندما افقت تذكرت بيتين منها :

من عشّ النسر الاكثر بعدا ،
يأتي ضجيج محرك ،
وعلى الموجة الاكثر تواجدا ،
علبة كونسروة فارغة .

ما الذي اردت قوله ؟ التصنيع ربما ، او شيئا آخر من هذا القبيل . ولماذا هذا الحلم ، وهذان البيتان ، أو بدقة اكثر ، هذه الابيات الاربعة ، التي ليس فيها أي بريق ؟ لكن بما انني حلمت بها ، وأنشدتها في الحلم ، فان لها سحرا في عيني .

كتبت الى بيرايبه بخصوص قميصك .

لدينا هنا محطة اذاعة أسمعها كل مساء في قلم المحكمة . وسيمددون لنا مكبرات صوت في الباحة ، وسيكون في وسع جميع المهاجع سماع الراديو . شيء واحد غير ملائم هنا : انهم لا يزودوننا بالفحم ، وهذا ما يكلفنا اكثر من عشرة قروش في اليوم .

(الخميس ٢٦ ك١ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

ابدا باعطائك اخبارا عن حالتي العامة ، فحصوني من القدمين الى الراس ، وحللوا الدم ، واخذوا صورا شعاعية . الطحال منتفخ جديا ، وفقر دم عام . وزنت نفسي : ٧٠ كيلو . كنت ٨٢ كيلو عندما وزنت نفسي في نظارة استانبول . رئيس الاطباء ، المهذب جدا ، المتميز ، الاخصائي بالامراض الداخلية ، قرر ، حين راى وضعي ، اخضاعي لمعالجة تغذية ومراجعة عامة .

هبطت حرارتي ، غير اني ضعيف الى درجة قصوى . ان أدع نفسي على رسلها افضل من كل هذه الحكايات التي تزعجني ازعاجا رهيبا .

قصيدتك كانت جميلة جدا . اعذرني ، انت ابله حقا لانك لا تكتب الشعر .

(رسالة دون تاريخ)

عزيزي كمال ! اخي !

بناء على طلب عام ، آكتب رسائلي بالحروف القديمة . ليغفر لي الله هذا الموقف الرجعي الى حد ما . نسيت الحرف العربي الى درجة انني ، لدى كل كلمة ، أتوقف وانفخ . كتابتي لم تكن جيـــدة أصلا ، وهي الآن مرعبة . ربما كانت الابجدية اللاتينية اكثر سهولة في القراءة من العربية ، غير ان الحروف اللاتينية تدعو للرثاء هي أيضا ، من وجهة نظر الخط .

يقول المثل : « المضايقات التي تحمل كل المزعجات ، لا تخلو أيضا من مرح » . واذن فمن العبث أن نفكر كثيرا بطلب العفو الذي قدمناه . لقد رفض طلب رشيد كمالي (اورخان كمال) لاسقاط بقية عقـوبته ، ورفض طلب فطمه نوديه يالتشي (١) أيضا .

رأيي في النقاش الذي بدأته مع حكمت حول موضوع خالدة اديب (٢) هو التالي : نستطيع أن نقسم أعمال خالدة اديب الروائية ، من وجهة نظر ايديولوجية وتاريخية ، الى زمر ثلاث :

١ ـ مرحلة حرب بيلتار .
٢ ـ مرحلة بلغت أوجها في « حكم ميفود » ، وتدخل رواية « اتستين غومليك » في ذلك .
٣ ـ « البقال القذر » (٣) روايتها الاكثر حداثة .

الحنين الى الماضي ، وكذلك المثالية الفلسفية والصوفيـة الفنائية ، هي المحتوى الاساسي في المرحلة الاولى .

في المرحلة الثـانية يغدو الصراع بيـن الجنسين العنصر الســائد ، اذ ان المراة والرجل هما القطبان المتعاديان .

وفي المرحلة الثالثة تصعد المشاكل الاجتماعية ـ حسبما ترى الكاتبة ـ الى المقام الاول .

وكما نستطيع أن نلاحظ في المرحلة الاولى الاجنّة التي ستميز المرحلة الثالثة ، نلاحظ في المرحلة الثانية أجنّة المرحلة الثالثة ، مـع اختلاف من

---

(١) فطمه نوديه يالتشي : محكومة بالسجن عشرة أعوام ، في أعقاب قضية ناظم حكمت .

(٢) خالدة اديب : روائية تركية ، اشتركت برتبة عريف في حرب الاستقلال ، استـــاذة الادب الانكليزي ، وعضو في مجلس النواب .

(٣) أسماء كتب خالدة أديب باللغة التركية .

وجهة نظر المحتوى ، وتماثل فيما يتصل بالمشاكل الاجتماعية . وهكذا نلاحظ ، منذ المرحلة الاولى ، فكرة الصراع بين الجنسين .

في المرحلة الثانية يسود هذا العنصر ، لكننا نرى ، بشكل مواز ، خالدة اديب المحبة لتركيا ، القومية ، المرتبطة بالماضي بعمق . وفي المرحلة الثالثة ، ينتقل الصراع بين الجنسين الى الخط الخلفي ، وتغدو خالدة اديب ، التي لم تعد مرتبطة بتركيا ، ولا شوفينية ، أو قومية : اصلاحية ، ديمقراطية ، معجبة بغاندي ، برغم انها شديدة الارتباط بالماضي ، تضع على الصعيد الاول المشاكل الاجتماعية كما تراها هي .

ان فكرة الكراهية بين الجنسين ، لدى خالدة أديب ، تبلغ ذروتها في المرحلة الثانية ، في حين اننا لا نرى الآن منها سوى بقايا وعقابيل ، فالاطروحة الاجتماعية في الرواية ، والدفاع عن قضية اجتماعية ، غدوا اليوم العنصر السائد في الخط الاول . وهذا العنصر لم يفعل اكثر من التطور منذ المرحلة الاولى ، متحملا في ذلك بعض التحولات .

لا الحّ هنا على فكرة العوامل الاجتماعية والنفسية وحتى الفيزيولوجية ولا على البواعث المحددة التي انتجت هذه التحولات لديها ، نستطيع بسهولة أن نكتشفها . أما بخصوص تقنية رواياتها ، بمحتواها ، وخط التطور الذي اتبعه هذا المحتوى ، ومضمونه الاجتماعي ، فأنا مقتنع بأن محترفين مثلنا ، لا يستطيعان ان يفيدا من الاسلوب الذي شاخ ، ولا من اللغة التي تستخدم ، بل من النتائج التي بلغتها خالدة اديب مؤخرا . من الممكن ، كما ارى ، أن ندرس بجدّ كل رواياتها ، لا من وجهة نظر الشكل ، بل ببساطة ، من حيث البناء الروائي ، ونستطيع ان نستخرج كثيرا من المعلومات .

من المؤكد ان المريض هو الذي يتألم ، لكنه لا يستطيع أن يداوي نفسه . الاطباء هم الذين يداوونه . واذا كان المريض ، هو نفسه ، طبيبا ، يستطيع أن يحدد سبب مرضه ويختار الدواء الضروري له . واذن ، بالنسبة للطب ، غير كاف أن تكون مريضا ، بل يجب أن تعرف العلم الذي يدرس اسباب الامراض ويجبرك على مداواتها بازالة مسبباتها ، والامر كذلك بالنسبة لفن الرواية . فلكي تتمكن من كتابة رواية حول حياة السجن لا يكفي ابدا أن تكون أنت نفسك سجينا . والا فان جميع القتلة الذين يمضون ١٠ أو ١٥ عاما في السجن يصبحون روائيين .

كي نكتب رواية عن السجن ، من الضروري ان نكون قد عرفناه ، وأن

نعرف أيضا ، كيف نكتب الرواية ، وان نمتلك الامكانات الاجتماعية والنفسية والفيزيولوجية والبيولوجية .

لقد تبسطت كثيرا في هذا الموضوع ، سامحني ، ثرثرت معك حول أشياء نعرفها جيدا ، وهذا ناتج عن تماثل آرائنا حول كل الموضوعات .

لا تنس اننا ، أنت وأنا ، غالبا ما كنا نتمشى جنبا الى جنب خلال ساعات ، دون أن ننبس بكلمة واحدة ، لان أفكارنا حول مشكلات كثيرة تتوافق الى حد لا نجد معه جديدا نقوله . ذلك كان الزمن الجميل . أقسم لك . انني أفكر بك بحنين كبير ، وأشعر برغبة آسرة في رؤيتك . وسيسعدني أن أسمع كلماتك المنافية جدا ، وأحلامك الاشد تفاؤلا، والاكثر افتقارا للحس السليم

يقولون لك ، من الجميل أن نحلم ببناء قصور في اسبانيا ، اذا كان هذا كله يتوافق مع واقع الاشياء ، ويجعلنا اكثر نشاطا ، والا فنحن نتحمل وحدنا ازعاجات أحلامنا .

(الخميس ٢ ك٢ ١٩٤١)

كمال ، أخي !

. . . انتهيت الى ان أكون كسولا كسلا ملوكيا . ليس كسلا في الحقيقة ، فبرغم انني لا أفكر بطريقة منهجية ، فان دماغي يفكر ـ وينزعج ـ حول قيم ، وصيغ القصيدة بخاصة . ان بعض التجارب التي قمت بها في سجن تشانكيري تلوح لي الآن خاطئة وغير كافية . وأكبر خطأ من هذا النوع هو شكلها الاحادي الجانب . اريد أن أقول انه في الشكل الشعري ، الواقعي ، ألا ينبغي أن تكون هناك عناصر مثل اللون ، العبق ، الرسم التخطيطي ، البناء المعماري ، والموسيقى . الخ ؟ ألا توجد هذه العناصر في الواقع ؟ واذا ما رغبنا ، بعد ذلك ، في المضي الى الواقعية ، ألا يظهر اتجاه نحو طبيعية وشكلية مبسطة ؟ وباختصار ، في شكل شعري واقعي ، فعال، تركيبي بشكل جدلي ، بما في ذلك عناصر القافية . هل يتوجب على الشاعر، مهندس النفوس ، أن يرضى بالسهولة دون أن يأخذ ، تقريبا ، التناغم ، العبق ، الرسم ، التخطيط ، الخ. . في الاعتبار ؟ المضمون هو الذي يحدد الشكل ، هذا صحيح ، لكن في المضمون يوجد اللون ، العبق ، التناغم ، الرسم التخطيطي الخ . . . في أشكالها الاكثر تعقيدا . وفوق ذلك ، كم ينبغي على الاسلوب أن يكون متنوعا ، الاسلوب الذي عليه أن يضمن للمحتوى

الشكل الاكثر كمالا ، الشكل الذي سيؤثر على المضمون ، لا كعنصر ايجابي فوتوغرافي ، بل بطريقة فعالة .

هذه التأملات التي اعرضها الآن على عواهنها ، كشرائح من النقانق ، وانا أكتب لك هذه الرسالة ، تروح وتجيء في راسي بغير توقف كتبت قصيدة أو اثنتين ولم ترضياني ، فحذفتهما . وبرغم كل شيء ، فأنا لم اقطع صلتي بالواقع . لا يمكن تفسير هذه الازمة كمفهوم شكلي ، تخطيطي. على العكس ، فكوني ارتبطت بالواقع ، واستشعرت روابطه بقوة اكبر مع مرور الاعوام ، هو الذي يثير هذه الازمة من حين لآخر . انني ابحث عن وسيلة التعبير عن الواقع في شكل اكثر رقيا ، اكثر دقة ، اكثر جدارة بهذا الواقع . وأعتقد انني عثرت على هذا الشكل ، وان هذا سيغدو ، كل مرة ، مرحلة بالنسبة الي ، ويرتبط بالتالي بمرحلة جديدة ، وأنت تعلم كيف يصير هذا . . . ولكن ان أكتب اليك عن أشياء تعرفها ، فهذا يعني بالنسبة الي ان أتحدث فقط ، والحديث يؤلف عملية جدلية ، وهذا أيضا تعرفه جيدا .

ان ما ينقصني هو حضورك . لكم أشتاق رؤيتك ، ليأخذك الشيطان . ما كنت أعلم انني سأعتادك على هذا النحو .

انني راض عن الزميل رشيد كمالي الذي يقاسمني الزنزانة ، انه يشبهك من بعض النواحي ، وأنا اعمل على تلقينه الفرنسية باستمرار .

(دون تاريخ)

كمال !

استأنف رسالة يوم الخميس التي اضطربت نظاميتها بمناسبة الاعياد ، ان صيغة مناسبة الاعياد هذه تدهشني ، تذكرني بملصقات المسرح الشعبي . وانا ، كما تعلم ، لست متعصبا من هذا النوع ، كما هي حال المحترم جدا ، اسماعيل حقي مثلا . ولان هذه الاعياد تذكرني ، ببساطة ، بالطفل الذي كنت ، وبالطفل الذي ما ازال ، فأنا اميل الى رفاق المسرح الشعبي في استانبول . انك تلاحظ رجوعي من قلم الرصاص الى قلم الحبر . لقد عمل امين وارتوغرول ، حسب اتفاق مشترك ، على اصلاحه ، برد الاول وصقل الريشة على حديد أبيض ، وربط الثاني المكبس الخرب بخيط ثخين ، وهكذا غدوت ثانية مالكا لقلم حبر ، يكتب بخط خشن اكثر من ذي قبل ، وينساب بصعوبة اكبر على الورق ، لكنه يكتب .. قل « يستطيع » . . .

لم يصلني حتى الآن شيء من عمتي . اتدبر أمري واستدين . وحين افكر ان النقود تنقصك ، أشعر بالتعاسة . في الماضي ، ما كنت أفكر بسوى بيرابيه ، والآن تضاعفت همومي . مع ذلك اعتقد انه سيكون في وسعي ان أطير الى نجدتك خلال يومين او ثلاثة .

لا تحرم نفسك من شيء ، وبخاصة من التبغ ، فأنت لا تستطيع ، بغير تبغ ، أن تعمل . استدن مالا ، ولا يهم من أين ، لا تقتطع من غذائك بخاصة . ستسدد ديونك على أية حال .

سأرسل اليك مناشف ، لكنني لا أملك فلسا واحدا . مع ذلك سأرسلها في اول مناسبة . اشتريت بضع هدايا متواضعة لك وللاصدقاء ، اشياء مصنوعة في سجن بروصه : أفمام سكائر على وجه التحديد .

اصبحت معنويات بيرابيه متدنية مرة أخرى ، وهذا حقها . انها تسألني عنك دائما . تصنع لي هموما ، ولا تفتأ تسألني : لماذا اتيت الى هنا ؟ وكيف يستطيع هذا الصبي المسكين ان يتدبر أمره هناك ؟ انها ترهقني بالتوبيخ .

لا أدري ما اذا كنت قد أحسنت باحضار الطنجرة معي ، برغم قربي من استانبول . أنتم هناك بلا طنجرة ، وأنا هنا بغنى عنها . كمالي يملك واحدة ، ولكنها ليست الا قدرا صغيرة . لا أدري لماذا فعلت هذا . انه بكل تأكيد ، حسّ الملكية الذي دفعني الى هذه الفعلة ، ولست أنت ، من دفعني الى هذه الرذيلة . لا اثر لحب الملكية عندك ، ولا أعتقد ان له اثرا عندي . فمن هو ، في رأيك ، الذي الصق بي هذه الجرثومة ؟ « العنب حين يرى بعضه بعضا ، يسودّ » . ويبدو انني تأثرت بغيري ، وهكذا بقيت أنت دون طنجرة ، وكان بامكاني استخدام طنجرة كمالي الصغيرة هنا .

سيرى أحدنا الآخر يا أصدقائي ، سيرى احدنا الآخر . سنضحك جميعا للشمس ، ونتعارك جميعا أيضا .

هناك ، كما تذكرت هذه اللحظة ، أغنية لموريس شيفالييه :

وداعا ، لا ، سنرى بعضنا ثانية ،
وداعا ، لا ، الى اللقاء .

لماذا فكرت بكل ذلك ؟ واي تناقض ؟! لديّ رغبة في الكتابة اليك دون توقف . اعانقك بشوق . سلامي الى الجميع .

(١٦ ك٢ ١٩٤١ ـ الخميس)

عزيزي كمال !

لا اخبار دائما « الانتظار أشد من النار » (١) هاك ! لقد عدت الى الاحرف اللاتينية دون أن افكر في ذلك . اعانقك لكل شيء ، للرسالة القصيرة ، للقصيدة ، وايضا لاني عدت الى الحروف اللاتينية بسبب من شرودي . ماذا تريد ؟ يقول المثل : « العادة شر من الغضب » . ودائما تنتصر العدالة في النهاية .. وسترى .

اخبار صغيرة : قمّلت ! انا على وشك أن اكتب قصيدة جديدة . اعدت قراءة قصيدة « يقظة الطبيعة » و « اقتراب الربيع في بروصه » التي كتبتها ولم ترقني . القصيدة الجديدة ستكون افضل ، ومن نوعية اخرى .

كتبت بيرايه عنك تقول : « مودتي لكمال . لا ينبغي أن يجعلني مثلا اعلى ، لان ظنه سيخيب . انا امراة بسيطة ، دون ادعاءات ، لديّ قلب طيب ، وانا شريفة » . نقطة وهذا كل شيء .

(١٩٤١ ـ سجن بروصه)

قصيدة
ريح الجنوب
مطلع

(١)

منذ شهر وليالي السجن
قطط حرّى
ـ وافخاذ مبللة
ووبر منتصب ـ
ونهشات على القذال ؛
تصرخ ، احيانا ، كعصفور ،
واحيانا ، كانسان
شاردة ،
حتى الاخصاب ،
انه الربيع تقريبا

---

(١) جاءت بالعربية في الاصل .

ريح الجنوب
تنفخ بشدة
وبحرارة كبيرة
ونحن ايضا ، ستمئة رجل ،
بغير نساء ،
محرومون من امكانية
منح الحياة
ان اشد القوى رهبة ممنوعة عليّ ،
ممنوع يا حبيبتي أن المس لحمك
ان ازرع حياة جديدة
ان انتصر على الموت في رحم ولود
أن أخلق معك
ان أتقاسم معك هبة الله .
انه الربيع تقريبا
الليـــل ،
الاعصار ،
ريح الجنوب ،
تنفخ ، تعوي ،
قائظة جدا ،
وفي ناحية ما ينكسر زجاج ،
هو الثالث هذه الليلة ،
وباب الردهة يظلّ مفتوحا
ينصفق ،
ينصفق ،
بعنف .

(٢)

مناظر من ريح الجنوب

البحر ،
ليس بحر مرمره ،
انه البحر الاسود ،

ومليارات ـ لا عدّ لها ـ من أطنان
الماء ، تصفعها الريح
وعلى عرف الموجة الاكثر توحدا ،
علبة محفوظات فارغة ...
وعلى جبهة « تبيدلين » جثة ،
تتغطى بالثلج عند هبوب الريح ،
وقبعتها قد انزلقت ،
فهي تدور ،
وتقفز في الريح .
وفي باحة المصنع ،
ضوء المصباح ،
في طرف سلك رفيع ،
يتأرجح يمينا ويسارا
امراة حبلى ،
العنق عار ،
وشعرها الطويل ، وتنورتها ، يطيران في الريح ،
أمام باب الورشة .
ومن الميزاب كتلة من الثلج ،
تدحرجت على الارض ،
والعربات تهبط نحو السهل خببا ،
وأجراس على اعنَّة الاحصنة ،
والستائر السود تهتز على الجوانب .
ربما كانت مئة ،
وربما ألفا ،
وربما اكثر .
انها تطير في الليل ،
نحو البحر ...
ومانعات الصواعق
قد انقلبت
انها تلتوي ،
تصطفق كالسوط ،
ويقف رجل في بنطال ازرق

ـ على رأسه قبعة ـ
يرفع هامته ،
يبتسم ،
ينحني ،
يشعل سيكارة في تجويف يده ،
وفي مكان آخر أيضا ،
يتحطم زجاج ،
هو الرابع هذه الليلة .

(٣)

المشهد الاخير

الحور الذي لم يكن الا أضلاعا دقيقة ،
كان مضيئا .
بالرغم من انه لم يكن هناك ضوء قمر .
وشجرات الكستناء الكثيفة ،
ذات الاغصان المتشابكة ، تهتز .
ـ انها لا تتارجح ابدا
بل تغير مكانها ببطء ـ
وحشد الاغصان الجرداء ،
يمتدّ على مرمى النظر ،
في ضوء النجوم .
ومع ذلك فثمة ريح الجنوب هذه ،
وهذا الانين ،
وفي الهواء ،
رائحة الحيض هذه ،
وحرارة المبيض الناضج ،
وفي الجبال يذوب الثلج ،
والنسغ يسري في الاغصان العارية ،
تضخم
الحمل ،

انه الربيع ،
ويوم الولادة ،
قريب
ـ مرعب ،
رائع ،
ودافىء .

عزيزي كمال !

رغبتي قوية في رؤيتك ، لقد بحثت منـــذ ١٥ عاما على الاقل ، ولن اقول منذ ٣٩ عاما ، عن صديق يشاركني أفكاري بشكل كامل ، وتكون له عقليتي نفسها ، ولا يغدو قليل الوفاء بشكل بارز . لاحظ انني لم اطلب منه ان يكون وفيا مئة بالمئة . صديق طبيعي الى الحد الممكن ، الى الحد الذي نستطيع أن نكونه اليوم . قليل الاستقامة مثلي ، وليس ملاكا ، لكنه رجل سيىء مثلي وطيب مثلي ايضا . وغالبا ما خيل الي انني التقيته ، لكن بعض الناس تكشفوا عن اناس اكثر شرا مني . وبما ان اخطائي الذاتية تستخـدم عندي كمعيار في هذه العلاقات التي تربط رجلا برجل ، فقد كنت أستشعر بأنني أخان . لقد غدا الآخرون أعدائي ، لا في علاقاتنا الشخصية ، لكن على مستوى اكثر علوا . . . وباختصار لقد بحثت بعناد عما يسمونه « صديق » وهي صيغة من التعبير عن علاقات القرون الوسطى ، لكنها يمكن أن تكتسب في الازمنة الحاضرة محتوى جديدا بصورة كاملة ، انت صـــديقي ، ولكنك حين تعاملني كأخ، لا تستطيع ان تتصور الى ايحد اشعر بالفخر والسعادة.

رشيد كمالي يملك هنا مجموعة « بني آدم » ، وقد وقعت فيها على مقال حول الكاتب الهزلي ايليا ايلييف الذي مات منذ وقت قريب ، وفيهذا المقال شذرات من دراسة جادة ، سأنقل لك بضعة أسطر منها :

« كان ايليا أيلييف ، قبل كل شيء ، رجـــلا شريفا ، ذا مبادىء . كان يكره الكذب ، وكان دائما يحمل همّ الحقيقة ، ولم يكن بمقدور أية قوة أن تمنعه من التعبير عن أفكاره التي يعتبرها حقيقة . كان صديقا صدوقا ، يسرع الى مساعدة كل أولئك الذين يلجأون اليه ، ويحب أن يتمسك بكلامه، وقد حافظ دائما على وعوده ، وعمل كثيرا » .

كم هي جميلة صورة انسان الغد ، اذ هي مماثلة لوصف ايليا ايلييف هذا ؟ نستطيع أن نكون أصدقاء لرجل مماثل ، مع اننا لسنا ايليا ، لا أنت ولا انا . غير اننا ، والشكر لله ، نفهم اخلاقيته . وبالرغم مـن اننا لا نملك

معظم خصائله هذه ، فنحن لا نعلن بأن الامر هنا « يتعلق بمزايا بورجوازي صغير » بصورة حاسمة .

الا يكذب الانسان من أجل نفعه الخاص ، في العلاقات الشخصية ، وان يحافظ على وعوده ، ويساعد الصديق الذي يطلب مساعدته ، دون أن يغار منه ، ويملك الشجاعة كي يقول ما يعتبره حقيقة ، وان يكون رجل مبادىء ، مستقيما ، شريفا .. ذلك ما يتوجب علينا أيضا أن نجبر انفسنا على ان نكونه ، وليس هذا الا شيئا قليلا جدا .. وأنا أعتقد اننا نستطيع أن نفعل ذلك ، لاننا شجعان بما يكفي ــ واستخدم عبارة تحبها كثيرا ــ كي نعرف جوانبنا السيئة . ذلك اننا لا نخاف ، في سبيل اصلاحها ، ان نصارع ضد انفسنا ، ودون رحمة .

قرات ملاحظاتك حول قصيدتي ، واسعدني أن تكون قد راقتك في مجموعها ، لكنها لم ترق لي كثيرا ، أما فيما يتعلق بتعليقاتك ، من وجهة النظر الفنية ، فقد كان من الافضل أن استخدم كلمة « حرّك » بدلا من « ساط » ، أعني « الماء يتحرك في الريح » ، ثم انني عدلت المقاطع فيالقسم الاول ، وسنقابلها فيما بعد ، ونقرر اي شكل يبدو لنا افضل . وعلى كل ، فالبديل الذي اقترحته بدا لي من ذهب ، وبالتالي افضل ... وفيما يتصل بعنصر « الشتاء » لست من رايك ، فأنا أعتقد ان المرحلة التي تسبق الربيع ، عشية الولادة ، هي عنصر هام في القصيدة ، وربما لم أستطع ان اعبر عن هذا المظهر بالقوة الضرورية . هذا ممكن تماما . ومن وجهة نظر البناء ، فان الشبه بين هذه القصيدة وتلك التي كتبتها في تشانكيري حول الليل ، موجود ، وملاحظتك صحيحة تماما . وقد لاحظتها بنفسي . أريد ، من جهة ، أن اطوّر هذا النوع من البناء ، ومن جهة اخرى ، أن اذهب أبعد أيضا في هذا الاتجاه ، غير ان هذه الخصوصية واضحة جدا ، مما يجعل من الصعب الامساك بها في الصف الاخير . ملاحظاتك الاخرى ، وبشكل خاص تلك التي تتناول مشاهد في الليل صحيحة تماما . ثم انها طريقة عقيمة ، احادية الجانب ، أن نصف ببساطة انطباعاتنا، استنادا الىالخطوط الاجمالية للمشهد .

اتذكر ــ بمتعة ــ انني ناقشت ذلك معك يوما ، وصحنا بأعلىاصواتنا. وكونك تعود اليوم الى افكار دافعت انا عنها آنذاك ، وقلت انها تؤلفالصعوبة الاساسية ، قد داعب غروري . أعترف لك . ان لديّ الصغار والتفاهة كي أقول « فكرت بذلك قبله » .

« رائحة الحيض ، غدت رائحة لحم انثوي » .
ومع ذلك ففي الهواء
رائحة لحم انثوي
وحرارة مبيض خصب .

كما أريد استخدام « هي مضيئة » بدلا من « كانت مضيئة » . وعلى كل فالقصيدة لا تساوي عناء حديث أطول .

أقرأ الآن « جزيرة البلطيق » لأناتول فرانس ، وسأقول لك رأيي في هذا الكتاب حين أرسله اليك . غير ان في الرواية أفكارا حول التعبيرية والانطباعية في الرسم ، وفي الفن بشكل عام ، حيث نجد ملاحظات صحيحة تماما ، انهم يتكلمون بشكل جيد عن مفاهيم مثالية ، وأفكار رجال دين ، موجودة في أساس تيارات مثل التعبيرية والبدائية .. ان المؤلف يعلق عليها بشكل رائع ، ان لم يكن على جذورها الاجتماعية ، فعلى أسسها الفلسفية القائمة على جذور اجتماعية على الاقل ، وذلك في كل مفاهيمه الفنية التي تتجنب الحجم والكتلة والنتوء .

سلامي الى مدير السجن . كيف سيستطيع فكّ رموز كل هذه الخربشات ؟ كان الله في عونه .

(٣٠ - ١ - ١٩٤١)

عزيزي كمال !

تلقيت رسالتك التي أغمّتني بسبب من انك حزين . يحدث في علاقاتنا مع الناس الاشد املالا ، وحتى الاكثر أذى ، أن تأتي لحظة مضيئة. وما أقوله لا ينبغي أن يفاجئك ، فبرغم كل المظاهر ، أتوصل من حين لآخر ، فيما يتعلق ببعض الاشخاص ، الى الهدوء والنسيان والاقتناع . ويحدث هذا بعد معارك طويلة ، واني لأتمنى أن يكون الامر كذلك بالنسبة اليك .

وبعد ، يا شيخي ، ان اهتمامي بانتقال حكمت الى سجن بروصه ليس فيه شيء رومانتيكي ، على العكس ، انا واقعي الى أقصى حد .

من المؤكد ان الرومانتيكية التي وصفتها بمنتهى الجنون ، والانتقادات التي وجهتها صحيحة تماما ، ولكن الرومانتيكية ضرورية أحيانا ، في الواقعية - كما أفهمها - وفي حقل الادب فقط ، وفي.. كيف أقول ؟ تحول المجاز ، حيثما كان ذلك واجبا ، والاحداث والاشخاص ، مع كل ما فيهم

من ضعف . ففي أدب واقعي وخلاق ، فعال ومجد ، لا ينبغي اهمال هذه الطريقة من التأثير على القارىء .

ان الواقعية الجديدة في الادب ، واقعيتنا الموجهة الينا ، يمكنها ان تتغنى بالابطال والبطولة ، وأن تمارس تأثيرها بقوة اكبر ، وسهولة اكبر ، بفضل الابطال والبطولة المتوهجة ، المشدد عليها ضمن مقياس صحيح ، وهذا البطل يمكن أن يكون الفرد ، ويمكن ان يكون الجماهير . علينا الا نهمل هذا المظهر للرومانتيكية ، لكن في الادب ، وفي الادب فقط ، واستطيع ان اقول الشيء نفسه بالنسبة للغنائية ، فان ننكر الغنائية ، فهذا يعني أن ننكر ظاهرة متضمنة في الواقع ، وهذا لا دخل له في الواقعية . فلأجل فن واقعي ، فعال ، يريد التأثير ــ بدوره ــ في الواقع ، تشكل الغنائية المستخدمة دون مغالاة ، بمعيار صحيح ، عنصرا يقوّي هذا التأثير . وباختصار ، فان استعارة العناصر في السياق الرومانتيكي ، في مظهر البطل والبطولة ــ هذا الذي لا دخل له فيما قلته واقترحته في رسالتك ــ وفي الغنائية ، هذه التي تدخل القلب مباشرة كما يقال في اللغة الدارجة ، ألا يشكل هذان العنصران جزءا من الواقع ؟ ان هذا يخلق فنا واقعيا مجديا، واكثر كمالا وأشد اتقانا وحيوية .

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الحبكة ، عن الفعل المركّب ، في القصة . يروي بلزاك قصة مبنية من حبكات بوليسية ، وبفضل هذه الوسائل ، فان القصة والحبكة توقظان الاهتمام فينا ، والتأثير الذي تمارسانه علينا يزداد . ونحن نلاحظ الظاهرة ذاتها عند شولوخوف . وبكلمة ، اني أعتبر واقعية ، تلك التي يجب أن تستخدم كل العوامل التي تستطيع التأثير في القارىء . حسنا ! يكفي ما تكلمنا على هذا .

اتهيأ لكتابة قصيدة كبيرة ، وخلال ذلك ، كتبت قصيدة صغيرة ، وكان الباعث على كتابتها هو الفرح الذي انتابني من التفكير بأننا ، لحسن الحظ ، في حالة حرب . وقد وضعت لهذه القصيدة عنوانا هو « المرعى » وانا استشعر سعادة تركيا التي لم تدخل الحرب :

الخوخ ،
ازهر بغير شك .
ــ المشمش ازهر اولا ،
والخوخ اخيرا .
لنركع على العشب ،

وجها لوجه .
الطقس جميل ، صاف
ـ لكنه ليس حارا بعد ـ
وقشرة اللوزة ،
خضراء ومزغبة ،
وهي ما تزال غضّة ،
اننا سعداء ،
وفي وسعنا أن نعيش .
كان يمكن أن نكون قد متنا منذ زمن طويل ،
انت في لندن ، برلين ،
وأنا في طبرق ـ او في ناقلة انكليزية .

يا حبيبتي ،
ضعي يديك على ركبتيك ،
ـ قبضتيك السمينتين البيضاوين ـ
وافتحي راحتك اليسرى ،
فان نور النهار في راحتك ،
كما المشمشة .

الموتى في هجوم هذه الليلة .
الذين كان مئة منهم دون الخامسة ،
اربعة عشر منهم ما يزالون صامتين .
يا حبيبتي !
أهوى لون حب الرمان
ـ حب الرمان حب النور ـ
وعبير الشمام ،
والخوخ ذا الحموضة العذبة .
انه ليوم ماطر ،
وأنا بعيد عن الفاكهة ، بعيد عنك ،
ـ وليس ثمة شجرة مزهرة ،
والثلج ينذر بالهطول ـ .
انا في سجن بروصه ،

أكتب لك هذا كله خصيصا :
انهم مستعدون ،
ـ وبعضهم فخور كما لو ثمة مأثرة ـ
أن يقتلوا ،
بهذه السهولة
ـ ولماذا ؟
انني أعرف ذلك جيدا .

كمال ! ها أنت ترى ، انه لامر مبهج أن أكون شاعرا تركيا ، وان اصف هذه الاشياء بكل هدوء ، في عالم مباح للهب .

ليلة سعيدة ، عزيزي ، ان أحدا لا يسألك عن أخباري ، وان احدا لا يرسل تحياته الي . تحياتك وحدها تكفيني .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

استعادت رسائلي ايقاعها العادي ، فلنأمل الا تفقده أبدا . اليوم عدت الى مألوفاتي ، وأخذت حماما ، فأراحني ذلك الى الحد الذي جعلني ، وأنا اكتب هذه الرسالة ، أشعر بالخجل من هذا الرفاه . ذلك ان الذي يرتبط بالجسد ، بالعظم ، باللحم ، قد غدا هنا اكثر طراوة بالماء الدافيء ، واسترخى الى حد بعيد ، وتدفأ في الطريق المشمس ـ منذ ثلاثة أيام وكأننا في الصيف هنا ـ . قد تقول لي انه ليس في ذلك ما يخجل . نعم ، ولكن الامر على العكس ، فثمة أسباب كثيرة تجعلنا نحمر خجلا : كونك ، مثلا ، لا تشعر بأنك في حال حسن مثل حالي ، وان هذا الرفاه الذي يضايقني رفاه اناني ، لانه شخصي جدا .

قرأت رسالتك الاخيرة على بيرابيه . تلك التي فيها شروحك عن الرومانتيكية ، وقد آلمتها هذه الرسالة كثيرا . قالت لي : ان لديك هموما ، وقد قدّرت تقديرا جيدا التوبيخات التي وجهتها الي بخصوص الرومانتيكية . وباختصار ، فقد كانت غاضبة جدا علي ، لانها خمنت انك كنت وحدك في كل ما قلته عن الرومانتيكية ، ولكنها كانت غاضبة جدا ، وبشكل مواز ، علي ، لانك اتفقت معها حولي . وحين رأيتها غاضبة جدا ، أعطيتها رسالتك قبل الاخيرة ، فقرأتها ورقَت نظراتها وابتسمت : « انه يكتب جيدا هذا الولد المضحك » . وهكذا فقد انتهى كل شيء نهاية طيبة .

كمال ! الاحظ ، من آن لآخر ، قصائد لشعراء شباب من اليمين واليسار . اقرأها بالانتباه الذي تعرفه ، وبأمل ، وايضا بمحبة ممتزجة بالفخار ، ولا شيء يسرني . ان ما يكتبونه رديء جدا ، بسبب من انه ينقصهم ، قبل كل شيء ، الاخلاص . ويبدو هذا كأنه حقيقة مشتركة ، لكنها حقيقة هامة جدا في الفن . نعم ، انهم ليسوا مخلصين ، وأعرف جيدا بأنه من الصعب أن تكون مخلصين ، ولكن ثمة اخلاصا طفوليا يمنحه الشباب ، وتنقصه التجربة . انهم لا يمتلكون هذا النوع من الاخلاص بتاتا ، يتظرفون ، يتخذون وضعيات ، هؤلاء القذرون الادعياء ، المتشاعرون والنظّامون . هناك واحد بينهم ليس رديئا ، يدعى صقر ايتيكين ، لكنني اخشى أن يشرع هو الآخر بالنظم على طريقة المثقفين الادعياء . ان هذا النوع من النظم ليس خاصا بأسلوب مدرسة « الفجر الآتي » (١) أو بالادبيات الجديدة (٢) أو بأصحاب المقطعات (٣) . وليس هذا النوع من الشعر غنائية انسيابية . الامر يتعلق هنا بمرض البورجوازية الصغيرة المثقفة ، وحتى انه ينبع وسط التيارات ، حيث لا نتوقع ، ووسط الالتزامات الايديولوجية الاشد صلابة ، تحت الاشكال ، وفي العبارات التي لا تكاد تناسب النظم الشعري ، بالمعنى القديم للكلمة ... ومن ناحية أخرى، فهذا النظم نصادفه في الخطب السياسية الاشد بدائية ، وموسوليني هو نموذج لهذا النظم . ان هذه الخطب نظم في أشد أنواعه عامية . انه ، عندما يعلن « اننا نقتلع قلب اليونان » فانه يقدم مثلا من أشد الامثلة النموذجية للنظم العادي . أريد أن أقول ان النظم لا يعبر عن نفسه فقط بالآفاق الزرق والغيوم الزهر . « حبيبتي في البطاقة » هذا نظم بهجت كمال أيضا ، والشاعر الشاب عزت دينامو بالتوازي ... نستطيع أن نقول بأن المسافة بين الواقعية الغنائية وهذا النظم لا تتحدد فقط بوظيفة الكلمات ، وبالصور المستخدمة ، ولا حتى أيضا بوظيفة الافكار المعبر عنها ، لكن بوظيفة الوضع الاجتماعي للشاعر ، بامكاناته على تمثل وتعرية الايديولوجية التي يتبناها من كل العقائديات ، وبالشكل الذي يستطيع معه أن يحولها الى غريزة . أعني حسب فعله في الممارسة ، وحسب كونه شاعرا أولا — بالمعنى الاشد جوهرية للعبارة — .

---

(١) مدرسة ادبية في نهاية القرن التاسع عشر ، تطالب بفن ثمين ذي سمة شكلية .

(٢) مدرسة ادبية في نهاية القرن التاسع عشر ، شديدة التأثر بالادب الفرنسي ، وبعض أعضائها يمتلك موهبة كبيرة .

(٣) مجموعة من الشعراء تبنت عام ١٩٢٩ القصائد المقطعة .

انني أقرأ كثيرا من هذا الشعر ، ولا أتحدث عن نفسي ، فانني أجد هذا النظم ، الذي ليس لديّ بالتأكيد ، ولا القليل منه ، موجودا لدى ماياكوفسي وباسترناك ، احيانا .

انني أسجل ، مع أسفي الشديد ، ان لدى هؤلاء الاساتذة من النظم أكثر مما لديّ .

كمال ! في اليوم الذي أستطيع فيه أن أتخلص من هذا النظم ــ وسأبلغ هذا اليوم ، كن على ثقة ــ سأغدو شاعرا حقيقيا أفخر بنفسي باخلاص هاو الشعر ، لم ينشر بيتا واحدا ، لكنه مقتنع بأنه يكتب الروائع . اجل سأكتب أشياء رائعة حقا ، وما انصحك به هو أن تعود أنت الى وجهة النظر هذه بشكل مواز في كل ما تكتبه . هذا النظم ليس هو الرومانتيكية . كان زولا طبيعيا ، لكن كان لديه كثير من النظم . ولدى بلزاك ، وبخاصة لدى شولوخوف ، نصيب منه . كيف ؟ أريد القول ان هذا الولع الشعري مرض يستطيع أن يصيب انصار أية مدرسة ، من الكلاسيكيين الى الواقعيين الجدد . وصبية استانبول الرديئون هم نظّامون بشكل مرعب . انهم ، على الاقل ، غير أصلاء .

قالت لي بيرايبه مؤخرا : « ناظم ! انك تعلم الرجال كثيرا من الاشياء ، لكنك تقوم بذلك بشكل يجعلنا نتصور انهم وجدوا كل ما تقوله بأنفسهم ، واننا كنا نعرفه من قبل ، دون أن نلحظ انك علمتنا اياه » . ان الامر لا يتعلق بمحاكمة الموضوع من هذا الوجه . زوجتي تطريني ببساطة . غير انني أعتقد ان في وسعنا الوصول الى نتيجة هامة اذا فكرنا بهذا الكلام دون أن نطبقه على شخصي . ان المبدع الواقعي ، النشيط ، الفعال ، المربي ، يجب أن ينتبه الى هذا الجانب من دوره ، واذا كان القارىء قد تأثر بالكاتب الواقعي ، صانع النفوس ، واذا كان قد طبع بطابعه وتغير دون ان يلحظ ذلك خلال العملية النفسية ، فقد تأثر بسهولة اكبر دون أن يبدي مقاومة . وانا الحّ على هذه النقطة . ان ما يهمّ ، في الادب الواقعي الجديد ، في رأيي ، هو أن نضع في خطتنا الاولى ، قدرة هذا الادب على التأثير ، جانبه المربي . يجب أن يدلّ القارىء على الطريق ، كي يغدو اكثر تأثيرا في حياته عمليا . لكن يجب أن يتم ذلك بكثير من الحذق . واذا لم تكن الرواية رواية ، والقصيدة قصيدة ، فان العمل يغدو كئيبا او وعظا أو نصائح ، مما لا يرفع شأن القصيدة أو الرواية أو الاقصوصة ، الامر الذي هو ضروري . واذن فان مهنتنا هي الشعر والرواية والاقصوصة . حسنا ! كفى حديثا عن الادب .

(١٣ ــ ٢ ــ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

الشكر لله . تلقيت رسالتك . كان عليّ ان ابرق لك . تصورتك مريضا ، وكنت عصبيا وتعيسا . انت تعرف في اي حال وضعت نفسي في تشانكيري حين لم اتلقّ رسائل بيرابيه ، الامر ذاته اليوم ، لقد فهمت بيرابيه جيدا لماذا ارسل اليها برقيات دون انقطاع . غير ان العاصفة مرت ، وها انا هادىء .

ارسلت اليك خمسة كتب ، ثم كتابين . أعلمني اذا كنت قد تلقيتها كلها . سأرسل اليك أيضا كتيبات في البريد المقبل .

كنت خجلا جدا لانني لم استطع أن أرسل اليك سكاكر وشوكولا ، وسأفعل ذلك في أول فرصة ، هذا الاسبوع بالذات . وقد وضعت لك « فم » سجائر في احدى الصحف ، فهل وصلك ؟

اذا لم ننل حريتنا حالا فسألجأ الى كل الوسائل لنقلك الى بروصه ، وسنجد ما يساعدنا على دفع نفقات السفر . لا تقلق أنت ، انه لمن البلاهة ان تبقى وحيدا هناك . لننتظر نهاية شهر نيسان ، وسنلتقي اذ ذاك ، سواء هنا أو في الخارج .

حين كنت معك ، في تشانكيري ، كنت أفتقد بيرابيه . هذه المرة بيرابيه هنا وانت الذي أفتقد . قرأنا كومة من القصائد اليوم. تحدثنا عنك. انك دائما الى جانبنا أيها الاخ .

نقدك لقصيدتي كان صحيحا تماما . (مشمشة كهذه ، هي قطعا غير مجدية . (الكل أخضر) أيضا . كنت سعيدا كطفل ، لان المنمنمة الشرقية تقع في الجزء الذي يبدأ من (على العشب) . حين كتبتها كان امين بك الى جانبي ، وقد صمت . قلت له : « ما اريده هو أن أكون جالسا مع محبوبتي كما في منمنمة » . لم يفهم شيئا ، لكنه ابتسم بأدب. ومع ذلك ، فاذا كنت قد لاحظتها أنت ، فهذا لا يبرهن على نجاحي . انه ، ببساطة ، يبرهن على انك ترى جيدا ما تدعوه بالشاعرية ، وتستشعرها كما لو انك تلمسها بأصابعك .

لنعد الى النظم . قلت لك ما افهمه بهذا التعبير . وطرحت انت سؤالا ، تستوضح فيه ما اذا كان علينا الا نستخدم هذا النظم . من وجهة نظري ، ليس بالامكان استخدام هذا العنصر في الادب الواقعي ، الفعال ، المربي والمجدي ، لانه قبل كل شيء ليس ادبا ، وهو أيضا مزاودة ،

و (ديماغوجية) . ومن وجهة نظري ايضا ، حين نجد هذا النظم في اطار الادب الواقعي ، ينبغي أن نتجنب كل مزاودة . ان المزاودة تستطيع أن تكون أحيانا سلاحا مجديا وحتى ضروريا ، اذا استخدمت في شروط محددة ، وسيكون من الخطأ اذ ذاك ، ومن التعصب المذهبي ، ألا تستخدم . غير ان اثرها عابر ، لا يستمر ، في حين ان الدور التثقيفي للادب الواقعي دور ثابت ، ينمو دون توقف ، ويصل الى الاقناع بالشرح ، ومن هنا فهو مجد أو ناجع في الممارسة . وباختصار ، أريد أن أقول ان الادب الواقعي ، كما أفهمه ، ليس وسيلة للاثارة . الاثارة تلعب أيضا دورا تثقيفيا ومجديا في الحياة ، غير انها تمارس ذلك مع العناصر الاخرى للادب .

تحدثت مع سميّك كمال . انه يكتب قصة ستكون جيدة كما اعتقد ، وقد سألني عن الفرق بين الانواع الادبية : الرواية ، القصة ، الاقصوصة ، وفكرت بهذا . أحسب انك قلت في احدى رسائلك : « قصة «ساجيدير» تتجاوز المئة صفحة ، وظني انها ستكون رواية ، فما الفرق بين الرواية والقصة ؟ وهل هو في عدد الصفحات ؟ لا أعرف شيئا » . وكتبت لك ما أفكر فيه دون ترتيب ، كما لو انني أفكر بصوت مرتفع وأنا أتحدث اليك . يبدو لي ان الفرق بين القصة والرواية ليس كميا ، بل هو كيفي . وليس ذلك بين القصة الطويلة أو القصيرة أو الرواية ، لكنه ، ايضا ، بين هذه الانواع والشعر . ولانني بدأت أرى ، على هذا النحو ، الفرق بين الشعر والانواع الادبية الاخرى ، فانني أجبر نفسي على الغاء الفارق في اللغة . هذا الذي هو ، قبل كل شيء ، مشكلة كمية . وحتى هنا ، ثمة لغة شعرية ـ ولا يهم المدرسة التي تنتمي اليها القصيدة موضوع البحث ، فذلك لا يغير شيئا ـ ولغة نثرية ، متميزة احداهما عن الاخرى ، وأكثر من ذلك ، ولاحقا لخصوصية بناء الجملة التركية ، فاننا حين نضع الفعل في بداية أو منتصف الجملة ، فان ذلك يغدو لغة شعرية ، وبما ان النثر سيتصرف باحتمالات واسعة ، بدءا من اللغة المتكلمة الى التعابير الخاصة للاعمال العلمية ، فان اللغة الشعرية تظلّ محشورة في قالب بعض الحالات . واذن فمن الضروري أن تكون للغة الشعرية احتمالات واسعة ايضا ، سعة تلك التي يتصرف بها النثر ، وأن نلغي التمييز بين اللغة الشعرية واللغة النثرية . وما هذا بمسألة تتعلق بالشكل ... انه المحتوى الذي يحدد الشكل ، لكننا نعرف جيدا ان الاشكال المحددة بالمحتوى تستطيع أن تعمل بصورة جدلية ، على هذا المحتوى ، وتمارس تأثيرا محافظا ، رجعيا . وبالنتيجة ، اذا اعتبرنا انه ليس ثمة من فارق بين اللغة الشعرية واللغة

النثرية ، أين اذن يكون الفرق بين الشعر والرواية والقصة ؟ سأشرح لك ذلك بمثال : نستطيع أن نرسم منظرا بقلم الفحم ، او بالالوان المائية ، أو بالزيت ، بفضل صورة محفورة ، أو صورة فوتوغرافية . ان رساما واقعيا يستطيع أن يعيد انتاج الواقع في كل هذه الانواع ، وبنفس الامتداد والحجم والارتفاع ، لكن واحدا من أعماله يكــــون رسما بالزيت ، والآخر بالماء ، والثالث بالفحم الخ ... لنعد الى الرواية . يمكن للرواية أن تكون في ٣٠٠ صفحة وأن تكون القصة بهذا الحجم . ان الفارق ليس في عدد الصفحات . ستقول لي لا يمكن أن تكون هناك رواية من صفحتين ، غير ان القصة ، في المقابل ، تستطيع أن تكون في صفحة واحدة ، وربما في نصف صفحة ، وهذا صحيح . ان الحد الادنى هذا ، وبشكل مساو ، قائم بالنسبة للرسم . فمنظر مرسوم بالقلم يمكن أن يصغر الىسنتمترين مربعين، وحتى أن يرسم بتقنية المنمنمات . أما فيما يخص الصور الفوتوغرافية فانهــا تستطيع أن تصغر المشهد نفسه الى نصف سنتمتر مربع ، وهذه الحدود الدنيا ــ لاحظ بأن الامر لا يتعلق بالحدود العليا ــ تتأتى ببساطة من خصوصية التقنية في تنفيذ الانواع الادبية ، وهي نادرة في الممارسة . أنا لا أتخيل قصة فيسطر واحد ، وحتى لو كان ذلك قابلا للتحقيق ، فانه يغدو مخاطرة أو مراهنة ، وحتى لو كان الامر يتعلق بقصة من نصف صفحة فانه مخاطرة أيضــا ، والامر كذلك بالنسبة للرسم . اذن ، وتبعا للقاعدة العامة ، فان الفرق بين الانواع الادبية لا يتأتى في نظري من عدد الصفحات . افكر الآن بأعمـــال من ٢٠٠ صفحة ، ٣٠٠ صفحة ، وحتى من ٤٠٠ صفحة ، قراتها على انها روايات واعجبت بها ، وما أزال ، وكانت في الواقع قصصا ، وكم من أعمال لم تتجــاوز المئة او المئة والخمسين صفحة ، وحتى الخمس والسبعين أو الخمسين صفحة ، قرأتها كقصص وكانت في الواقع روايات . فما هو ، في هذه الشروط ، الفرق بين الرواية والقصة ؟ يبدو لي انه هو نفسه الفــرق، على سبيل التمثيل ، بين الرسم بقلم الفحم أو الرسم الزيتي أو المائي الخ.. ان علينا ان نبحث عن الفرق في التباينات ... وما هي هذه التباينات فــي نظري ؟ هذا ما سأحدثك عنه في رسالة قريبة ، ان هذا النهج أنت الذي بدات به . انه ليس سيئا : يقال انه حلقة من رواية .

سلام الى كل الاخوان هناك . ارغب كثيرا في رؤيـــة تشانكيري . افضل السهب على المنظر اللزج في بروصــه . السهب يجعلني جــادا ، متأمــلا ...

(دون تاريخ)

كمال !

.. في رسالتي الاخيرة كتبت ما مرّ بخاطري في موضوع الفروق بين الانواع الادبية : الرواية ، القصة ، القصة الطويلة ، والشعر .. لكن دون ان انتهي الى نتيجة . اتابع اذن : في ميدان الرسم ليس الحجم ولا الموضوع هما اللذان يصنعان الفرق بين الرسم بالفحم والرسم بالزيت أو الماء أو بالتقنيات الاخرى . يمكن أن يعالج الموضوع ذاته ، بالابعاد نفسها ، في هذه الانواع المختلفة . ان ما يصنع الفرق هو التقنية المستخدمة في كل نوع ، عند معالجة الموضوع ، انه اللون ، اضاءة الالوان الخ ... وهكذا ، عندما يعالج مشهد بالفحم ، فانه اللون ، التأليف بين الابيض والاسود ، وحدة هذين اللونين في المخطط الاولي لمشهد ما معطى . ان الالوان اكثر تعددا في الرسم بالزيت ، وثمة غزارة بالالوان في الرسم بالماء ، غير انها أخفّ . انها ليست كثيفة كما في الرسم بالزيت . والآن اذا طبقنا هذا المثل على الادب ، يبدو لي ان موضوعا تعالجه الرواية يعني التطور ، البناء الذي يعتمد على عدد من السطور الكثيفة ، في حين انه في القصة ، تنضفر السطور غير الكثيفة (أو الخفيفة) حول سطر واحد كثيف . هاك اذن لماذا لا يكون عدد الصفحات هو الذي يهم . فموضوع مبني حول سطر واحد كثيف ـ وكما قلت آنفا يستطيع أن يجمع حوله كمية من الاسطر الخفيفة ـ هو دائما قصة ، ولا يهم عدد الصفحات التي تستغرقها معالجة الموضوع ، وفي المقابل ، ان نفس الموضوع المبني على عدد من الاسطر الكثيفة ـ ويمكن ان يكون حوله بشكل مساو سطور خفيفة ـ والمعالج بعدد الصفحات نفسها ، يغدو رواية .

ملاحظة اخرى ايضا . ان عددا من القصص يمكن أن يتجمع حول موضوع واحد ، ولا يشكل مجموعها رواية ابدا . فواقعة ان السطور كثيفة في الرواية ، والاحداث متعددة ، ليست نتيجة جمع بسيط . فالرواية وحدة متميزة كيفيا . وبهذا المعيار ـ الذي احدده حالا وبشكل تقريبي ـ فان « تشاليكوشو » (١) لرشاد نوري هي قصة طويلة ، و « كيزيلجيك داللري » (٢) هي كذلك ايضا . و « الدون الهادىء » لشولوخوف ، مثلا ، بكل اجزائه هو رواية ، ولكن لو لم يكن منه سوى الجزء الاول ـ لان التقسيم

---

(١) رواية ظهرت عام ١٩٢٢ للروائي رشاد نوري ، وعرفت اقبالا كبيرا .

(٢) الحصان القرانيا ـ ظهرت ١٩٣٢ ، لرشاد نوري .

الى أجزاء هو تقسيم تقني الى حد ما ــ فان الكتاب لن يكون الا قصة (بالرغم من ان الجزء الاول يضم ٣٠٠ صفحة أيضا) .

لنصل الآن الى مسألة تحديد الواقعية . سألخص الموضوع على هذا الشكل : الواقعية الحديثة في الادب هي التطبيق الواعي للمادية الجدلية . وبالنسبة لهذا المفهوم الفلسفي ، فان العلاقة بين الروائي والموضوع علاقة حية . ان اعادة انتاج فوتوغرافية بسيطة للواقع هي ، اذن ، غير كافية . ودور الروائي يجب أن يكون حيا حسب هذا المفهوم ، ويجب ان يتدخل في الموضوع ، أعني في الواقع الذي يبحث عن ادائه . وعلى الوعي ــ حسب هذا المفهوم ، وبصورة دائمة ــ الا يقنع بعكس الحقيقة بشكل ميكانيكي . انه يعالجها ، يحللها ، ويعيد تركيبها ، وفي النتيجة فإن الكاتب الواقعي يحلل ويعيد تأليف موضوعه ، ويضمن له بناء معماريا وبنية يجهد كي يعطيها الشكل والتأليف الاكثر فنية . لهذا فان القصة التي تنشرها مجلة « آدم الجديد » لا دخل لها أبدا بالادب الواقعي .

أريد أيضا ــ ولكن بايجاز ــ ان أحدثك عن « النظم » . لقد قلت ، وانا أحلل هذا العيب ، ان أحد الاسباب التي قادت اليه ، هو الافتقار الى الاخلاص . لقد تكلمت انت أيضا عن الاخلاص ، وهذا صحيح ، ذلك ان من المستحيل أن يغدو ما هو مخلص « نظما » . ثمة غنائية في الاغاني الشعبية ، لكن بعضها يضيع صدقه ويغدو نظما . ولا حيلة لنا في ذلك . ثم هناك « نظم » صنع بمعلمية كبيرة ، بفن صائغ ، وخصوصا في أدب الديوان (١) . هنا نجد شعرا متحذلقا جدا ، ولكنه « نظم » ، ومع ان هذا النظم قد يصنع بموهبة ، الا انه لا يغدو عملا فنيا ، بل مأثرة أو مفخرة على الاكثر . أفضل استاذية في الفن هي الا تتبدى هذه الاستاذية التي يجب أن تكون وسيلة وليست هدفا في ذاتها . هكذا فقط نستطيع الوصول الى الاخلاص الفني دون مقدمات . الطفل الذي يرسم الكل من خلال المشهد الذي يراه ، هو مخلص ، لكن هذا الاخلاص لا يكفي ليجعل من هذا الرسم عملا فنيا .

لنعد الآن الى الواقعية . فيما يخص المادية الديالكتيكية ، ينبغي لنا ان نلاحظ الظاهرات المادية والروحية في حركتها العملية . والكاتب الواقعي ينبغي له ان يقدم الينا كل عمليات الموضوع الذي يعيد بناءه بشكل فني .

---

(١) شعر تركي كلاسيكي متأثر جدا بالادب الفارسي .

ستقول لي ان بلزاك كان واقعيا كبيرا ، غير انه من وجهة نظر فلسفية ، لم يكن له أية علاقة بالمادية الديالكتيكية . هذا صحيح ، ولكن ما يجعل بلزاك واقعيا ، هو كونه قد استخدم المنهج الديالكتيكي دون ان يشعر بذلك ، لانه كان أمينا للواقع ، ولان فرنسا ، في عصر محدد ، وبماضيها وحاضرها وبذور مستقبلها ، هي التي تنعكس في رواياته . في حين لا نجد كل هذا لدى زولا الطبيعي ، والفرق بين بلزاك الواقعي ، والكاتب الواقعي اليوم – كمال طاهر مثلا – هو ان الضرورة ، بالنسبة لهذا الاخير ، تقضي بأن يفعل بوعي ما فعله الاول بغير وعي . هذا هو السبب الذي يفرض على واقعية الروائي الواقعي الحديث ، أن تذهب بعيدا اكثر من واقعية بلزاك الملكي . ومثل بلزاك هذا نجده اليوم في ميادين كثيرة للعلم . ان كثيرا من البيولوجيين ، مع انهم يستخدمون في أبحاثهم المنهج المادي الديالكتيكي ، هم مثاليون رجعيون من وجهة نظر فلسفية ، وهم يحاولون مع ذلك ان يفيدوا من النتائج التي يحصلون عليها في أبحاثهم العلمية كي يبرهنوا على قيمة فلسفتهم الرجعية .

ونتابع شرح الواقعية حسب التحديد الذي أعطيته : بالنسبة للمادية الجدلية ، ليست الوقائع ، مجردات ، لكنها عينات ، وبالنسبة للكاتب الواقعي ، الامر بشكل مساو ، وبالنسبة للشاعر مثلا فان مشكلة الواقعي العيني يجب ان تكون قاعدة من قواعد الشعر الواقعي . بايجاز ، لقد ولدت الواقعية الحديثة من التطبيق الواعي للديالكتيكية المادية الفلسفية . واذا درسنا عن كثب هذا الموضوع فاننا نلاحظ ان الاسلوب نفسه قد خضع للتأثير . والسؤال : « ماذا ينبغي ان يكون عليه اسلوب الشعر الواقعي واسلوب الرواية الواقعية ؟ » محدد من وجهة النظر الفلسفية التي حدثتك عنها قبل قليل . غير ان علينا أن نضع حدا لهذا الموضوع الذي استطيع ، مع الاسف ، ان أتبسط فيه أكثر .

كتابك « رجال البحيرة » سيظهر في « التان » (١) . ناجي سادولا ، رفيق هاله ، اولوني (٢) ، تحدثوا عنه . لا تستطيع أن تتصور كم يجعلني هذا سعيدا . وحين قرانا اليوم الاعلان الذي نشرته الجريدة ، كنا ، بيرايه وانا ، فخورين جدا وسعيدين كما لو انه ولد لنا طفل . شكرا لانك ضمنتلنا

---

(١) مجلة اسبوعية تقدمية .

(٢) رفيق هاله كان روائيا وقاصا ، واولوني كان صحفيا .

هذا الفخر وهذا الفرح . انني لم أعرف الاستمرار البيولوجي . لي بالفعل طفلان أحبهما كثيرا ، لكنهما بيولوجيا ليسا من صلبي . لقد منحتني فرح الابوة « العقلية » ، وهذا التطور من كتلة جنينية ، الذي أدركته وهيأته ، اطال وجودي بكل وجودك . أشعر برغبة في أن أصعد الى مكان عال جدا واصرخ : « مؤلف «رجال البحيرة» الذي تعرفونه جيدا ، سيكتب أيضا كمية من الاشياء الجميلة . وكل هذا انا الذي غرست بذوره فيه » . ان الابوة البيولوجية ينبغي أن تكون شيئا من هذا القبيل .. وهذا يفسر دون شك لماذا يكون الاطفال كلهم عنقاوات في عيون أمهاتهم ... ولا يتعلق الامر هنا باحساس افلاطوني ، ولكن بالتعبير الواقعي جدا عن الصراع من أجل الاستمرار ، وانتصار النوع ، وانتصار الجنس ، والعرق البشري .

افهم الآن لماذا انا مشغول بمجموعة من الفتيان لا تساوي شيئا مع الاسف ، مثل : نائل وآخرين أيضا . وافهم كذلك لماذا انا محكوم بأن استمر في هذا الجهد ، فالامر لا يتعلق هنا بمشاعر تدعى غيرية ، باكتشاف المواهب الشابة ، والرغبة في مساعدة الآخرين ، لكنه يتعلق بصراع من أجل استمرار النوع والجنس . انك تعرف هذا التعبير : « القدرة على الموت والاعين مغمضة » ، اذ تختبىء فيه غريزة حيوانية مخيفة ـ ليس بمعنى الانتقاص ـ انها نفس الغريزة التي تجعلني أقول : أستطيع أن أموت مغمض العينين . لكن يتوجب عليك أن تعمل بجهد اكبر يا كمال ، وانت تعمل اكثر .

لا أعرف كيف ستجد القصة التي بعث بها اليك رشيد كمالي . انه يكتب الآن قصة ستكون جيدة بالتأكيد . وحين تسمح الظروف ـ اذا كانت ستسمح ـ ففي حسابي أن ألقي عليه هو الآخر قنبلة اخرى بعدك . انه أيضا شاب وتعوزه التجربة . ان عليه قبل كل شيء أن يتعلم لغة أجنبية . انه يتعلم الفرنسية ، وخلال سنة أو سنتين من الآن ، اذا سار كل شيء بشكل جيد ، سيولد كاتب جيد .. لنأمل في أن يسير كل شيء على ما يرام . سلامي الى مديرك ، اقبلك اخي .

(٣ ـ ٣ ـ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

تلقيت الصفحات العشرين من قصتك « ساجيدير » . انتظر الباقي بلهفة وفضول . لقد قررنا الا نعطيك رأينا الا بعد أن نقرأ نحوا من اربعين صفحة .

نشر « رجال البحيرة » في « التان » يتقدم بسرعة ، وسيظهر في المكتبات قريبا ، لانهم ينشرونه على أعمدة طويلة الى هذا الحد .. انني أجنّ من الفرح . أقرأ بنهم ، بلذة ، باعتزاز .

ننتظر نصيبنا ، وحين تأخذ ثمن كتابك الاول الكبير هذا ، ستبعث الينا بالدبس أو العسل ، أو لا يهم اي شيء . بيرابيه تفضل العسل وأنا افضل الدبس .

أرسلت اليك صورتين اخذناهما هنا ، أنا جميل ، أليس كذلك ؟ أسد حقيقي كما ترى .. ابراهيم من قرية « يايالار » الفاتن الماكر ، امين بك امبراطور الصين ، رشيد كمالي الذراع الضخمة ، واخيرا اورتوغول وديمتري . الكل يضحكون . انها الانتصارات اليونانية الاخيرة ، تجعلهم مرحين بهذا الشكل .

انبئك سلفا بأن هذه الرسالة ستكون قصيرة . فاذا وضعت عددا من الوريقات في مغلف ، ينبغي أن أحشوه أيضا بصورتين فوتوغرافيتين ، ستزداد نفقات الطوابع ، وبما ان العلاج بالمياه المعدنية قد أحرق ميزانيتنا ، فقد غدوت مهتما بقواعد الاقتصاد .

اليوم أيضا كرست نفسي للرسم . لقد اعددت للمعرض المقبل ــ لا تفاجأ ، سأنظم معرضا أنا أيضا ، وأنافس الفنانين التشكيليين بصفتي شاعرا رساما ــ منظرين ووجهين . ولكن منذ الغد سأعود الى الشعر .

(١٣ ــ ٣ ــ ١٠٤١)

كمال !

.. اليك ما قالته لي بيرابيه بعد ان قرات الصفحات الستين الاولى من روايتك « ساجيدير » : « انها جميلة جدا ، وهامة جدا ، قرأتها كلها بشغف ، وتعلمت منها أشياء كثيرة . غير ان كمال مستعجل دائما ، وهذه العجلة تكشف نفسها في الرواية . انه لا يترك للقارىء فراغا كي يقراها بهدوء .. وهو يهضم كل شيء .. لديّ بعض الملاحظات سأقدمها اليه .. سأكتب له بنفسي » . ولم أسألها ماذا في نيتها أن تكتب اليك ، كيلا أؤثر على آرائها . لكن مهما كتبت فان الانطباع الاول لديها كان هائلا . لقد كانت على درجة من الحماسة ، هي ذاتها الحماسة التي كانت عليها عندما نصحتك أن تقرأ رواية « الأم الصينية » ، هل تذكر ؟

عليّ ، قبل كل شيء ، أن أتوقف عند بعض التفاصيل :

آ ــ الحوارات الاولى بين وحيد ومصطفى واسماعيل اللص طويلة .

ب ــ وقوف مصطفى الى جانب نائل وخيانته لوحيد مفاجيء جدا ، الى حد يجعل القارىء يفاجأ مفاجأة كاملة .

ج ــ حين كانوا أمام منزل الفتيات سمعوا طبلة السحور ، وبعد قليل راوا حرس الغابة وقد انهوا طعامهم وناموا بعمق ، اذن فالزمن بين الحادثتين قصير جــدا .

د ــ نفهم بعد ذلك بوقت طــــويل ان شهرين قد مرّا بين الواقعتين المرويتيــن .

هـ ــ تعليقات اسماعيل اللص حول الطبيب والصيدلي ورئيس الحرس تتكرر . فاذا كانت هذه التكرارات مقصودة كي تؤكد الفكرة الثابتة ، فقــد كان يجب أن يلحّ عليها بشكل آخر تماما .

هناك أيضا ، بضع أخطاء صغيرة من هذا النوع ، ستلحظها بنفسك لو أعدت قراءتها مرة أو مرتين ، لكن هذا كله تفصيل ، فلنصل الى ما هو جوهري :

ا ــ نلاحظ فورا ان الكتاب يبدأ بقصــــة ، وقد حكم عليــه أن يظلّ كذلك . الكتاب ناجح كقصة وجدير بك في رأيي ، شريطة ان يتوازن عــدد الصفحات ، لكنه ليس رواية . تستطيع ، يقينا ، أن تجعله في ٣٠٠ صفحة، ونستطيع ان نقدّر ، ونحن نحاكمه بعدد الصفحات ، ان الامر يتعلق برواية. ثمة روايات كثيرة صممت هكذا . ففي الادب الفرنسي مثلا ، بعد الحرب العالمية الاولى ، كانت هناك قصص قصيرة نفخت حتى بلغت ٢٠٠ و ٤٠٠ صفحة ، ووصفت بأنها روايات . وبالمناسبة ، هنــــاك ملاحظة : اذا كانت بيراييه قد شعرت بأن هناك سرعة في كتابك ، فذلك لانها شرعت بقراءته على انه رواية . ولو انهــا قرأته على انه قصة ، فلن تلحظ هذه العجلــة ، وقد سألتها ما اذا كانت هذه العجلة ، في هذه الرواية ، هي نفسها العجلة في رواية الام الصينية التي اعجبتها الى حد بعيد ، فقالت : نعم ، وأضافت : « لكن هذه السرعة غير موجودة عند شولوخوف مثلا » وهذا أمر أكيد ، لان « الارض المستصلحة » هي رواية بينما « الام » الصينية قصة صنعوا منها روايــة بالقوة ، وهذا كل شيء .

ب ــ لنتكلم بشكل محسوس . احدى الصفات المشتركة بين الرواية والقصة والحكاية ، هي اننا نقراهــا باهتمام وفضــول . انعملا لا يقــرا

بفضول ، ونهايته لا تهزك ابدا ، ليس رواية ولا قصة ، والنتيجة ، ان كون « ساجيدير » تقرأ باهتمام فذلك لصالحك ، لكن هـذا ليس خصوصية تجعل منها روايـة .

ج ـ قلت لك في احدى رسائلي ان الفرق بين الروايـة والقصة لا يأتي من عدد الصفحات ، بل من البنية ، من توالد نسيج العمل موضوع البحث . وسيكون اسهل علي ان اشرح مشكلة السطور الكثيفة ،باستخدام صورة النسيج والحبكة . ان مـا تحتاجه « ساجيدير » فـي نظري هـو النسيج والحبكـة .

١) في اطار اسرة وحيد ونائل ، ينبغي ان تكون الكراهية والانحـلال والتفكك بين الاشخاص الذين يشغلون أوضاعا اجتماعية مختلفـة ،فـي النسق الاول ، بمقدار ما تكـون كذلك الروابط العاطفيـة بيـن مصطفى وبهار وعائشة ، او الخصومة بين وحيد ونائل . اسماعيل اللص يستأثـر باهتمامنـا منذ الصفحات الاولى . كان يمكـن ان نستشعر الاهتمـام نفسه ـ وربمـا اهتمامـا اكثر حدة ايضا ـ نحـو الصراعات الموجودة في اسرة وحيد ونائل . ان هذا الخط كـان يجب ان يرسم بمقدرة اكبر وليس كمغامرة بسيطة ، كعنصر مرتبط بالمنافسة الغرامية بين نائـل ووحيد . وكون هذا الخط لم يبرز ، ولان كل هذه الشروح حول خصوصيات العائلة قدمت الينا في جملة او جملتين فقط ، فـان هذا يجعل منه خطا ثانويـا، ويجعل من ساجيدير تبدأ بنسيج قصة .

٢ ـ في كـل ما قراتـه مـن « ساجيدير » حتى الآن ، فان العمود الفقري ، العنصر الذي يوقظ الاهتمام والفضول هـو العلاقات الجنسية ، وقد قلت ذلك بنفسك ، والى جانب هذا العنصر الاساسي ، اذا كان نمو الصراعات والخصومـات بين اطراف الاسرة المختلفة قد استطاع ان يشكل عمودا فقريا ثانيا ، يوقظ الاهتمـام ، فان « ساجيدير » كانت ستكتسب عمودين فقريين ، سطرين كثيفين ،وستقترب اكثر من الرواية . ومع ذلك فان مـا انتظـره منك هـو روايـة حقيقية تمتلـك اربعة او خمسة اعمدة فقرية ، اربعـة او خمسة عناصر تستطيع ان توقظ فضول القارىء .

٣ ـ لو كان لساجيدير نسيج روايـة ، لعولجت العلاقات بيـن وحيد ونائل ومصطفى ، والتحولات الحاصلة في نفسية مصطفى بقوة وبكل العناصر المحددة لها . فنفسية هذا الفتى المنتمي الى اسرة فلاحيـة محددة تماما ،

النفسية التي ستقوده الى ان يشي برفيقه وحيد ، كان يمكن ان تقدم لنا لا كدراما كبيرة ، ولكن كظاهرة جديرة بالاهتمام .

٤ ـ هاك مثلا . ثمة مغامرة مهمة جدا ومثيرة للاهتمام ، تلك التي تتعلق بالهاتف في قصة ـ في نسيج وحبكة قصة ـ الفلاح الصغير الذي يهتف المرة الاولى في حياته . ان هذا الفلاح ينبغي ان يقدم في هذا الاطار . غير انه من اجل حبكة رواية، لا ينبغي ان ترسم هذه الحادثة بسطر واحد خفيف ،لا ينبغي ان تكون ذكرى بسيطة . يجب ان تلح على الحادث على انه حادث وليس ذكرى بسيطة .

٥ ـ العمل منسوج نسيج قصة .. انه يقدم بشكل جيد الشروط من اجل قصة ، بحيث ان الخصوصيات المحلية ، والعلاقات مع الخزينة الخ .. ـ كل ما قصدته بيرابيه بقولها ان الكتاب علمها اشياء كثيرة ـ لا يندمج في العمل عضويا أبدا ، بل يبقى في خلفيته ، في تقنية القصة . هاك مثلا آخر : في نسيج الرواية ، يقدم عشاء الفتيات مع بعضهن عشية العرس ، مشهدا مهما يقصد بتفاصيله ولا يكتفي باعطاء بعض الشروح بشكل عابر ، غير انه في نسيج قصة ما ـ النسيج الذي استخدمته أنت ـ يكون صحيحا ان يقدم هذا العشاء مع اقاصيص « باشاكا » ورابطة الحرفيين كما فعلت دون تفاصيل، وكما يتلاءم مع حبكة القصة .

٦ ـ باختصار ، لا اعتقد ان « ساجدير » تستطيع تحت هذا الشكل ان تغدو رواية . انها جميلة ، على الضبط كقصة ، حتى لو كتبت في٤٠٠ صفحة فوق ذلك .

والجانب الاشد استرعاء للانتباه، او الخصوصية الابرز، هي خصوصية الحوار ، الجرس كان رائعا . تهاني . لقد اديت اللغة الريفية في ضواحي تشانكيري دون ان تسقط في التقليد او اسلوب الحكواتي . وانها لصعوبة كبيرة تلك التي تجاوزتها ، مرحى !

أفكر في هذا : احدى السمات الاكثر أهمية لدى الكتّاب الذين اعطوا اعمالا عظيمة حول طبقة الفلاحين ، امثال تولستوي ، تشيخوف ، غوركي ، شولوخوف ، هي انهم استطاعوا ان يفهموا ويصفوا لنا الازمات، الاعماق التي نجدها عند الفلاح كما عند المثقف تماما،تحت ظاهرات مختلفة لكن بنفس الحد ، وغالبا بتعقيد اكبر مما نجد لدى البورجوازي الصغير المتعلم . الفلاح في رايي ، في كل سافات الطبقة الفلاحية المختلفة ، هو

كائن ، أغواره النفسية عميقة جدا ، ومعقدة جدا ، وبعيدة عن أن تكون بسيطة ، فكان يجب أن تلحّ على هذا . الفلاح في أدبنا لم يقدم الا من خلال السطح دائما ، دون أية أعماق . والفلاح ، في الادب الفرنسي ، كائن تبرز لديه وحده غريزة التملك ، في حين ان تولستوي كان مجبرا أن يقدم الفلاح الروسي بكل ردود أفعاله المتأتية من روابطه بالارض ، ومن أجل هذا قلنا عنه انه « الكونت الذي يعرف الفلاح بشكل افضل » . اما لديك انت ، فان الدراسة النفسية للفلاح في العلاقات بين الجنسين تغدو اكثر نموا . لقد تحدثنا عن ذلك طويلا ، ولكن ينبغي أن تجبر نفسك على تقديم المظاهر الاخرى للفلاح بنفس القوة ، وهي مظاهر ذات أهمية مماثلة، بل حتى اكثر أهمية أيضا .

ومما قرأته حتى الآن ، تستطيع « ساجيدير » أن تبقى كما هي ، غير انه اذا تغير النسيج ، وعاش الاشخاص الاحداث نفسها في نسيج رواية ، ففي وسع « ساجيدير » أن تغدو رواية ، ولكي تصبح كذلك ينبغي في رأيي وضع الاحداث التي بقيت في الظل ، في الضوء . وانك تخدع نفسك اذا تخيلت انك تستطيع أن تصنع ذلك فيما بعد . انت تعرف جيدا ان الامر لا يتعلق هنا باضافة بسيطة ، بل بصفة مختلفة ، بنسيج آخر .

نقطة ، أو نقطتان أيضا ، ذات اهمية ثانوية ، لكن لا يستغنى عنها حتى من أجل قصة . لقد قرأت حتى الآن نحوا من أربعين صفحة ، ولم أعرف أي شيء عن بيوت القرية ، أجهل حتى مظهرها الخارجي ، ولا أعرف أي شيء عن أسلوب لباس الرجال ، باستثناء القبعة أو البنطال ، كذلك هي الحال بالنسبة للحيوانات ، فالحيوانات المسروقة في مجرى السيل ، وباستثناء حجم التيس ، ليس لدينا اية فكرة عن مواشي القرية، وما اذا كانت كبيرة ، معافاة ، أم لا .

يبدو لي ان أحد الاسباب التي تمنع « ساجيدير » من تجاوز اطار القصة ، هو انشغالك في تجنب كل تماثل مع الرواية التي شرعنا في كتابتها معا . الحق معك . ليس من السهل في السجن ، واستنادا الى الملاحظة ببساطة ، أن تكتب ، بلا انقطاع ، روايتين تعالج كل منهما منطقة تشانكيري ولا تتشابهان أبدا .

او كنت مكانك لختمت « ساجيدير » بنفس الايقاع ، على انها قصة ، وستكون بذلك أول قصة لحياة القرية ، كتبت بوعي على انها

قصة ، وجرى التحديد في نشرها على انها قصة ، وعندئذ نرى ، للمرة الاولى ، ما هي القصة .

تحياتي الى المدير . أقبلك بشوق . ارغب كثيرا في رؤيتك ، يا كمال ، يا أخي .

(٢٦ – ٣ – ١٩٤١)

عزيزي كمال !

.. قرأت « المنفى » لرفيق هاله . هذه ليست رواية بل قصة . هذا اولا . وهي رديئة ثانيا . الكاتب يفتقر حتى الى المعرفة الضرورية ، الاشد أولية ، كي يتمكن من كتابة قصة . انه يكتب الآن كما كان يكتب الرومانسيون الفرنسيون ، وأشدهم رداءة فوق ذلك . أنا لا أقصد زولا أو موباسان ، فهو غير مؤهل لان يكتب مثلهما أبدا ، فلديه يرتبط تكنيك بول بورجي بفن الرواية الفرنسية الاكثر عامية لما بعد الحرب . وأسلوبه يؤسي . وثمة أوصاف وصور مخربشة هنا وهناك .. وليس هناك ، على الاغلب ، أي رابط عضوي بين الوسط والشخصيات والاحداث ، فالشخصيات لا تحيا بتاتا ، انها مصطنعة . وبايجاز ، انها رواية رديئة جدا ، رديئة الى الحد الذي يجعل الكلام عنها غير مجد .

بعد أن قرأت هذه « الرواية » غدوت يا كمال أغلى في عينيّ ككاتب ، وأعزّ على قلبي ، فتشجع . انني لا أبادل فصلا واحدا من « ساجيدير » مقابل « المنفى » بكاملها . صباح الدين علي (١) ، وحتى هذا الشاب ، ماذا يدعى ، سعيد فائق (٢) هما روائيان وقصاصان أفضل من رفيق هاله .

بخصوصي ، أنا أسترخي في كسل مخيف ، لا أرسم أبدا ولا أكتب . أقرأ ببساطة . لقد أعوزتني القراءة منذ زمن طويل . أود أن أقرأ دون انقطاع ، لكن عينيّ متعبتان ، أعالجهما بالقطرة .

لم أرسل اليك الشهر الماضي سوى خمسة كتب . أنا حزين لذلك . انها استحالة مادية ، والله يعلم كم أعوزك المال أنت أيضا .

---

(١) صباح الدين علي (١٩٠٧ – ١٩٤٨) روائي مشهور ، مات قتلا وهو يحاول مغادرة تركيا سرا .

(٢) سعيد فائق (١٩٠٦ – ١٩٤٥) روائي وقاص ، ذو موهبة كبيرة ، جود فن القصة في تركيا .

ستعود بيرايبه الى استانبول اليوم او غدا . هكذا تمضي الحياة . وداعا وحظا طيبا .

(٨ ـ ٤ ـ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

يتوجب عليّ ، قبل كل شيء ، أن أقول لك انني حزين لانك تخليت عن « ساجيدير » . أنت مخطىء . عد اليها فورا . عليك أن ترسل لي ١٥ صفحة في الاسبوع . أنت تبحث ، دون شك ، عن حجة كي تترك كل شيء يسقط . هذا مستحيل . لن أرضى عن ذلك مطلقا . ينبغي أن تنجز « ساجيدير » .

الفلسفة تهمني من جديد . قرات كل الاعمال الفلسفية التي وجدتها . يبدو ان هناك رواية لديدرو منشورة عام ١٨٦٢ تدعى « ابن اخ رامو » . لم أسمع أحدا يتحدث عنها . كم من الاشياء أجهل . ألوم نفسي بشدة لاني جاهل الى هذا الحد . لقد قال انجلز عن هذه الرواية انها « افضل انجاز للديالكتيك ، وقد ترجمها غوته الى الالمانية . حسنا ، أنا مستعد ان اعيش شهرا على الخبز الجاف كي أتمكن من قراءة رواية ديدرو هذه . ان اعتماد الديالكتيك في هذه الرواية ، وبشكل عبقري حسب قول انجلز ، مسألة هامة . سأكتب الى بيرايبه طالبا منها ان ترسل لي هذا الكتاب اذا وجدته في مكتبة « هاشيت » .

لقد التقيت برفيق هاله مرة على ما اعتقد ، حين كنت يافعا ، ولم اتخيل ابدا انه يمكن أن يهتم بي وبأشعاري ، وحتى أن يعرف انني شاعر . لقد كتب على نسخة « المنفى » التي أرسلها اليّ هذه الكلمات : « شاعرنا الكبير ، عزيزنا ناظم حكمت » . لقد رجوت ناجي أن يطلب نسخة من رفيق هاله ، وربما من أجل هذا كتب المعلم اهداء فيه هذا التحبب وهذا الاطراء . وأعترف لك بأنه لم يتعسني أن أعلم ان رفيق هاله يتذوق شعري ، وان كنا ، هو وأنا ، ننتمي الى عالمين مختلفين الى الحد الذي يجعل من ضمير التملك « نا » في شاعرنا يسبب لي بعض الاستياء .

تحدثنا يوما ، بيرايبه وأنا ، عن مناخ بروصه وتشانكيري . قالت لي : « أنت عذب كسهل بروصه حيث ينمو كل شيء بيسر . تستطيع أن تكتب كثيرا بقليل من العناء . ومن أجل هذا فان مناخ تشانكيري المناقض تماما « لنفسك » يروقك كثيرا . أما أنا فانني قاسية كمناخ تشانكيري ،

ومن اجل هذا احب مناخ بروصه ، ولهـــذا احببنا بعضنا » . هل هذا صحيح ؟ لا اعرف شيئا .

بين نواقصي نقيصة تحزنني كثيرا ، هي جهلي في العلوم الطبيعية ، في الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا الخ ... وانها لفضيحة . مع ذلك فهذه النقيصة موجودة عند كل الذين هم في صفنا ـ أتحدث عن المثقفين الاتراك. اقرأ الآن المادية والنقد التجريبي باللغة الفرنسية ، ومعارف الكـــاتب في مجال العلوم الرياضية توحي لي بالاحترام . علينا ، في أقرب وقت ، أن نتمم هذه النواقص نحن ايضا ، لان لديّ انطباعا بأنك اكثر جهلا مني في هذا المجال . وبالنسبة للكتاب الذين يريدون تطبيق علم المادية الجدلية في الفن ـ وبالنسبة لكل أولئك الـذين يريـــدون تطبيقها في علم الاجتمـاع والفلسفة ـ تصبح نقيصة كبيرة ألا يعرفوا عن الاكتشـافات ، وحتى عـن احدثها ، في مجال الرياضيات . وهذه النقيصة تقارب اللامبالاة نحو المادية التاريخية ، اذ يستحيل أن تعرف بحق واستيعاب الفلسفة المادية الجدلية دون أن تعرف العلوم الرياضية . ويستحيل أن تكون كاتبا واقعيا بالمعنـى الحديث للكلمة دون أن تفهم الفلسفة المادية .

لقد تجاوزت الخوف من أن اشيخ ، أو انني على الاغلب تعودت هذه الفكرة ، وأعتبر نفسي كما لو كنت شابا الى حد بعيد .

.. يستحيل عليّ أن انسى الرجال الذين ارتبطوا بذكرياتي عن النضال والايام السيئة . في تلك اللحظات أحب حتى النماذج الاشد غرابة .

(١٥ ـ ٤ ـ ١٩٤١)

كمال !

... انت همي الوحيد في العالم .

سيكون حسنا أن تعطي ، في « ساجيدير » وحتى بتفصيل ، ظروف حياة أسرة خوجه ، وتولي اهتمـــاما للارث ومراسم المأتم . بامكانك ان ترسلها الى أولوش (١) أو الـــى فالح رفقي (٢) أو الى « التان » ، ولكن عليك ان ترسلها قبل ذلك اليّ ، وسيكون حسنا ان نناقشها معا . ما أريده هو ان يشكل نشر كل كتبك حدثا حقيقيا . وأستطيـــع ان أصنع منهـا شيئا جيدا .

---

(١) مجلة اسبوعية لحزب الشعب الجمهوري .

(٢) أحد مساعدي اتاتورك المقربين . صحفي وباحث ذو موهبة (١٨٩٤ ـ ١٩٧١) .

ان كتابة رواية هو واجبك المطلق . كنت على حق في أن تقرر كتابة روايتك في سلسلة « الحي الهادىء » ، غير ان عليك أن تغير هذا العنوان الذي يذكر كثيرا « بالدون الهادىء » .

ما أزال أتابع قراءة الاعمال الفلسفية . أما فيما يتصل بالكتيبات فسأرسلها اليك بغير انتظام ، حسبما أقرأ منها . حصلت على كتاب جيد في الفلسفة . آخذ ملاحظات . في رسائلي المقبلة سأشرع بارسال الكتب اليك بالتدريج . ثم سأجد خلاصات قصيرة حول بعض المذاهب الفلسفية وأرسلها اليك .

كنت قلقا من صمتك ، ثم علمت من الراديو بالهزة الارضية في تشانكيري . أبرقت اليك .. أنت تعلم مقدار قلقي في حالات كهذه . أرجوك ألا تتأخر من الآن فصاعدا بالكتابة اليّ ، بحجة انك لا تجرؤ أن تقول لي ان أشعاري رديئة . الشعر ، انني أبصق عليه ، اذن .

(٢٩ – ٤ – ١٩٤١)

كمال أخي !

.. لقد لاحظنا من قبل ، اننا عندما نكون في السجن نهتم أكثر بالاحداث ، ونكون أكثر تتبعا لها من أولئك الذين في الخارج ، ليس من خبر ولا أخبار لا نعرفها ولا نستطيع أن نتنبأ بها . راديو انقرة يعطي كل الاخبار العالمية بأمانة . يكفي أن نصغي الى الاخبار كي نفهم كل ما يجري ، وحتى كل ما **سيحدث** . ألاحظ ان الذين هم في الخارج لا يصغون أبدا للراديو بانتظام **كما نفعل نحن** . ثمة أشياء كثيرة كي يعمل الانسان في الخارج ، **مما يجعل الناس** يضيعون في تفصيلات الحياة . أريد أن أقول ان سجيننا **يقرأ الصحف** ويصغي الى الاذاعة ويمتلك حسا سليما ووضوحا في المحاكاة ، **هو من هذه الوجهة** ، أكثر حرية ، ويستطيع أن يفهم الامور بشكل أفضل . ربما كنت **أبحث** عن عزاء لنفسي ببساطة ، ولكن ثمة شيئا من الحقيقة في هذا العزاء .

... الكتّاب الذين ينتقلون من الشعر الى النثر الى الرواية الى القصة ، « يصوغون » في البداية كل جملة بالعناية التي نمنحها لبيت من الشعر ، وبالاهتمام الشديد للمفهوم القديم للبيت المستقل . غير انهم يتخلون عن ذلك رويدا رويدا . ذلك ان مفهوم الجملة البراقة ، والمقطع البرّاق في الرواية والقصة قد اختفى اليوم ، كما اختفى من المسرح مفهوم

الاسهاب الخطابي . اننا نصادف لدى تولستوي في « الحرب والسلم » وفي « أنّا كارانينا » مقاطع برّاقة منفصلة عن بقية العمل (واختيار هذه المقاطع هو بشكل طبيعي مرتبط بمفاهيم اجتماعية ، وهكذا فبالنسبة لفئة اجتماعية ما ، المقطع الاكثر « بريقا » من « أنّا كارانينا » هو مقطع الانتحار، وبالنسبة لفئة أخرى هو الذي يتناول الزراعة والغاب) ، نعم ، ففي هذه الروايات نلاحظ كمية من المقاطع المجسمة ، ولكن تولستوي عندما بنى روايته لم يبنها من أجل هذه المقاطع .

.. بيت الشعر المقطع ، القطعة ، كلها لا تشكل المهاد ، نقطة الانطلاق. اننا لا ننتظر أبدا من الجملة ، من بناء الجملة ، من البيت ، من القطعة ، اعني من الشكل ، أن يحدد المهام ، المضمون . ذلك اننا نعرف ان المضمون هو الذي يحدد الشكل . واذن ، أليس للشكل اثر على المضمون ؟ نعم ، أكيد ، ولكن كميا . فالابيات والجمل والمقطوعات التي « تنفصل » عن باقي العمل ليست الا مظهرا لهذا الاثر الكمي ، واذا كانت الجمل كلها في رواية ما أكثر « بريقا » بعضها عن بعض ، فاننا نبتعد عن الواقع . ففي الواقع ثمة « الخابي » و « البرّاق » ، ومن لقاء الضدين ، « الخابي » و « البرّاق » ، يولد الواقع .

(٧ ـ ٥ ـ ١٩٤١)

كمال ، أخي !

تلقيت ، على التوالي ، البرقية التي تعلمني فيها عن حاجتك الى المال ، هذه البرقية التي أصابت صميم قلبي ، والبرقية التي انبأتني فيها بانتقالك الى « مالاطيه » .. وقد كتبت الى كثيرين راجيا أن يسعوا لنقلك الى سجن بروصه .

.. بيرايه بكت حين علمت انك لا تمتلك شيئا .

.. انا لا اكتب البتة قصائد ، لكنني اصنع ما هو أفضل : اقرأ بانتظام ، في الفلسفة على الخصوص . أحاول أن أنمي معلوماتي العلمية . ومن حين لآخر ، وعلى ندرة ، أرسم .. وجدت قصائد ماياكوفسكي المطبوعة عام ١٩٤٠ مجموعة في مجلد واحد ، وأنا أقرأها الآن .

سأعترف لك هذا الاعتراف ولا تذكره البتة لانسان : أتعرّف من جديد على ماياكوفسكي . وبمعزل عن بعض القصائد التي سمعتها تتلى قديما ، فهذه هي المرة الاولى التي اقرأه فيها . اما بخصوص مفاهيمه عن الفن ،

فأؤكد لك وأنا آسف ، انني لا اعمل شيئا سوى اكتشافها . غير ان القاعدة التي تقول ان الظروف الموحدة تولد الافكار نفسها ، تبـدو مؤكدة ضمن سطوره العظيمة . واذن ستعذرني اذا أكدت لك قديما ، وببساطة سببهـا اختلاط الامور ، انني عرفت ماياكوفسكي وعمله ، في حين انني كنت أجهله جهلا كاملا . وأخيراً فقد أدينا العمل نفسه ، ماياكوفسكي وأنا .. مـن المؤكد انه أداه بشكل افضل ، وفي ميادين كثيرة ، لكن ما جدوى أن نلعب لعبة التواضع . ففي ميادين أخرى ، ورغم انها أقل أهمية ، فقد أديته أنا بشكل أفضل .. هكذا .. لقد قصصت عليك كل هـذا ، وليس على أحد سواك ، وللمرة الاولى والاخيرة دونما شك .

لا همّ لي الا انتظار وصولك ، والبرقية التي تحمل اليّ هذا النبأ . بودي لو أتلقى ، ولمرة واحدة ، خبرا جميلا برقيا .

(٢٠ ـ ٥ ـ ١٩٤٥)

كمال !

هذه رسالتي الثانية الى « مالاطيه » . اصغ اليّ جيدا : كتبت اربع رسائل الى ناجي ، الواحدة بعد الاخرى ، في موضوع نقلك الى بروصه .

ستكتب على الفور التماسا موجها الى المديريـة العامة للمؤسسات الاصلاحية ، تطلب فيه نقلك الى بروصه وتقول فيه : ١ انك مريض ، وان المناخ في مالاطيه لا يناسبك مطلقا ، وانك حصلت قديما على فترة حريـة مشروطة بسبب المرض . ٢ ـ وتقول أيضا ان لك عمة مقيمة في بروصه بامكانها أن تعتني بك وتقضي لك حاجاتك .

ابعث بهذا الالتماس الى ناجي سعد الله الذي سيتابع الموضوع .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

... سأقص عليك شيئا مضحكا : أقرأ الآن لخالـدة أديب « تاريـخ الادب الانكليزي ، منذ البداية وحتى العصر الاليزابيثي » . ثمة شاعر مولود عام ١٣٣١ أو ١٣٣٢ في الجنوب الغربي من انكلترا ، اسمه وليم لانكلاند ، أحد رواد الثورة الديمقراطية البورجوازية . وعمله الاكثر عبقرية وأهمية ، ذلك الـذي كان له ـ حسب رأي خالدة أديب ـ اكبر الاثر عـلى الادب الانكليزي ، هو قصيدة عنوانها : « حلم الفلاح المزارع بيير » . شرع لانكلاند

بكتابته عام ١٣٦٦ ، وظلّ عبر حياته كلها يعمل في هذه القصيدة . العمل يبدأ بمناجاة ، ويصف « المكان المغطى في العالم » الذي هو ، بالنسبة اليه ، رمز الكون والذي يتغير دون انقطاع . يصف لنا الاشخاص الذين يتواجدون في المكان واحدا بعد الآخر ، بعضهم يفلح الارض ، ونادرا ما يجدون فرصة للتسلية ، والآخرون يبذرون ويكسبون بعرق جباههم المال الذي يسرقه الكبار كي يبددوه . بعد هؤلاء يأتي الذين يختالون في ثيابهم الجميلة ، والنسّاك ، والباعة المتجولون ، وشعراء التروبادور ، والمشعوذون ، وباعة الترهات ، وكمية من الحجاج المزيفين ، مع غصن نخيل في الايدي أو دونه، والرهبان المتنسكون ، الذين زهدوا في العالم ، كل أولئك يروحون ويجيئون في هذا المكان . . فجأة يتغير الديكور ، ويظهر الملك وفرسانه ، وهلم جرا. خالدة أديب توقفت عند الفرسان . . وبرغم الفارق في الاسم ، والديكور ، فهذه اللوحة المتخيلة من القرن الرابع عشر تصف لنا جيدا الحقيقة : « القرن الرابع عشر في انكلترا هو من وجهة نظر اجتماعية عصر توحدت فيه اللاعدالة مع المغامرة . ان لانكلاند الذي يرسم البؤساء ببطونهم المجوفة وظهورهم العارية ، بآلاف فضائلهم وآلاف رذائلهم ، ترك لنا كوميديا الهية عن الفقراء » .

سأشرح لماذا اكتب لك كل هذا . اولا لانني كتبت بعض أشياء سأضع لها هذا العنوان « تاريخ القرن العشرين » . وقد اردت قديما أن اصنع منها قصيدة مستقلة ، قصيدة عظيمة ، ثم أدخلتها اخيرا في بينرجي » (١) . . أنت تذكر ان الشخصية تذهب الى السينما ، وهناك تشهد مواكب من طبقات اجتماعية مختلفة . تبدأ القصيدة على هذا الشكل : القابلة سحبتني من جنبي أمي ، وقمطتني ببطاقة سينما . الحلم عند لانكلاند ، والسينما عندي ، ومكان ممتلىء بالناس عنده ، وصالة سينما وشاشة عندي ، خصوصيات القرن الرابع عشر والقرن العشرين . واذا ما وضعت التقنية جانبا ، فالقصيدتان بنيتا على المبدأ نفسه . شاعران ثوريان من طبقتين مختلفتين وايديولوجيتين مختلفتين ، ولكن المحتوى هو ذاته ، اعني انه يتعلق بوصف المجتمع بأسلوب رمزي في عصر محدد ، بطبقاته الاجتماعية وسماته المميزة .

تلك هي النقطة الاولى . فأنت تعلم انني شرعت بكتابة قصيدة عنوانها « هم ، هو ، ومغامراتهم » ، وتعرف موضوعها ، وتعرف كذلك « موسوعة

---

(١) قصيدة كبيرة لناظم حكمت .

الرجال العظام » وموضوعها . اليك النتيجة التي استخلصتها : في القرن الرابع عشر اختار شاعر ثوري المجتمع بالمعنى الاشد اتساعا كمحتوى شعري اكثر اهمية . في القرن العشرين ، الشاعر الثوري ، الذي ينتمي الى طبقة ثورية مختلفة ، يدور حول الموضوع نفسه منطلقا من وجهة نظر مختلفة .. وبالنتيجة يا عزيزي كمال ، « هم ، هو ، ومغامراتهم » ستكون دابي وبقواي كلها ، وسأواصل الكتابة في هذه القصيدة الى أن اموت .

.. ينبغي ان أحدثك عن غرفتنا التي ستشرفها قريبا ، كما نأمل ، بحضورك . لقد كلّسنا السقف بالابيض ، والجدران بالازرق الصافي ، وطلينا الرفوف بالازرق ، مما صنع زاوية زرقاء تماما . ولدينا داخل النافذة حديقة تغطي الافريز ، حيث تنبع كل أنواع الازهار . هذا يعني اننا ملأنا هذا الافريز بالتراب وغرسنا فيه الاشتال . الارضية مرتفعة الى مستوى النافذة ، وبعد ذلك باب الخزانة الجدارية وباب غرفتنا ، وقد دهناهما بدهان زيتي أخضر بترولي . وقد غسلنا الارض الخشبية بالماء الغالي كي نقضي على البق . لقد زخرفنا غرفتنا جيدا ، استعدادا لمجيئك . صنعنا كل ما نستطيع كيلا تأسف على ملاطيه .

(٣٠ ــ ٥ ــ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

.. في سبيل كتابة سيناريوين طلبا مني ، توجب عليّ أن اعود الى دراسة حكايانا الشعبية القديمة ، ولقد انتهيت الى هذه النتيجة : في كل حكاياتنا الشعبية ، وفي كل ما جمع منها حتى الآن ، تتواجد الواقعية والعنصر السحري جنبا الى جنب ويمتزجان . لنأخذ ، على سبيل المثال ، قصة « بائع الحلوى الوسيم » : في هذه القصة يوجد المؤذن الذي يغدو عاشقا لفتاة يراها من اعلى المئذنة . بنت رجل بسيط ذهب للحج في مكة وائتمنه عليها ، فأقنعها المؤذن بالذهاب معه الى الحمامات العامة ، وهناك وضعت الفتاة الصابون بغزارة على راسه وعينيه وضربته بشدة . كل هذه القصة واقعية بشكل مخيف ، وذات منحى هزلي الى حد بعيد .

شيء آخر ايضا . العنصر الهزلي في حكاياتنا الشعبية ، يتجاوز بكثير الكوميديا على الطريقة المولييرية ، ومن ناحية العنصر الدرامي فهي شكسبيرية ، فالاهواء الانسانية ، بالاضافة الى التعبير ومضمون عصرها ، تأخذ اكثر الاشكال ارهابا واكثرها تعرية ومأساوية ، وواقع ان الاسطورة

وما هو خارق يلتقيان في هذه العناصر المأساوية ، يجعل هذه الحكايات اكثر ارهابا وأكثر اضحاكا أيضا .

تركت الفلسفة ـ في هذه الفترة ـ واقدمت على الشعر بقفزة كبيرة. كتبت حتى الآن ٣٠٠ بيت ، وحسبت انه سيكون لديّ عشرة آلاف بيت .

.. ما زال زملاؤك الصحفيون يهتمون بنقلك الى بروصه .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

.. قد لا تتخيل كم اسعدتني اللوحة التي رسمتها لي في رسالتك الاخيرة عن مشروعاتك وأعمالك . اذا كانت القصة تعييك في النقطة التي ذكرتها فلا تكتب البتة . انها نوع أدبي عسير جدا وسلاح هائل . لا اقول ذلك كي أدفعك الى الكتابة ، لكنها الحقيقة . قصة لا مأخذ عليها ، مثل رباعية لا مأخذ عليها . ان هذا لا ينسى أبدا. ولكن بما انك لا تريد أن تمارس هذه التجربة فلا تكتب .

.. احمد هاشم (١) قال لي يوما : « تجنب وخف أن تكرر ذاتك » . هذا الخوف أفهمه لدى هاشم . انه يستطيع ان يستشعره لا لانه لا يكرر ذاته ، ولكن لان ما يكرره ، أعني الخط العام لشعره ، هو أشياء بسيطة جدا ، لا تساوي عناء تكرارها ، وتضيع كل بريقها بمقدار ما تتكرر . واذن فهو يستطيع أن ينصحني بتجنب هذا الخطر .. لكنني أعتقد انه بالنسبة الينا ـ بالنسبة لاولئك الذين يريدون أن يكونوا كتّابا واقعيين ماديين جدليين ـ فان هذا الخوف غير معقول . ان ما نريد أن نعبر عنه ، الافكار التي نحملها ، مركبة جدا وعميقة جدا ومعقدة جدا ، بحيث ينبغي أن نخاف نحن أيضا ، لا من « تكرار انفسنا » بل على العكس ، من أن نكون قد قصرنا عن طرحها بما يكفي ، ذلك لانه ، عن طريق تكرارها بأنفسنا في الممارسة فقط ، نستطيع أن نستغلّ هذا المعين الذي لا ينضب . لقد شرحت ذاتي بطريقة رديئة ، لكن بما انك سريع البديهة ، فستفهم ما اردت قوله . أستطيع ان اعطيك مثلا : كتبت قصيدة عام ١٩٣٩ في سجن التوقيف في استانبول ، أتحدث فيها عن سعادتي اذ قدمت هذا العالم ، عن حبي لهذا الكون ، لارضه ، للنضال الذي نخوضه ، للخبز ، للحرية . وقلت

---

(١) احمد هاشم (١٨٨٤ ـ ١٩٣٣) شاعر رمزي موهوب نادى بالفن للفن .

ايضا انني لست وحدي في العالم ، وانني اخترت معسكري في هذا النضال ، وبشكل صريح دونما خوف ، هل تذكر ذلك ؟ والآن ، في هذا العام ١٩٤١ ، كتبت قصيدة أخرى ، تجدها مرفقة ، الباعث عليها هو فخري في ان اكون رجلا من القرن العشرين ــ وهذا يذكر برضاي ان اكون قد قدمت الى هذا العالم في القصيدة الاولى ــ ويكفيني ان اجد نفسي في المعسكر الذي انا فيه ــ المعسكر يذكر بالصراع في القصيدة الاولى ــ وهكذا دواليك ، لكن الموضوع في رايي واسع جدا ، بحيث يتوجب لكي نفهمه في كل عمقه وتعقيده وتحت كل مظاهره ، ان نعيده عددا من المرات. وهذا يصحّ لا بالنسبة الى شاعر واحد ، بل بالنسبة الى العديد من الشعراء ، وكلما كررناه نصل الى فهمه بشكل أفضل .

اليك قصيدتي الجديدة :

أنا من القرن العشرين

ــ ان ننام الآن ،
لنستيقظ بعد مئة عام ، يا حبيبي ..
ــ لا
عصري لا يخيفني ،
ولن أتخلى عن قضيتي .
عصري بائس ،
عصري سافل ،
وعصري شجاع ،
مجيد ،
وبطل
أنا لم اندم يوما لكوني أتيت هذا العالم باكرا .
انني من القرن العشرين ،
وانا فخور بذلك .

حسبي ،
ان اكون من القرن العشرين ،
وفي معسكر الرجال الذين انا معهم ،
وأن أناضل في سبيل عالم جديد ..
ــ بعد مئة عام ، يا حبيبي ...
ــ لا ،

ابكر ، ورغم كل شيء ،
محتضرا ووليدا ،
وايامه الاخيرة جميلة ،
سيكون القرن العشرون .
(يمزق فيه شفق الفجر ظلمة ليلي الرهيب)
وكعينيك ، يا حبيبي ،
سيكون عظيما ومشمسا .

هذا كل شيء . انوي العودة الى هذا الموضوع بضع مرات ايضا . ان المرء ليتخلى عن قضيته اذ يبحث عن ملاذ في الماضي ، ولكن أن ينفصل وهو يحلم بالعصر المقبل ، فهذا أيضا التخلي عن قضيته . اذا كنا نفهم قرننا جيدا ، بكل بؤسه وعظمته ، بكل عناصر الموت والتجدد فيه ، واذا كنا نسهم بحيوية في صراع قرننا ، ونضع أنفسنا في معسكر الحياة ، واذا كنا نعتقد باخلاص ان قرننا سيصل الى السعادة ، عندئذ نستطيع أن نقول اننا عشنا . الآن ، تخيل يا كمال اية امكانات يستطيع هذا الموضوع أن يقدمها ، وكم هي واسعة ، غنية ، لا تنضب حتى لو كررت دون انقطاع في الرواية والشعر والقصة .

فكرتك في ان نطلب من عصمت اينونو (١) اذنا بنشر الملحمة الوطنية راقتني كثيرا . هذا اقتراح هام . ان لديك ، من آن لآخر ، افكارا مقنعة بقدر ما هي مفحمة .

ابنتي سوزان (٢) مريضة . اخاف كثيرا ان تكون هذه بداية سل .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

.. سأقصّ عليك بعض الامور . امين بك قرأ بصوت مرتفع قصة سعاد درويش وأنا اصغيت . قرأنا هكذا نصف القصة ، وأعلن أمين : « نحن نرى جيدا كيف ستنتهي هذه القصة » . فرددت : « نعم ، النهاية واضحة » ولم أتابع . أما رشيد كمالي فقد قرأ القصة في الليلة السابقة ، واليوم سألته : « ماذا يجري في نهاية القصة ؟ » . فاعترف بأنه لم يستطع قراءتها حتى النهاية ، وانها أستعصت عليه ، وانه مع ذلك يرى جيدا كيف تنتهي .

---

(١) عصمت اينونو ، رئيس الجمهورية آنذاك .

(٢) ابنة زوجة ناظم حكمت آنذاك .

تلك واقعة . لقد كنت مقتنعا دائما انه كي تكون القصة قصة حقيقية، والرواية رواية حقيقية ، فلا بد ، قبل كل شيء ، أن تقرأ باهتمام . وكما ان امكان التنفس هو الشرط الاولي والبدائي والاساسي الذي لا يناقش في الحياة ، فان الرواية والقصة ينبغي قبل كل شيء أن تهمّانا وتجتذبانا . فاذا لم يتحقق هذا الشرط ، فالرواية ليست رواية ، والقصة ليست قصة ، وهذا الاهتمام ، وهذا الفضول ، لا يتضمنان ببساطة ، وبالضرورة، مغامرة بوليسية . ان الموضوع والوقائع والشخصيات والاسلوب الذي تمتزج به هذه العناصر المختلفة ، كل ذلك ينبغي أن يبنى بشكل يجعلك تقرأ العمل وهو خال من الغموض ومن المسرحة ، دون أن تقول : « اننا نرى جيدا كيف تكون النهاية » ، منذ السطور الاولى ، أو منذ بداية الاحداث . وأنا أذهب الى ابعد من هذا : فيما يتعلق بي لا أستطيع أن أقرأ روايات ، وخصوصا تلك التي نبنى على سطر أو سطرين بارزين ، اذا كنت أعرف الموضوع ، باستثناء ارسين لوبين أو دون كيشوت او الاعمال المماثلة ، حتى انني ، غالبا ، لا اشعر بالحاجة الى قراءتها . وعلى هذا فان رواية « تترجيك » لخالدة أديب هي دائما عندي ، ولم أستطع أن ألمسها . لا أملك مجرد الرغبة في أن أمدّ يدي الى الرف كي أتناولها . ثمة شيء من الحقيقة عند عابدين دينو . الفعل والحركة ، هنا ، فيهما مبدأ من المبادىء الاكثر أهمية في الفن ، وكل الروائيين العظام : بلزاك ، تولستوي ، غوغول ، سرفنتس وآخرون ، ارسوا أعمالهم دائما على الفعل .

لنتكلم الآن عن الشعر . عليّ في البداية ان أقول ، انني في كل ما يتصل بالشعر والرواية والقصة والرسم والموسيقى ، وكل أنواع الفنون ، وبمقدار ما انا رجل حقيقي من القرن العشرين ، أضع هذا السؤال : ماذا يستطيع هذا ان يفعل لنا ؟ فاذا كتب شاعر قصيدة الى محبوبته ، واذا كانت هذه القصيدة تعنيهما وحدهما ، هو وهي ، واذا كان هذا الشاعر غير جدير بربط حبه ببعض المظاهر ، وببعض خصوصيات القرن العشرين التي تهمنا جميعا ـ انا والآخرين ـ فماذا تستطيع هذه القصيدة أن تقدم لنا بالضبط ؟

القرن العشرون قرن هائل . الشاعر والكاتب والرسام الخ .. الذين يعيشون في القرن العشرين ليس لهم شأن الا بالانعكاس الذي يعطونه ، كليا أو جزئيا ، لقرننا . الشاعر يكتب قصيدة ، يقول لنا وهو يستخدم هذا المنحى التعبيري أو ذاك ، وهذه الصورة أو تلك ، انه فان . ماذا يستطيع هذا بالضبط أن يقدم للآخرين ؟ ولكن اذا استطاع ان يربط واقعة ان عليه

أن يموت يوما ، بجانب من جوانب القرن العشرين ، وحتى اقلها أهمية ، واذا فعل هذا بتفاؤل او حتى بتشاؤم ، فأنا أقراه عندئذ . لانه اذا كان يتكلم بأمل وحبور فانه يكلمنا عن رجال متفائلين وسعداء من القرن العشرين، واذا كان ، على العكس ، متشائما فذلك لانه صوت رجال من القرن العشرين محكوم عليهم بالزوال . ان قصيدة عبثية ، ليس لها رابط واضح ومجسد مع البلدان المختلفة ، مع الطبقات ، والنضالات ، اقرننا لا اود ان أقرأها ، لان هذه القصيدة ايضا ، مهما كان الشكل غير المباشر ، تخلو من التعبير عن جزء من انسانية القرن العشرين . ولماذا يكونعليّ ان اهتم بأشياء تقال بطريقة غير مباشرة ومحجوبة ، ما دام هناك اشياء كثيرة تقال واضحة وقوية ؟ اقرأ بودلير ، انه يرتبط بشكل مفتوح ومباشر ، وليس بشكل مفهوم ضمنا ، بكل جوانب القرن التاسع عشر التي استحالت الى خرائب . اقرأ بلزاك . انه يجسد أوساط القرن التاسع عشر ،ويحمل في ذاته عناصر من القرن العشرين . وباختصار ، فان الكتّاب الذين يدفعونني الى أن اطرح على نفسي هذا السؤال : « ماذا يستطيع هذا ان يفعل من أجلي ؟ » ، وهو السؤال الذي يشكل بالنسبة اليّ منذ أمد حجر الاستناد ، هؤلاء الكتّاب الذين يجعلون من هذا السؤال ضرورة ، هم الذين لا يستحقون عناء قراءتهم في قرننا العشرين ، المدهش ، هذا .

شرعت بكتابة قصيدة أعتزم أن أضع لها عنوانا « مشاهد انسانية في تركيا عام ١٩٤١ » ، أو شيئا من هذا القبيل . أكتب خمسين بيتا فياليوم. ستنتهي القصيدة بعد ستة اشهر من هذا التاريخ ، وستضم عشرة آلاف بيت . وحتى الآن لم ابتعد عن المخطط ، كتبت ٦٥٠ بيتا . اما فيما يتصل بالشكل فأنا لا اشغل نفسي ابدا بصيغ العبارات واشكال الافعال ومشاكل القوافي . . . أستخدم كل هذه العناصر كأداة ، اذ يتوجب أن تشرح المحتوى بأفضل شكل ممكن ، وبأكثر قدر من السهولة ، وبأشد استيفاء ، وليس بالشكل الاكثر أصالة والاكثر حداثة . لقد قلت وداعا لكل البحث الشكلي الذي يمارس بصورة عبثية منفصلة عن المحتوى . . المحتوى ، المحتوى ، قبل كل شيء . ان القفازات الاكثر نعومة والاكثر بساطة وتقولبا هي القفازات الاشد ملاءمة للاصابع الدقيقة ، المكوّنة تكوينا جيدا . النساء الثريات ، ذوات الاصابع الرديئة المدببة ، يبحثن عن تجميل أيديهن بقفازات مزخرفة . واصابع المراة المشوهة من العمل هي شديدة المأساوية ، شديدة الاثارة للعاطفة ، بحيث لا تحتاج الى قفازات . والامر نفسه بالنسبة لبعض

المضامين ، فالقفاز الوحيد الذي يلائمها هو جـــلدها الخاص . وسننجح بمقدار ما لا يكون الشكل قفازا أبدا ، وبمقدار ما نحوّله الى جلد ، أو بمقدار ما نصل الى رفع المحتوى الى المقام الاول .

أعرف ان هذا صعب جدا . والحل الوحيد هو أن تذهب من المحتوى الى الشكل ، دون أن تنسى ، بالتأكيد ، التأثير المقابل للشكل على المحتوى من وجهة نظر كمية .

كمال ! أنا أشعر انني بكامل لياقتي كمصـــارع ، مقاتل ، لاعب كرة قدم ، طيار ، واذا لم أتوقف فسأكتب مئة بيت في اليوم ، لكنني أضبط نفسي . ولانني أشعر بأنني سأحيا حتى أبلغ مئة عام ، ولاني لا ادرك هذه الايام انني محكوم عليّ بالموت كالآخرين ، فأنا ارتجف أحيانا حين يخطر لي انه قد يصيبني شيء خلال ستة أشهر ، أي قبل أن أتمكن من انجاز هذه القصيدة . كم أنا سعيد يا كمال ، اذ يكون لي صديق مثلك أستطيع أنأكتب اليه كل هذه الاشياء .

رشيد كمالي يعمل جيدا ، بنظام ومنهج . أنا مسرور به كل السرور . أنت ملزم بأن تكتب أشياء رائعة ، وستكتبها . تشجع يا عزيزي . لنستمتع من أعماق سجوننا بكوننا جئنا هذا العالم في القرن العشرين . انها سعادة حقيقية أن نولد في هذا القرن ، وأن نأخذ مكاننا في المعسكر الذي نحن فيه. انني فخور لاني ولدت في القرن العشرين .

(١٧ – ٦ – ١٩٤١)

عزيزي كمال !

قبل كل شيء ، بعض الاخبار في موضوع نقلك . حين ذهب الصحفي ناجي سعد الله الى أنقره كموفد الى مؤتمر الصحافة منذ أسبوعين ، وعده المدير العام للسجون بهاء أركان ، وكذلك النائب اكاغوندوز ، بأن يهتمـــا بحالتك . غير انني علمت بذلك بشكل غير مباشر . فناجي لا يريد ، كمـــا يبدو ، ان يكتب اليّ شيئا قبل ان يحصل على نتيجة محددة . لقد توجهت مرة أخرى الى بهاء أركان والى الرجال الذين اعرفهـــم في وزارة العدل . لنأمل أن تتدبر الامور كلها .

سعدت جدا حين بلغني انك وضعت في زنزانة جديدة ، لكنني حزنت لانهم أخذوا منك الراديو . هنا توجد اذاعة داخلية في عدد كبير من الغرف، ولدينا أيضا محطة اذاعة مشتركة في البهو . تحياتي الى رفاقك فيالزنزانة،

واذا كانوا يحملون لك التقدير والمودة فسيسعدون سجينا آخر على بعد مئات الكيلومترات لا يعرفون حتى اسمه .

قرأت قصة لسعيد فائق ، طرح فيها بشكل غامض المشكلة التالية : هل ترضون بهدم « مكان اثري » اذا كنتم تعلمون ان حياة الانسانية تتعلق به ؟ هذه المشكلة التي تبدو مخيفة للوهلة الاولى ، والتي لا يتوصل سعيد فائق الى حلها ، قد حللتها أنت تماما باستخدامك المنهج الجدلي في الرسالة التي تغنيت فيها بمديحي .. ان سعيد فائق ، الذي يعتبر الانسان تجريدا، لم يستطع تجاوز هذه الصعوبة كحاله دائما معذاته . فواقعة ان أحد رجالنا العظام أصابه برد ولم يستطع قيادة المعركة بشكل جيد ، هي أشد دراميـة من هدم تدفئة مركزية . من ناحية أخرى ، وضع أولئك الذين وجـدوا أنفسهم محرومين من امكان الموت دفاعا عن باريز هو درامي بشكل مساو . ان العجوز الصغير العظيم كان كائنا انسانيا ، وكذلك هتلر . وليس ثمة نصب في العالم لا نرضى بهدمه كي نجعل من الاول يعيش ساعة اضافية ، أما بخصوص الآخر ، فوجوده له قيمة ضئيلة جدا ، حتى ان مصير غصن من الكرز أشد أهمية بما لا يقاس . وعلى النقيض أيضا ، نصنع كل شيء كي نراه يموت أبكر ما يمكن ، كل هذا واضح . وتصنع جيـدا اذا كتبت قصة تنمي فيها ، عمقا وتفاصيل ، الفكرة التي شرحتها في هذه السطور . وأي شيء في العالم لا نضحي به كي نجنب رجال معسكرنا أبسط الازعاجات ؟ لكن من ناحية أخرى ، اذا اتضح انه لا يستغنى عن موت آلاف من رجالنا في سبيل نقطة استراتيجية في معركتنا ، فان موتهم يصبح ضروريـا .

انتظرت قصتك بشوق كبير . أرسل لي أيضا مخطط روايتك .

صحة بنتنا تتحسن . نقلت الى بيرابيه كل ما قلته عنها في رسالتك. هل تعلم ان كل ما تقوله عنها يجعلني سعيدا جدا ؟

ابعث اليك ، مع هذه الرسالة ، القصيدة التي شرعت بكتابتها ثم تركتها منذ ستة شهور .. سيكون رائعا أن تكون بيننا هنا . بيرابيه تسألني عن أخبارك في كل رسائلها . أنا لم أرها منذ ثلاثة شهور ، فهي لا تستطيع مغادرة استانبول بسبب الحاجة الى المال .

(القصيدة)

حدث هذا مساء الثلاثاء
المدينة كانت مضاءة

وكان الجو حلوا .
في حديقة البلدية
كان الجمهور ،
الذي يأكل « البوظة »
ويشرب عصير الليمون ،
يصغي الى نشرة الاخبار .
بكى طفل
وكلب ملازم الدرك
كان يركض نحو الباب
وفجأة سألت المرأة ذات الرداء الازرق
عن سعة العربات الكبرى .
كان في فمها انشداه
ويدها بيضاء .
لقد أعطى أستاذ الفيزياء ذو النظارات ،
تفاصيل لفتاته العاجزة ،
عن ميكانيكية المكبر ،
حين سقطت ورقة من شجرة كستناء ،
وتمخط رجل بحياء .
وفي الساعة السادسة وعشر دقائق تماما
حدثت ،
الحادثة التي أرويها .
بيرابيه وكمال وانا ،
كنا خارج الحديقة ،
والمكبر في الحديقة مقابلنا ،
والمكبر مدهـون باللون الاخضر
وهو في قمة ،
سارية من الحديد طويلة عارية ،
يتحدث بصوت امرأة منفعل .
ـ منذ الاشتباك تحمّل العدو
خسائر كبيرة
وفيلق كامل مدرع ...

ـ لا تخافي يا عجوزي
انك تنظرين بهيئة غريبة ،
الى الموتى المهجورين على الجبهة .
الموتى ليسوا خطرين .
تعالي اذن من هناك ،
لدينا كلمتان نقولهما لك .
خمس دقائق ،
سنتحدث نحن الآخرين ..
أنا مافيو ،
انا جون ،
أنا هانز ،
انا جيلبرت ،
اربعة جنود بسطاء
اموات أحياء .
كمال تحت حدبته ،
يزفر بغضب ،
وعينا بيراييه الموشاتان بالذهب ..
خطر لي أن آخذ ملاحظات ..
وما قيل ذلك المساء
سأرويه كلمة كلمة :
ـ أربعة جنود ،
اموات أحياء
لا ايدي لهم
لا رؤوس
وفي قيظ الظهيرة سقطوا أرضا منبطحين على بطونهم .
لقد غطينا رؤوسنا بأيدينا
ومرّت المدرعات فوقنا ..
لم تعد ثمة أجسام ،
لكننا لم نقلق الا من أجل الايدي والرؤوس .
انا جلبرت
كنت فخورا بيديّ .

كبيرتان ومشعرتان
كم من مرة رايتهما على ركبتيّ
وانا متعب أفكر .
كانتا أشد خبثا مني دون شك .
أنا الفلاح من بروتانيا (١)
أنا مافيو
أحب كثيرا رأسي
ففيه كان قلبي
صائما ثلاثة أيام في الاسبوع
لكنني واثق من راسي
كان ينتصب على جذعي
بشاربيه الناعمين السوداوين
أنا مافيو
مؤلف موسيقي من نابولي
أنا جون ،
يداي ،
مثل طائري البحر الكبيرين
في نهاية ذراعي .
وندبة جرح حمراء
في راحتي اليسرى .
أنا جون ،
عامل في مرفأ ليفربول .
أنا هانز ،
عامل تعدين شهير
سل عني يديّ
الاولى كدحت في مانشستر
وفي عام ٨٩ في فرنسا ،
تغطتا بالدم
وفي عام ٤٨ كانتا مع انكلترا
وبعد ذلك بزمن ، عندما راى احد اليافعين

(١) مقاطعة في فرنسا .

الحياة ملفعة بالسواد
قصّ عليه العم الكبير ذكرياته
عن كومونة باريس .
الآباء انتصروا عام ١٩١٧
والاخوة اعدموا بالرصاص في بافيير (١)
وابناء الاعمام تقاتلوا
عامين في اسبانيا
الايدي الاشهر في التاريخ
انا هانز !
انا البروليتاري البروسي .

(بدون تاريخ)

عزيزي كمال !

تلقيت رسالتك الممتلئة بالنقد المفيد لقصيدتي . أنت على حق في بعض النقاط ، وعلى خطأ في بعضها الآخر. وما قلته عن تكرار القافية LER لاحظته بنفسي ، وسأجري هذه التصحيحات حين أنتهي من المشاهد الكبيرة ، وربما حين أنهي العمل بكامله . ينبغي ، قبل كل شيء ، أن تتوالد القصيدة وترتسم أطرها وخطوطها الرئيسية ، أما التفاصيل فيجري التحكم فيها فيما بعد .

.. المسألة في هذه القصيدة ليست في عدم المساس بترتيب الكلمات، بل على العكس ، سنغير كمية كبيرة من الكلمات والبنى ، وحتى مشاهد كاملة ، وربما القيت في سلة المهملات . ولكن هذا كله ليس الا تفصيلا . لنصل الآن الى المشكلة رقم واحد ، الى النقاط الاساسية لمفهوم القصيدة نفسه : هل يساوي هذا ، في أيامنا هذه ، عناء العمل في قصيدة طويلة من هذا النوع ؟ الا يتوجب علينا ، في قصيدة اليوم ، أن نضع العنصر الخطابي في المقام الاول ؟ سأحاول ، فورا ، ان اجيب على السؤال الاول : شرعت في كتابة هذه القصيدة منذ ستة شهور . عملت فيها خمسة عشر يوما ، ثم هجرتها فجأة . هذا يعني ، بالرغم من انني في السجن ، ان التغيرات التي حدثت في الاوضاع خارجه قد منعتني ، عمليا ، أن اعمل

---

(١) مقاطعة في بريطانيا .

في قصيدة من هذا النوع خلال ستة شهور . لان مثل هذه القصيدة ، حتى وهي منتهية ، محكوم عليها أن تظل مسودة في هذه الفترة . ولكننا لا نستنتج انه ينبغي الا نكتب قصيدة مماثلة .

.. انني ملزم بايضاح العلاقات المتبادلة بين رجال وطني في هذا العام ١٩٤١ ، التي شكلت منعطفا بالنسبة للعالم كله ، بما فيه بلدي . هذا الايضاح ، اذن ، كان اكثر أهمية منذ ستة شهور ، ولم أقم حتى الآن بأي ايضاح أكثر اتساعا وتفصيلا ، وهذه القصيدة تعطيني امكان صنعه . وأنت الذي تعمل في مجال الرواية والقصة تقوم بهذا الايضاح في كل سطر تكتبه بشكل مباشر . والوسائل التي تستخدمها تلائم هذه المحاولة اكثر بكثير مما تلائمها وسائلي الشعرية . ولكن لماذا اخترت الشعر وليس الرواية أو القصة أو النثر كي أكتب التاريخ الماضي والحاضر والمقبل لرجال وطني عام ١٩٤١ ، تاريخ علاقاتهم ؟ ذلك لان ايضاحا يستخدم سلاح الشعر ، يقدم ميزة عرض مشاكل اكثر اتساعا باختصار أشد ، وتفاصيل قليلة ، ولكن بقوة ، اذ يعيد هذه المشاكل الى خطوطها الاساسية . واذا كان الشعر لا يفيد من هذه الميزة ، فسيغدو عقيما ، ويقلص مجال فعله .

لنأت الآن الى النقطة الثانية ، أعني مشكلة الشعر الخطابي . اليوم ، دون شك ، ينتقل هذا النوع من الشعر الى الصف الاول ، ولكن هذا الشعر يرتبط بشكل ضيق بالمشاكل الراهنة ، وهو ، من ناحية أخرى ، ملزم بأن يتناول الاشياء العملية يوما بعد يوم . وفي ظروف هي ظروفي ، وبامكانات النشر المتاحة لي ، فان القصائد الخطابية التي أستطيع أن أكتبها لا تمس الا قارئين أو ثلاثة ، وبالنتيجة ـ وبالمقارنة مع ما استطيع ان أقدمه في هذا المجال ـ يبدو لي ان عملي أكثر جدوى حين أكتب قصائد يمكن أن تقرأ في وقت متأخر ، حين تتغير الظروف ، قصائد تصف الحاضر ولكن بمقدورها، بشكل مواز ، أن تخدم المستقبل . لو كنت حرا لكتبت قصائد أفضل بكثير من « هذا الجدار » وقذفتها في السوق قائلا : هذا بالضبط ما يناسب أن نفعله اليوم . لكن ظروف السجن الخاصة ، تمنعني من القيام بهذا النوع من العمل ، في حين انها تضمن لي امكان كتابة قصائد ذات تأثير اكبر ديمومة ومحتوى أعمق .

لا ينبغي أن نستنتج من كل هذا الذي قلته هنا ، ضرورة الشعر الخطابي حتى في قصيدة حب غنائية ، « فالرسالة » عنصر لازم للشعر ، وسألزم نفسي بأن أستخدمها الى حد بعيد في هذه القصيدة .

.. انني ابحث في الشعر الخطابي نفسه عن امكانات جديدة واصوات جديدة . ولقد اجبرت نفسي ، منذ بداية هـذه الرسالة ، على أن أحل ، بأشد الاختصار ، أكثر المسائل التي طرحتها اهميـة بخصوص قصيدتي الاخيرة . هل ترضيك شروحي ؟ لا أعتقد ، لان المشكلة التي طرحتها هـي بالفعل راهنة جدا . أوجز نفسي في جملة أخيرة : ستكتب أنت «ساجيدير» انك ملزم بذلك ، وسأكتب أنا « المشاهد الانسانية في تركيا » في هـذا العام ١٩٤١ ، انني ملزم بذلك . وعلينا ، أنت ورشيد كمالي وانا ، وكـل الرفاق الذين يعنون في السجن بالشعر والادب ، أن نلتزم بكتابـة أعمال تستطيع أن تمارس تأثيرا على المشاكل الراهنة .

.. قصيدتي ستكون في ستة آلاف بيت ، وربمـا اكثر ، واغلب اشخاصي يظهرون من حين لآخر في القصيـدة كي يعيشوا « قدرهم » الاجتماعي . وأود ، حين ينتهي الكتاب ، أن يكـون ما يتبقى لنا منه هو خلاصة ، تحت شكل فني ، لوضـع الجماهير بكـل طبقاتها وسافاتها الاجتماعية ، في بلد محدد ، وأوضاع تاريخية محددة .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

.. فيما يخصني فأنا لم أكتب سطرا واحـدا منذ أسبوع كـامل . استشعر انني أعوم في حلم لا نهاية له . ثمة لحظات أكون فيها غاضبا لانني لم آت الى العالم على شكل رصاصة رشاش . وفي هذا الحلم العظيم الذي اصنع ، أن يكون المرء رصاصة ، اكثر جدوى بكثير من أن يكون شاعرا ، وحتى لا ادري ، ان يكون مسمارا في اسمنت مسلح ، ممتزجا على الاقـل بالواقع ، بالحياة ، كمادة لا عضوية، ولكنها أشد فعالية من شاعر في سجن.

... قصيدة ماياكوفسكي التي تحبها كثيرا أنت أيضا ، تلك التـي تبدأ ب « أيها الخطباء اخرسوا » .. لا نستطيع ابدا أن نكتب غيرها اليوم ، ولا ما هو اجمل منها . ومع ذلك اعترف بأن الامل الذي غذيته في موضوع قصيدتي التي بدأتها ، وكل ماقلته لي في رسالتك الثانية ، قد سببا لـي صدمة . لقد استعدت نفسي ، ومنذ الغد سأبدأ ثانيـة ابياتي الخمسين الاسبوعيـة .

افهمني جيدا . هذا الكسل الذي استمر اسبوعا لم يكن باعثه الخدر ولا الذهول . سببه اولا انني فهمت ، للمرة الاولى ، انني كنت في السجن

واقعيا . ثم ان راسي وحده وقلبي ينبضان مع الاسف على كل جبهات العالم ، ولا تستطيع أنت أن تتصور الالم الذي أحسّ به . صراع لا يجعلني أواجه أي خطر واقعي مميت . أفكر بالعالم كله ، بالرجال ، ببلادي ، بوطني ، في حين ان الخطر بالنسبة للآخرين ، هو الشيء الاكثر شيوعا ، والاكثر بساطة اليوم ، الى حدّ مضحك . انني غاضب لكوني لا أستطيع أن أصنع هذا الشيء الذي ليس الا لعب أطفال ، ولكنه وحده الحقيقي . لا تستطيع أن تتصور كيف سيكون بمقدوري أن أموت بسهولة وبساطة وجدوى . ومع ذلك فكل هذا لا يمنعني من فهم ضرورة اقتسام العمل الذي تفرضه الظروف من حين لآخر .

منذ الغد سأعود الى أبياتي الخمسين الاسبوعية ، وحتى المئة .. يجب أن أتجاوز الخطة . المهمة التي تقع علينا في هذا الاقتسام للعمل ، ينبغي أن ننجزها حتى لو لم تكن جليلة ابدا ، أو سيئة أيضا . وحتى لو كانت سهلة فينبغي أن ننجزها ونحن نخضع لعار كوننا شخصيا في أمان . من أجل بلادنا ، من أجل شعبنا ، وعالمنا الخاص ، من أجل ما يخصنا ينبغي أن نكتب أجمل أشعارنا وأجمل حكاياتنا . سنتألم بشكل مخيف ، ونحمرّ من النعمة التي نحن فيها ، ومن الامان الذي نجد انفسنا فيه ، ولكننا سنقول للشعب التركي ، ولكل الذين يرتبطون بنا ، أجمل الاشياء التي نملك أن نقولها لهم .

تحيات من الجميع .

(٣٠ - ٦ - ١٩٤١)

كمال ، أخي !

أنقصت خالتي الكتب الخمسة عشر الشهرية الى عشرة ، لكن أختي ترسل لي خمسة كتب ، واذن فلا مشكلة ، وسأبعث اليك بخمسة كتب شهريا كالمعتاد .

بيرايه جاءت وعادت . لم تصنع شيئا سوى الكلام عنك . لقد شعرنا اننا عجائز جدا لان لنا ابنا عمره اكثر من ثلاثين سنة ، لكننا شعرنا أيضا اننا شباب جدا لان لنا ثقة كبيرة فيه . ليس ثمة أي خبر عن موضوع نقلك .. غير انني شديد الرغبة في أن تأتي . لن ارسل اليك اية قصيدة في هذه الآونة . اصبر قليلا .. ألم تتصور ؟ اذا كنت قد فعلت فأرسل لي صورتك فورا . سأرسل لك في البريد هذا الاسبوع كمية من المجلات والصحف ، وسيكون لديك ما تقراه .

سأقول لك بضعة اشياء يا كمال . اذا كانت الروابط النفسية والعقلية والثقافية ، بالاضافة الى الآراء ، تتطابق تطابقا كاملا بين كائنين ، فالظاهرة التي نسميها صداقة تغدو قوة ضخمة جدا . أقول لك ان الروابط بيننا من الادنى الى الاعلى ، وفي كل المقاييس ، هي نقية ، شفافة ، نقاء وشفافية الوان الطيف . ان لها الايقاع ذاته .. وهذا يتبدى اكثر حين نجد انفسنا بعيدين تماما عن التأثير الجانبي للتفاصيل اليومية ولردود فعلنا العصبية . وبالاعتماد على منهج التجريد في الزمان والمكان لتحديد القانون الاساسي لصداقتنا ، فهمت الى اي حدّ كنا صديقين ، ويبدو لي اننا لن نختصم كثيرا حين نتلاقى ثانية ، ومن المحتمل أن نضجر قليلا من حين لآخر .

.. انت لا تتخيل كم انا رضي الطبع ، وكم أحتفظ بأعصابي هادئة ، وبالرغم من الم شديد في أعماقي ، أرى الحياة « زاهرة » ، املك ابتسامة ذلك الذي يعرف انه آخر من سيضحك . حسنا ، وداعا وحظا سعيدا .

... قل لي ، أليس ثمة اخبار من حكمت ؟ ماذا يصنع هذا الابله ؟

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

تلقيت رسالتك ، قصيرة ، ولكنها كاملة . ستكون رسالتي قصيرة مثلها ، أما كاملة ؟ لا أعتقد ذلك . لا اقول هذا تواضعا ، على العكس ، غرورا . أشعر انني عاجز عن كتابة رسالة قصيرة كاملة لاحد ، وحتى لك أو لبيرابيه . لديّ انطباع بأنني رجل ليس لديه كلمة يقولها لك أو يقولها امامك . لو كنا معا نحن الاثنين ، فماذا كنا سنقول ؟ ما ان يفتح احدنا فمه حتى يعرف الآخر ماذا سيقول ، فالتفكير بالاشياء ذاتها يجعل الرجال صامتين . تبا ! تملكتني فجأة رغبة في أن اصرخ . اذا غنت افواه مئة الف انسان على الاقل اغنية بصوت جهير ، واذا انضممت اليها وانا اصرخ بكل قواي ... الاحلام ، صور قصائدي القديمة ، تنبجس تحت ريشتي ، او على الاغلب في ذاكرتي .. أعوامي التسعة عشر (1) ..

.. انه مضحك . لقد عدت ثانية ، ودون ان افكر ، الى الحروف اللاتينية .

(١١ — ٧ — ١٩٤١)

---

(١) إشارة الى قصيدة له بهذا العنوان كتبها في اول شبابه .

عزيزي كمال !

بخصوص ما قلته لي عن الكلمات الجديدة ، أتفق معك على الجوهري، وسنتحدث عن ذلك ثانية في رسالة طويلة .

بيراييه مريضة منذ شهر . تحدثنا هاتفيا . انها مصابة بزكام . حرارتها ٣٩ ـ ٤٠ ردجة . هذا يؤلمني كثيرا ، والايام التي سنجد فيها سعادة بأن نهتم بآلام صغيرة من هذا النوع قريبة .

(دون تاريخ)

كمال !

تأخرت في الكتابة اليك واستخدمت الحروف اللاتينية في الجواب ، بسبب من انني شعرت بحاجة الى أن اقص عليك ، بلغة شعرية، ما احسست به عندما فكرت اننا سجناء ، ولكننا نستطيع أن نكون مفيدين لبلادنا . والآن اصغ :

أقول : ملاطيا
الكلمة لا تستدعي بالنسبة الي سوى حاجبيك المقطبين
بروصه : المياه المعدنية
امازيا : التفاح
سينوب : مرسم مصطفى صوفي (٢)
ديار بكر : بطيخ أحمر وعقارب (٣) .
ولكن هناك ، عندك ،
ـ في ملاطيه ـ
أي شيء له شهرة ؟
اية فاكهة وأي حشرة ؟
الماء ام المناخ ؟
اقول انني لا اعرف أي شيء عن سجنك ،
لا شيء سوى غرفة
ونافذة وحيدة ،

---

(٢) زعيم يساري تركي معروف .

(٣) كل هذه الاسماء لسجون تركية في مدن تحمل الاسم نفسه ، كان اصدقاء ناظم سجناء فيها .

مرتفعة جدا ،
قريبة من السقف .
انت هناك ، في داخلها ،
مباشرة .
سمكة صغيرة جدا ،
في قمقم طويل ضيق .
التشبيه قد لا يروقك أبدا
في هذه الايام على الخصوص ،
اذ يتوجب عليك أن تشبه نفسك بأسد في قفص .
أنت على حق يا كمال طاهر ،
وانا ، مثلك ، بالتأكيد ،
نحن أسود ،
ــ انا لا أمزح أبدا
وأفضل ايضا ،
اننا رجال ،
ونعرف جيدا طبقتنا ،
وعصرنا ــ
قفص من حديد أو قمقم من زجاج ، لا يهم
انه الشيء نفسه ،
وخصوصا في هذه الايام
ــ اولئك الذين هم في الداخل ، ابرياء هادئون ،
يعرفون جيدا ،
في هذه الايام على الخصوص ،
الضحك من كلمات أمين وساريه الجميلة
تذوق الكتب المحبوبة والبندورة ،
والنوم رغما عن البق .
ــ وبفضل ثلاث ملاعق من الآدونيل في اليوم ــ
وحتى دون رسالة منك ،
يا كمال بن طاهر ،
اسمع ، المس ، ارى نور النهار ،

ولا أغفر ،
أي فرح ،
سوى فرح حبي لزوجتي ..
حساسية زائفة ؟
ـ لا
لا تستطيع أن تقاتل ،
حتى ولا بما يوازي ،
رصاصة مسدس ،
بجدوى ،
انت تعرف هذا جيدا
وحده لا يستشعر العذاب ،
ذاك الذي جرح في المعركة .
واول الحريات ،
حرية أن تقاتل
قلبي مثقل بالالم ،
وأنا أبدو هادئا ،
انت تفهم أليس كذلك ؟
ومع هذا فان ما أقوله هنا
هو كلماتنا المعتادة
كلمات كل يوم ،
تتكرر غالبا ،
وما نزال نكررها أيضا ،
في هذه اللحظة ، كم من الرجال ، في كم من الاماكن ،
يلعنون باشفاق أيديهم العاجزة ، الساكنة على ركبهم ،
يكررون أيضا ،
هذه الكلمات ...
انت تعرفها جيدا ،
ولكن قلّما يهمّ .
ساقول لك مع ذلك :
العزاء الهزيل في الكلام ، في الشرح ،
عندما نعرف اننا عاجزون ..
ربما ، نعم

ربما ، لا . .
لا ، بتاتا
ـ عزاء ، هذا ، حبا بالسماء !
هذا ، ببساطة شديدة :
أن تتخبط ، والراس منخفض ،
أن تحمرّ ، أن تصرخ ، أن تحتج ، يا كمال !

(٢٥ ـ ٨ ـ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

. . المفروض أن تأتي بيرابيه هذه الايام .

. . مضحك . انني أسأل نفسي غالبا : لماذا لست عجوزا جدا ؟ ولماذا لم تكن انت ابني الاشد ذكاء ، ابني العظيم ؟

استطعت أن أحصل على الكتاب الذي نشره سعيد فائق بعنوان « المطرقة الآلية » ، وغير مجد أن أعلمك عنه لانني لا أستطيع ارساله اليك، فقد أعاروني اياه ، وعليّ أن أرده بأبكر ما يمكن .

وجدنا أيضا الفونس دوديه عند هذا الفتى ، الحساسية وعدم التماسك يمتزجان ويختلطان لديه . ليأخذه الشيطان . اود أن أصفعه بقوة ، هذا الابله ، كي أجعله اكثر اتزانا ، لانه سيكون منه كاتب جيد فيما لو غدا اكثر تعقلا . غير انه يتوجب عليه ، قبل كل شيء ، أن يتخلص من هوايته ، هوايته المزيفة ، الشاذة . وبين كل النماذج التي تزدحم في بابيالي (١) ليس هناك من يصفعه صفعة قوية ، كي يساعده على أن يرى بوضوح . الامر على العكس تماما . انهم يغنون المدائح بهذا الفتى البائس الذي يهيج أكثر أيضا . هل بامكاننا أن نكوّن فنانين حقيقيين اذا لم نعرف أن نبني كلا واحدا ، ونؤلف التناغم ، والبناء الهندسي ؟

(ملحق الرسالة المؤرخة في ٢٥ ـ ٨ ـ ١٩٤١)

عزيزي كمال !

مرة أخرى اتأخر عليك في الرد . مرة ثانية ارسل اليك قصيدة . اتابع كتابة الملحمة عن حركة التحرر الوطنية . انت تعرف جيدا القصيدة

---

(١) حي الصحافة ودور النشر في استانبول .

التي راقت لعمي علي فؤاد باشا ولعصمت باشا ! أرسل اليك مقطوعة ، قصيدة ، يعبر فيها مقاتل عن نفسه عشية الانتصار ، فهل ستروقك ؟

حول الانتصار

نقاوم الالم ،
ونحن نضغط بأيدينا الخائفة على جراحنا ،
ونعضّ شفاهنا حتى الادماء .
كان الامل من قبل ،
صرخة عادية لا رحمة فيها ..
والانتصار يشمخ بقوة أيدينا
وننسى المغفرة .
الايام قاسية ،
الايام تمضي مع أخبار الموت .
العدو قاس ،
لا يرحم ،
ومخادع ...
رجالنا يموتون وهم يقاتلون ،
ـ ومع ذلك فقد ربحوا حق الحياة ،
على أرض هم بها جديرون ،
أكثر من أي اناس آخرين ـ
رجالنا ماتوا .
ـ عددهم كبير جدا ـ
وكأنما كانوا يحتفلون بعيد ،
مع الاغاني والرايات ،
شباب ، غير مبالين .
الايام قاسية
الايام تمضي مع اخبار الموت
واجمل ما في العالم ،
احرقناه بأيدينا ،
ونسيت أعيننا الدموع
ـ اختفت الدموع من أعيننا ،
وتركتنا حزانى ، ولكن واقفين .

اليك ، اذن ، لماذا نسينا المغفرة ..
الهدف الذي ينبغي أن يبلغ ،
سنبلغه بالدم .
والانتصار ،
سننتزعه بأظافرنا ،
وسننسى المغفرة .

(سجن بروصه ، ١٣ ـ ٩ ـ ١٩٤١)

حاشية :
« لقد اختفت الدموع من أعيننا » ، هذا البيت كان في الاصل « لقد اختفت الدموع » ، لكن الرجال أعلنوا انهم لم يفهموا شيئا .. جعلته : « دموعنا اختفت » ، فقالوا أيضا انه غير مفهوم ، وعندئذ جعلته : « لقد اختفت الدموع من أعيننا » ، فماذا ترى ؟ أردت ان دموعنا غاضت وتركتنا حزانى قليلا ولكن واقفين . الامر لا يتعلق بالدموع بالمعنى المجازي ، بل بالمعنى الحقيقي تماما . ينبغي ، بشكل قاطع ، ان تعطيني رايك في ذلك .

.. كنت مريضا خلال أسبوع كامل . قشعريرة والتهاب لوزتين . لم استطع ان أكتب الى بيرابيه . ابرقت اليّ ، وسرّني هذا ، اذ لمرة واحدة لا اكون أنا الذي يبرق . جاوبتها برقيا ، وأعلمتها انني كنت مريضا وانني أتحسن . كانت مريضة هي أيضا ، وحين تلقت برقيتي ظنت انني متّ ، وجاءت اليّ وحرارتها ٣٨ درجة . لم تمكث سوى يوم واحد ، وعادت لتلزم فراشها ثانية . قرانا معا ما قلته عنها في رسائلك ، وأعلنت : « انني غاضب جدا من كمال ، فهو يكتب اشياء جميلة وصحيحة عن الانسانة التي احبها اكثر من اي شيء آخر في العالم ، الى حدّ لا يترك لي معه شيئا اقوله » .

.. كتبت من اجل قميصك ، ودراهمك ، ومنامتك . أرسلت اليك صورة مأخوذة مع صانع الحلوى ، وصانع البوظة وارتفرول ـ جزء حقيقي من الريف .
.. انا مفعم بالامل . صحتي حسنة ، وممتلىء بالايمان .

(١٣ ـ ٩ ـ ١٩٤١)

كمال !
ابرق لي بأخبارك الصحية .

(٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٤١)

كمال طاهر ، اخي .

أرسلت اليك رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، قصيرة ومعها قصيدة طويلة ، وفي القصيـــــدة ما يتعلق بمغامرات قسّ مسكين وشيطان في كنيسة . ينقصها شيء ما ، أعرفه جيدا ، ولكن ربما أكملتها في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة . علينا أن نصبر قليلا حتى يتمكن القس مــن أن يحكي عن معركة وانتصار اولئك الذين يريدون تدمير (؟!) الحضارة ضد اولئك الذين يقاتلون لانقاذ هذه الحضارة . ستقول لي انه كان بامكان القس ان يقصّ علينا ، على الاقل ، كيف تصارع هؤلاء الرجــال . لم أستطع أن اقرر . أود أن اقصّ عــــلى الاب المحترم ليس فقط المعركة ولكن نتيجة هذه المعركة .

.. أكتب اليك هذه الرسالة ليلة الجمعة ١٧ تشرين الاول ، الساعة التاسعة تقريبا .

.. اننا مشغولون بنقلك الى بروصه . لا تستطيع ان تتخيل الى أي حدّ أنا راغب في رؤيتك ، وسأتحمل السجن بشكل أفضــل لو كنت أنت هنا . وبما انني اعتدت الارق ، فلن أبالي بضجيجك ، ولن ألاحظ مـــرة ثانية حماقاتك الابعد عن التصديق ، لانه لم يعد لي أعصاب .

اود أن أقول لك بضعة أشياء : في شهر تشرين الاول هذا من عـــام ١٩٤١ ، وفي سجن بروصه هذا ، الاشخاص الذين أستشعر غيابهم بشكل يحسدون عليه هم : بيرايه وانت وصديق قديم من الجامعة هو الآن بعيد جدا ، وربما ميت ، ولم أفكر فيه حتى هذه اللحظة الا نادرا . وربما لــم احدثك عنه من قبل أبدا . ذلك انه كان ، ببساطة ، زميلا لي فيالجامعة . ولكن اذا ما جاء لرؤيتي الآن فسأكون سعيدا للغاية . وما هو أشد مدعاة للسخرية كوني لا اتذكر حتى اسمه . أعرف انه كان من القوقاز ، وكـــان لديه « قلبق » أصفر بعرض اصبعين ، واثر جرح في خده .

.. من المؤكد انني سأكون سعيدا جدا أن أرى أمي وسامية أختي ، وابناء اخوتي . لكن أن أعيش معهم وجها لوجه تحت هذا السقف ، ولاكثر من اسبوع ، فلن يكون ذلك بالنسبة لي متعة كبيرة . اقول لك الحقيقة ، سأكون سعيدا ايضا لو اعيش مع رفاق سينوب ، ولكن ليس في الغرفــة نفسها ، بل في غرفتين متجاورتين وفي المجاز نفسه ، شريطة أن آكــل معهم واعمل ، دون أن أعيش معهم انفا لأنف . في حين سيكون رائعــا أن

اعيش انفا لأنف مع بيرايبه ومعك ، ومع هذا الزميل القوقازي في هـــذه الغرفة من غرف بروصه .

انا مسرور من رشيد كمالي ، وكل يوم ازداد سرورا به . وليس ذلك لانه لا يرتكب حماقات ، فهـو يرتكبها ، وحتى كثيرا ،انه يشبه كمـــال طاهر منذ عاميــن ، وحتى كمال طاهر من تشانكيري ، لكن الحياة معه في غرفة واحدة لا تزعجني ابدا . اعتقـد تمامـا انني استطيع العيش معـه عامـا او عامين ، ايضا ، حسب الحاجة ، في هدوء تام . وثمة ، كذلك ، ابني محمد، واذا كنت قد انقصت عدد الاشخاص الذين اود العيش معهـم الى الحدالادنى، فذلك لانني فرضت على نفسي ، في هذهالايام، ان احسب الناس كمجموعة ، وان اكرههم كمجموعة ايضا .

ربما كنت قانعا بغنائية القصائد التي كتبتها من اجـــل بيرايبه ، وبعثت بهـا الي في رسالتك الاخيرة. وواقعـة كون كلمة الغنائية قـــد استغلت لتغطي الاشياء العاميــة الهابطـة جدا ، لا يثبت ان الغنائية سيئة في ذاتها . ان غنائية معافاة شديدة ـ مثل تلـك التي في قصائدك ـ هي احدى قواعـد الفنون الجميلة جميعها ، ولا يمكننا ان نكـــون شعراء او روائيين اذا لم نكـن غنائيين بالمعنى الحقيقي للعبارة . اننـا نجد لدىابرز الواقعيين جانبا من الغنائية الصلبة . والمشكلة هي في حجم الغنائية فـي ما يقوله الكاتب ، في المحتوى ، واخيرا لنتجاوز ذلـك . الا انـه يتوجب عليك الا تعلن دون تفكير انك تكره الغنائيـة . هناك غنائيـة لدى كـــل « المثاليين في حياتهم » .

.. راقني نقدك لقصة رشيد كمالي ، مما يدل على انك تعمـل الان بوعي شديـد ، برغـم انك تـدعي العكس . لكننـي أود أن أضـــع خطا تحت نقطـة هامة . فـي رأيي ان هـذه القصـــة هي قصة جو ، ولكـن ضمن الذوق الواقعـي . قصة يدفـع فيهـا الاشخـاص ـ بقدر ما هم أفراد ـ الـى الخط الثاني ، ويـوضع فيها منـاخات علاقـــاتهم ووسطهم الاجتمـاعي في الخط الاول . تخيل ان القصة كتبت بهذا القصد وقم بنقدهـا من هذا المنطلق . سيكون هذا النقد تمرينا جيدا لك وسيفيد منه سميك . ان سعيد فائق ، كما تعلم ، كتب قصصا بنفس القصد ،غير غير اننا لا نجـد ، في قاعدة قصصه ، واقعية ، ولكن تنفجا وفلسفـــة مثالية ، ومـا يتوجب الان هـو ان نوضح كيف يجب ان نكتب قصة جـو على قاعدة واقعية . عليك اذن أن تقول ما تراه في هذه المشكلة .

اصغ الي جيدا . انا لا اصف بالجودة اطلاقا ما اجده رديئا ، من اجل اي شيء في العالم . قصيدتك كانت جيدة . قلت لك انها كانت جيدة . لو كانت رديئة لاعلنت انها رديئة . وعندما كتبت الي قائلا انني اردت ان امتدحك فقد قلت حماقات . هذه القصيدة تشكل مثلا ممتازا متطورا بشكل جيد ، ومبذولا فيه جهد للشعر الواقعي يفتح مخايل جديدة في هذا المجال ، لا اريد ان اغدق عليك « تشجيعات » في مثل سنك ، لو انك كتبت اشياء رديئة ، هذه القصيدة كانت جيدة .

كمال ! اجد ما يقلقني بسبب الرطوبة في غرفتك ، واذا كان من غير الممكن ان تأتي الى هنا بسرعة ، فاستخدم « منقل » نار ، ولكن احذر خطرالاحتراق بغاز الفحم . لقد انتقلنا الى المستشفى مع رشيد كمالي بناء على طلبنا ، لان هناك مدفأة في الشتاء . نحن ثلاثة في الغرفة ، هو وانا وارتوغرول . هذا الاخير يعمل في المستشفى . وضعنا جيد هنا. لدينا أسرّة والغرفة مضيئة . آه ! تبا لنا . أنت هناك تعيش في الرطوبة، ونحن قرب المدفأة . ارجو مديرك ووكيله ان يضعاك أنت الذي لا تمتلك الا مقاومة قليلة ، في مكان اكثر راحة .. يا لله ! اقبلك يا عزيزي .

(١٧ / ١٠ / ١٩٤١)

كمال ، اخي !

.. كنت سعيدا جدا بما قلته لي عن قصيدتي الطويلة . لو كنت لا اعرف حدودي ، ولو كنت لا اعرف انه ضروري لي ان اكون ملزما بكتابة اشياء افضل واكثر كمالا ، ولو كنت لا اعرف طموحاتي الخاصة ، لشعرت بالفخر بما كتبته ، للمرة الاولى في حياتي .

.. انا اعرف ان من واجبي ان اكتب اشياء افضل بكثير من كل ما كتبته حتى الآن ، ان اكتب كما لو كنت اصارع نفسي . والواجب المؤدى في هذا الصراع هو ببساطة الواجب . معظم ملاحظاتك صحيح ، وقد قمت بالتصحيحات الضرورية ، لكن البيت : « لقد اثملناهم » الذي صدمك لن اغير شيئا فيه ، بالرغم من ان هؤلاء القذرين يندفعون الى الهجوم حتى دون أن يشربوا ، كقطيع من الحيوانات. هذا البيت هو بالنسبة الي متنفس، وهذا يمنعني من ان العنهم واباءهم وامهاتهم وكل الذين انحدروا هم منهم، وكل المنحدرين منهم ، وحيوانيتهم البائسة .

... من المحال ان نغفر لوطن عظيم ولشعب ذي ماض شريف ، ان

يذبح ويقتل بدناءة مماثلة ، مهما كانت الظروف .. ربما كنت لا اتكلم بشكل علمي ، ولكن في ٢٦ تشرين الاول هذا من عام١٩٤١ ، ليس من علم يسمح لي بأن اغفر ـ في اللحظة التي اكتب فيها هذه الرسالة ـ للعمال الالمان ، او ان اجد لهم اعذارا . انت ترى جيدا لماذا الح على البيت « لقد اثملناهم » الذي هو الحقيقة.

.. ارسل اليك في رسالتي المقبلة بداية قصيدة كبيرة ، شرعت بكتابتها ولكنني لم امسها منذ شهرين او ثلاثة .

لنتكلم عنك قليلا . ساجيديرك تتقدم ببطء . انت لا تكتباقاصيص. عليك ان تنجز ، باسرع ما يمكن ، روايتك ، وان تكتب اقاصيص قابلة للنشر في « ساس (١) او في « يني ادبيات (٢) لان الاقاصيص التي تنشرها هاتان المجلتان جديرة بالرثاء تماما . تصنع جيدا في أن تطير لنجدتهم . ارسل الي فورا ما كتبته حتى الان ، واعطني تفاصيل عما انت رهن كتابته ، وما لديك من جديد عن المهنة .

.. بيرايه لا تمتلك ،هذه الايام ، فلساواحدا ، ولا تستطيع انتأتي لتراني .

(٢٦ / ١٠ / ١٩٤١)

كمال !

راقتني القصيدة التي كتبتها الى بيرايه كثيرا . ليأخذك الشيطان اذا هجرت الشعر . في قصيدتك غنائية جيدة معافاة تماما . لقد استخدمت القوافي جيدا . برافو ! اليك وحدك استطيع أن أكتب كل شيء بصراحة كبيرة . قصيدتك ثمرة ربيعية جديدة نضرةولاذعة . اعيد : لا حق لك في هجر الشعر . يتوجب عليك ان تكتب ايضا قصائد ، مثلما سأشرع انا ، بجدية كبيرة ، في كتابة روايات واقاصيص عندما اتجاوز الاربعين .

بيرايه في استانبول . محمد وقع وجرح وجهه . بعثت اليها بقصيدتك ، والله يعلم كم ستسرها . انا أشعر كل يوم بأنني أكثر لياقة وانني ممتلىء بالامل والوثوق . اقبلك .

(دون تاريخ)

---

(١) و (٢) (الصوت) و « الادبيات الجديدة » مجلتان تقدميتان .

كمال ! اخــي !

تلقيت رسالتك . كل ما احتوته سرني . صورتك بالدرجة الاولى . رشيد كمالي وانا بعثنا اليك بصورتنا ، غير انها قبيحة قياسا الى صورك ... الذي الى جانبي وذقنه بيده ، هو محمد علي سكرتيرنا ، وفي الخلف باللباس الرسمي ، رئيس الحرس ، والى جانبه الحارس،وباختصار نرسل اليك صورة السجناء والحارس لسجن جمهوري ديمقراطي حقا !

فرحي الثاني ــ لانني لم أقرأ رسالتك الا بعد أن نظرت في صورتك هو وعدك في ان تشرع في العمل .وفرحي الثالث، هو اعتبارك اياي مواطنا صالحا ، والفرح الرابع هو ان اعلم ان ناجي قد قرر فعلا ان يكتب عمــلا جادا ، وبشكل خاص أن يذهب كي يزورك في مالاطية . سيستطيع بهذا أن ينقذ نفسه من الكحول ، عدوه الاسوأ ويجد الفرصــة كي يقرأ . وان يحيا ثلاثة او اربعة اشهر بقرب صديق مثلك، فذلك حظ لم نكن نأمل بــه لناجي . اجبره ، بشكل خاص ، على القراءة، قراءة كتيبات في الفلسفةعلى الاقــل .

انجزت الكتاب الاول من كتب اربعة . ارسله اليك ، وفيه اكثر مــن ٣٣٥٠ بيتا من الشعر . وسأرسل اليــك ، دفعة واحدة ، النص النهائي بعد تصحيح الكتاب الاول ، فتقرأه آنذاك من البداية الى النهاية . غير انك ستؤدي لي خدمة كبيرة من اجل تصحيحاتي ،اذا قمت بقراءة مــا ارسله اليــك منذ الآن ، وقلت رأيك فيه ،ارجــوك الا تهمل ذلك .

ذات يوم ، وانا اتحدث مع رشيد كمالي، قلت له ــ ولا اذكر بــاي خصوص ــ انني لن أكتب أشعارا البتة . لا أريد أن ألعب على الكلمات . هذا الكتاب ذو الـ ٣٣٥٠ بيتا ، الذي اعمل فيه، ليس كتاب شعــر . فيه عنصر شعري ، وحتى قواف احيانا من وجهة نظر تقنية . لكننا نجد فيه، بمقدار ذلك ، نثرا ومسرحا وحتى سيناريو ، كمــا سبق لك ان لاحظت . العنصر الذي يتفوق ، والذي يحــدد المجموع ليس العنصر الشعري ، ولا العناصر الاخرى كذلك ، ومع هذا اريــد ان اقول انــي تخليت ، كمــا اعتقــد ، عــن ان اكون شاعرا ، وانــي اصبحت شيئا آخر . اصغ الي. اود ان اشرح لك هذا بشكل افضل . ليس هذا العمل اول عمل شعري لي، فيه أشخاص وعقد ، هذا موجود في « بينرجي » و « تارانتا بابو » (١) .

(١) تارانتابابو قصيدة ملحمية لناظم حكمت

الخ .. غيرانــا نجـد في هذه الاعمال ، هنا وهناك ، نثرا ، ومقطعـات من النثر . وكتابي الوحيد دون نثر هو « الجوكندا » (١) .وفي « بيزجي » كما في« بدرالدين » ازدواجية ، شعر ونثر ، دور خاص بالشعر ، ودور خاص بالنثر ، هنا ليس ثمة ازدواجية كهذه . لكنها ليست في الوقت ذاته قصيدة كالجوكندا . الحوارات ، بخاصة ، تمنعهامن ان تكون قصيدة .لكن هذه الحوارات ، بالرغم من انهـا ليست من الشعر، فهي ليست كذلك من النثر البسيط ، الامر الوحيـد الذي انا راض عنه فيهذا الكتاب هـــو الوحدة . اننـا لا نرى البتة ازدواجية الشعر ـ النثر، وهذهالوحدة لـــم تصنع من عنصر وحيد ، كمـا في الجوكندا . انها ، هنـا ، وحدة عنـاصر متضاربة . وقد اكدت انت على ذلك في احدىرسائلك ، ومن المؤكـد ان المحتوى هو الذي حدد جدة هذه الوحدة في الشكل .

اكتب لك كل هذا كي اجعلك تلاحظ انني ، وللمرة الاولى في حياتي ككاتب ، قد بذرت ذرة وحصدت شعيرا كما يقول المثل ، وان كل هذا كان مفاجأة لي . ولكنني راض بهذا الشعير . أرجوك أن تأخذ كـل هذا الذي قصصته عليك بعين اعتبارك عندما تقرأ هذا الكتاب .

أنا سعيد جدا اذ ارى ان قصائد رشيد كمالي ، قد راقتك . وأنت تعرف جيدا انني لم أخدع ــ في مجال الفن ــ الا مرة واحدة حتى هذه اللحظة ، اما في موضوع نائل ف فان هـذا الصبي لم يبلـغ اي شـــيء قط . واستشعـر ايضا تبكيت الضمير لانـني شجعتـــه، ودفعتـه لان يكتب اشعـارا .

كمال ! ابدا اذن بكتابة روايتك . انجز « كيليجي » (٢) واعمل فـي الرواية ، سأعيد عليك دون توقف : « اعمل في الرواية » الى اليوم الـذي تبدأ فيه العمل . لا اعرف لماذا لم يرقني عنوان الرواية التي سيكتبها ناجي بالتعاون مع جواد شاكر (٣) . عنوان على طريقة محمود يساري (٤) . ولا تقل لي العنوان ليس مهما . العنوان يكشف لنـا بايـة عقلية بـدأ الكاتب عمله . ثم ان العنوان يؤلف جزءا من العمل . واذن فقد استأت وانا اقرأ

---

(١) قصيدة ملحمية له ايضـا .

(٢) كيليجي محمد (محمد لقاط السنابل) قصة جعل منها كمال طاهر رواية فيما بعد .

(٣) (جواد شاكر) كاتب معروف باسمه المستعار (صياد من هاليكارناس)ولد عام ١٨٨٦ .

(٤) محمود يساري (١٨٩٥ ــ ١٩٤٥) مؤلف روايات شعبية .

العنوان . انه شاعري جدا . شاكر شاعر كبير . ان أحدا منا لم يعرف ان يكون شاعرا من طبقته بالمعنى الكلاسيكي للعبارة، بالمعنى الفنائي ، ولكن الفنائية عنده مبالغ فيها احيانا ، مما يحيلها الى غنائية « نظمية » . ناجي، ايضا ، شاعر مقبول . وعندما علمت ان هذين الشاعرين اللذين يضنيان النثر ، قد عنونا روايتهما « قاره قيز » ، فان هذا أصابني بقشعريرة .

أرغب كثيرا في رؤيتك ، تندفع الدموع الى عيني عندما أشاهد صورك.

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

.. اثارت قصتك عن الصديقين فضولا كبيرا لدي . التفاصيل والشروح في رسالتك زادت من هذا الفضول . « رجال البحيرة » كانوا المنعطف الاول الكبير في مهنتك ككاتب . آمل ان تغدو هذه القصة ، من وجهة تاريخ ادبنا ، كتلك تماما ، قصة صديقين بدت لي وكأنها تبشر بمرحلة جديدة عندك . احب كل ما هو جميل من وجهة نظر الانسانية التقدمية ، واذا ما كتبت هذه الاشياء من قبل أناس أحبهم ، فانها تغدو ، بشكل اكبر ، منبع محبة خفية بالنسبة الي ، انت تشغل احد المحال الاولى بين الرجال الذين احبهم ، ومن اجل ذلك فكل ما تبدعه من جميل وجيد للانسانية التقدمية يهمني ويجعلني سعيدا بشكل مضاعف . واود ، بهذا الخصوص ان اسجل ملاحظة حول نفسي . حتى الآن لم اكن ابدا غيورا من فنان ، من كاتب ، من شاعر ، من روائي الخ.. وليس ذلك لانني أغذي ثقة عمياء ومغرورة بالنسبة لعملي ، بل السبب في ذلك انه اذا كان العمل موضع النظر عمل فنانين من خطنا وقريبين منا ، او عمل فنانين هيأوا لفنانينا ، فاني احبهم باكثر مما يسمح لهذا الحب ان يمتزج بغيرة من فنان، واذا كان الامر يتعلق بعمل لاعدائنا ، فان السبب في عدم الغيرة هو انني أعتبر هؤلاء الرجال كائنات مختلفة تماما عنا . لاضرب مثلا : اذا كنا نحن اشجارا فانهم هم قطط . سأشرح نفسي بطريقة اكثر تشخيصا : لم اغر ابدا من مكسيم غوركي او من ماياكوفسكي او من توفيق فكرت (١) ، ولم احسد ابدا اي شاعر ــ وليكن من شعرائنا ــ في ادبنا التركي المعاصر ، لانني

---

(١) السمراء الصغيرة .

(٢) (١٨٦٧ ــ ١٩١٥) شاعر كبير في نهاية القرن التاسع عشر ، مجدد في العروض، يدافع في قصائده عن افكار انسانية وينكر الحكم المطلق للسلطان عبدالحميد .

احبهم . وهذا الحب يماثل ذلك الذي استشعره نحو بيرابيه ، فهل يمكنني ان احسد بيرابيه ؟ من ناحية اخرى ، فانا لم احسد قط احمد هاشم اوبودلير او ،لا ادري ، يحيي كمال ، ذلك ان جماليتهم عدوة جماليتنا ، ومن نوع آخر وفصيلة اخرى . ثم هناك شعراء من مثل مولانا (٢) او فضولي (٣) ، وهؤلاء بعيدون عنا اليوم جدا ، ومن اجل ذلك ، ربما ،لا اشعر البتة انهم اعدائي . وبصراحة ، فانهم يروقوني من وجهة نظر تكنيكية فقط ، وحتى احيانا ، بعناصرهم الفنائية . ومع ذلك كلما مر الزمن افهم بشكل افضل انني ، قبل كل شيء ، مخلوق سياسي ، وانا استخدم كلمة سياسي بمعناها الاكثر تحديدا طبعا، وهذا هو السبب في ان لديّ ـ خارج الفيرة الجنسية ـ الحب ، وايضا شيئا من الحقد والكراهية ، ولكن ليس لديّ حسد ابدا . وربما كانت هذه الخصوصية متأتية من اضطراري أن اكون ماديا في الفلسفة ومثاليا في الحياة .

لماذا اكتب اليك كل هذا ؟ ربما لانهم نقلوا الي بعض الثرثرات في ذم الناس على طريقة البورجوازية ، حدثت بخصوصي .

.. وعدتك بأن ارسل اليك كل اسبوع شذرات من « مشاهد انسانية » ولم استطع ان اكون عند وعدي . اصبت بزكام طوال الاسبوع ، وانت تعلم انه يستحيل علي ان اعمل حين لا اشعر انني في وضع حسن . في رسالتي المقبلة سأجعلك تنسى هذا اللاوفاء في قولي بارسال نص مضاعف .

.. ابعث الي بقصتك ، او على الاقل بما كتبته منها حتى الآن . ان الشرف ، وكذلك الحق ، في ان اقرأ قصصك وهي لما تتكون بعد بشكلها النهائي ، يعود الي .

علمنا ان مجلة « يني ادبيات » قد منعت . ونحن لم نتلق مجلة«ساس» واظن انها توقفت عن الصدور ايضا .

.. لو انك استطعت ان تأتي الى بروصه !

.. في هذه اللحظة بالضبط ، اعني في اليوم الواحد والعشرين من الشهر الثاني عشر من عام ١٩٤١ ، وفي الساعة التاسعة والنصف ليلا ، وانا

---

(٢) مولانا جلال الدين الرومي ، شاعر صوفي كبير من القرن الثالث ، وقد اسس ابنه، وهو شاعر ايضا ، فرقة المولوية .

(٣) فضولي شاعر غنائي كبير من القرن السادس عشر .

اكتب هذه السطور ، تسرح افكاري بعيدا جدا . سأصغي ككل يوم الى نشرة الاخبار في العاشرة والنصف . انني اصغي اليها بفرح هذه الايام ، واقول لك بصراحة انني لا ابالي بالموتى والخرائب والحرائق ، فالنصر كان كبيرا الى الحد الذي يجعلنا ننسى كل الالآم .

(٢١/١٢/ ١٩٤١)

عزيزي كمال ، أخي (١)

وصلتني رسالتك . انك تحبني كثيرا ، وتبالغ بالاحكام التي تطلقها حولي . قد اعيش خمسين سنة أخرى ، ولكنني لن اتمكن من الوصول الى السعادة بان اكون انسانا جيدا وكبيرا الى الدرجة التي يتصورها قلبك . لست سوى رجل بسيط ، يحيا ويدرك ويؤمن ويناضل بكل بساطة . سأتغلب بالتأكيد على مرض الكبد الذي اصابني ، وربما لن يكون هذا المرض هو الذي يسبب موتي . الالآم مستمرة في الوقت الحاضر ، وانا اتبع نظاما صارما ، وانه لغريب ان يلعب بي كبدي هذه اللعبة ، فانا لا احب الكحول ، وآكل قليلا ، على انه ، في كل حال ، ليس ثمة ما يثير القلق حاليا . لقد شخصوا لي مرض الكبد ، ولم يحددوا نوعه . سأعرض نفسي على الطبيب غدا ، واجري تحليلا للبول ثانية ، وابلغك النتيجة فيما بعد .

(دون تاريخ)

كمال !

شيء ما ينقص رسالتك ولا ادري ما هو ، وان كنت احسب انك كنت سيء المزاج ، مريضا او حزينا ، وان لديك مزعجات تخفيها عني . امضيت

---

(١) يتابع ناظم حكمت ، في رسائل كثيرة الى كمال طاهر ، وخلال اعوام عدة ، الكلام على السجن ونقل كمال الى بروصه ، وقرب الافراج عنه وعن رفاقه السجناء ، وعن الادب والفن والصحة والمرض والشؤون الاخرى ، من منطلق الامل والتفاؤل دائما . ولما كان غرضي من تقديم مقتطفات من رسائله ، انتقاء تلك التي تصور حالته النفسية في السجن ، واهتمامه الكبير بالسجناء والناس ، وتجلو بعض نواحي حياته في اصعب فتراتها ، فانني اكتفي ، بعد الان ، بنقل مقتطفات صغيرة من رسائله المكتوبة عام ١٩٤٥ ، وهو العام الذي كتب فيه قصائد الساعة ٩ ـ ١٠ ليلا ، وفيها اجمل غزله بزوجه بيرايه ، هذا الغزل الذي يمتزج فيه الخاص بالعام ، وما هو ذاتي بما هو اجتماعي ، دون ايراد القصائد نفسها ، التي سبق ان عرضت لاكثرها في القسم الاول من هذا الكتاب (ح.م) .

يوميـن افكر بهـذا قبل ان اكتب اليك . وعبثا قرات رسالتك ثانية ، فقد احدثت الانطبـاع الغريب نفسه .

ارسل اليك ١٥ ليرة . انهم يهيئون لك قماش بزتك . اعود ثانية الى قصيدة « مشاهد انسانية » دون رغبة كبيرة ، وسأنهيها قبل مجيء الصيف.

.. أزعجني نبأ مرض نوري طاهر . تلقيت رسالة من حمدي ، وهو لا يحدثني عن هذا . اكتب اليهم رسائل اكثر عقلانية ــ يالهـا من صفـة غريبة ! ــ كي يكون في الوسع ان يسلموهم اياها .

.. اليك هذا النبأ : ارسل اليك قصة كتبها ابنـي ، وانا مضطر ان ابعث اليك برسالته ، لان القصة مكتوبة على ظهرها ، وستعيدها الي ، لانـي انتظـر رأيـك فيهـا .

.. وصلتني رسالة من عمي ألخصها لك : « صبرا ، يا ولدي، فالعدالة ستنتصر في النهايـة ، وتستعيد حريتك . اقـوم بكـل مـا استطيـع لمساعدتـك » .

.. اطل الربيع عندنا ، فكيف هي الحال عندكم ؟ مضى وقت طويـل دون ان نتحدث في الادب . هيـا ! اختر موضوعا لنناقشه . رغبتي قوية في ان اراك . واذا لم يطلق سراحنا حتى الشتاء ، فلا بد من القيام بمسـاع جديدة لنقلـك الى سجن بروصه .

كمال ! توقف عن الاستسلام للكسل. اشتغل . لا تنس اني أقسمت بانك ستكتب اجمل روايـة في بلادنا .

(دون تاريخ)

كمال ، اخـي !

تسلمت رسالتك ، ونسخت نقدك لقصة ابني ، وكذلك نصائحك له، وسأبعث اليه بكل ذلك ، وسيكون سعيدا جدا به ويعرف كيف يستفيد منه.

لا جـديد لدي ، اشعر باني شاب ، رغم كل شيء ، كلي شهية للطعام، وكلـي أمل . لكنني اعاني من الارق . عدت ثانية الى ترجمـة « الحـرب والسلم » ــ مع استمراري بالعمل في (المشاهد) ــ وحتى الايام الاربعيـن القادمة ، اكون قد انهيت الجزء الثالث من هذه الترجمة ، وخلال الشهرين التاليين ، ابـدأ الجـزء الرابـع .

.. انت لا تدري مبلغ حاجتي لقراءتـــك ، لقـراءة قصصك ذات الشخوص الاصيلة ، المكتوبة بلغتـك الجميلة ، الراسخة والفنية . عثـرت

على « رجال البحيرة » وقراتهـا ثانية ، وقدرتك ـ وقدرت نفسي ـ اكثر .

لا بـد من الاهتمـام هذا الصيف بنقلك الى هنا . نتحدث عنك فـي جميع رسائلنـا ، بيراييه وانـا . والغريب في البشر انهم على البعد ينسى بعضهم بعضا ، او ان الفراق يقربهم اكثر ايضا . ليست هذه ملاحظة اصيلة ولا كبيرة الاهمية ، لكـن لاجل التعبيـر عن حقيقـة او تكرارهـا ، ليس ضروريـا ان تكون هامة جدا او اصيلة جدا .

الى ايام جميلة ايها العزيز ، ومع الحنين اليك .

(دون تاريـخ)

كمال !

طلب الانتقال وصل الى السجن وملئت الاستمارة الخاصة بك وارسلت الى الوزارة . كتبت الـى ضيـا ميريتش ، المستشار الحقوقـي لوزارة المواصلات ، وانتظـر بفارغ الصبر البرقية التي تعلمني فيها بانـك فـي طريقـك الى بروصـه .

ارسلت لك ١٢ ليرة . اذا طلب منك دفع اجرة الطريق فاخبرني برقيا. سأحاول ان اجد لك النقود هنا .انـني سأشعـر بنفسي طليقـا تقريبـا عندمـا تكـون معـي .

انهيت الجزء الرابع وبدات الجزء الخامس . انا اصحح الرابـع فـي الوقت الحاضر ، غير ان العمل في التصحيح والاضافات والاختصارات ،كل هذا الذي يأتي بعد التحرير ، هو أصعب من التحرير ذاته. لكنني قررت أن اعمل بانتظام ، ولن اعمل في الجزء الخامس قبل ان اكون قد انهيت تصحيح الجزء الرابع ، ولو بشكل سريع .

لا افكر الا بقدومك . سيكون امرا رائعا ان تأتـي . وسأكون بائسا جدا اذا لم تأت . فقـد اعتدت تمامـا فكرة انك ستكون هنا قريبا .

غرفتي في مركز التمريض .غرفة نظيفة،مرتبة، وجدرانهـا مطليـة بالكلس ، وقد هيأت لك منذ الآن سريرا .

(دون تاريـخ)

عزيزي كمـال !

قرات رسـالتك بسرور عظيم . وانهـا لرسالة يمكـن ان تكتبها انت ، ملأى بالجراة ، وروح النكتة ، ورائعة مثل ذكائك وقلبك .

لدي خبران لك : الاول سـيء ، والثاني طيب نوعا ما . لنبدأ بالخبر

الثاني : لقد شفيت من المرض ، وتمكنوا من اخراج الحصى مني وانا بخير. اما الخبر السيء فان ابني محمد مصاب بالسل . لقد اجروا لـه معالجـة طبيـة . كـل شيء حدث في احد عشر يومـا ، لكنه ، الآن، خارج دائـرة الخطر . يقول الاطباء انه سيشفى خلال شهرين،وان جسمه الفتي سيتغلب على المرض . يمكنك ان تتصور في اي وضع كنا ، بيرايه وانا ، خلال هذه الايام . . كنـا كالمجانين حقا ،ونحن الآن اهدأ نوعا مـا .

لا املك الجراة للحديث كثيرا في هذا الموضوع .

ابعث اليك بمجلة « TAN » (١) الصادرة في انقره ، تجـد فيهـا مقـالا حول كتاب « اورخان فيلي » . واني لاشارك كاتب المقال رايه ، لكنني لم افهم جيدا السطور الاخيرة التي يقول فيها الكاتب :

« اذا اردتم ان تجدوا نموذجا للشعر الحديث الاصيل ، فعليكم بقراءة « المعلم » أو شيء من هذا القبيل ، فالى من تراه يشير ؟ الى ماياكوفسكي؟ لقد حدثت عندنا ، بكـل تأكيـد ، خطوات على طريق الشعر الحديث للقرن العشرين ، ولكن ليس لدينا معلم بعد في هذا الميـــدان ، يمكننا قراءته واعادة قراءته . ولنقل ان ثمـة معلمين في طريق التكوين .

اتلقى بانتظام اخبارا من سجن سينوب. انهم يرسلون لي بضاعة ابيعها هنـا وارسل اليهم ثمنهـا . اني سعيد لكوني قادرا علـى مساعدة هؤلاء الشباب على نحو ما . غير اني اخطىء اكثر الاحيان في حساباتي . أنسى ما بعت ، ولمن بعت ، ويتوجب علي ان ادفع من جيبي . ولكن ليس لهـذا من اهمية . تكفيني لذة تقديم خدمة لهم .

هل كتبت لك ان لدي كناريا اسميته « ميمو » وقد نما هنا في غرفتي بالـذات . انه يغني في هذه اللحظـة التي اكتب لك فيها هذه الرسالة . . هذه عادته ، فكلمـا قرات لنفسي بعضا من قصائدي ، او كلمـا كتبت على الالة الكاتبة ، يشرع هو بالغناء . وهو يغني بقوة الى حد يمنعني ، احيانـا، مـن استذكـار قصائدي .

كتابي يوشك على الانتهاء ، وانـا ما زلت في صيف ١٩٤٢ منه ، في احدى مدن البحر الابيض المتوسط ، ايطاليا . واحسب اني سأمل منـه قريبا . ليس ذلك صحيحا ، فيا لهـا من نكتة ، لن امل من ذلك مطلقا ،لكن الكتاب يكـر كالجوارب وينمو كالنسيج .

---

(١) مجلة تقدميـة الاتجـاه .

هذا كل شيء .. ابني مريض لكنه سيشفى اكيدا . اكتب الى بيرايه فسيسرهـا ذلك . لقد عاشت كل هذه المأساة بجراة عجيبة لا تصدق ،الى حد انني بكيت عندما قرأت رسالتها ..

(دون تاريخ)

كمال ! ايها الاخ .

تهاني بمناسبة سقوط الفاشية « الرسمي » في اوروبا .

ان تنظيف بقايا الفاشية غير المنظورة حاليا ، والمختبئة هنـا وهناك ، والمستعدة للظهور في اول مناسبة،سيتطلب وقتا دون شك ،ولكنها ستزول في النهاية من على سطح الارض دون أن تترك اثرا .

في وسعي ان انهي اليك اخبارا جيدة عن عائلتي : اجروا لامي جراحة في العين ، وهي ناجحة تمامـا ، وسيجرون لها جراحة في العين الاخرى، ويمكنهـا ان تستعيد نورها ورسومها والوانهـا . مرض محمد توقف فجأة كمـا بدا ، وهـو الآن بحالة افضل .

قصائد « مجلة T A N تعجبني كثيرا ، وبخاصة تلك المنشورةعلى الصفحة الرابعة . جميلةكلها ، وجيدون هؤلاء الشعراء الشباب .

.. ابعث اليّ بصفحة على الاقل من قصتك الجديدة ، أو مقطع ما..

(دون تاريخ)

عزيزي كمـال !

حدثت لي قصة غريبة ، اليكها : ارسلوا موقوفـا آخر الى مركز التمريض كي يعمل ممرضا . انه ملازم محكوم بمحاولـة تجسس لحساب المانيا . وقد حاول ، مساء احد الايام ،ان يضرب موقوفا اخر ، متهمـا اياه باستغابته . انت تعلم انني لا اتحمل ان يضرب الناس ، فاردت التدخـل . وقد غضب هذا السيد مني ، وكال لي بعض اللكمات وشتمنـي ، وعندمـا فصلوا بيننا القى بنفسه على الارض وسال الدم من شفته . وعلى هذا فقـد حكموا علينا بقضاء ثلاثة ايام في الزنزانـة ، وبسبعة ايام لمن تدخلوا في الامـر .

لقد انهيت عقوبتي ، فما رايك ؟

انهم حكموا علي ، بفضل المعجبين بالفاشية في المانيا ، بثمانية وعشرين عاما من السجن ، وها هم يحكمون عليّ بالسجن في الزنزانة لانني منعت

شخصا يتجسس لحساب الفاشية من ضرب الناس ، اليس ذلك مضحكا ؟ غير ان هذا القصة ، مهما بلغت من الهزل ، لن ادعها تمر هكذا ، فهل « العدالة » وقف على الفاشيين فقط ؟

والدتي تبصر . رسمت عشرين لوحة صغيرة في شهر واحد . محمد يسير نحو الشفاء . رسالتي قصيرة فاعذرني ، هناك ايام تكون فيها الكتابة مزعجة ، وكذلك الكلام ، وهذا اليوم من تلك الايام

(دون تاريخ)

عزيزي، اخي كمال !

والدتي جاءت لزيارتي . لقد نحفت وشاخت بشكل هائل ، وهذا ما آلمني كثيرا ، الا انها مستمرة في الرسم بعين واحدة ، وهذا شيء محزن. محمد نجا تماما من المرض .

حرارة بروصه في هذا الشهر غير محتملة ، انها أسوأ بكثير من تشانكيري . والحر سيستمر ، وما دام كذلك فانني عاجز عن القراءة .

ليأخذني الشيطان . اصبحت واقعيا الى حد لعين ، واخذت أحلل الاحداث ببرودة دم ، الى درجة انني اتنبأ بالمستقبل ـ ولا اقول هذا للمفاخرة . انني لا أفرح أو أتحمس الا بالقدر الكافي تماما ، واقدر كل شيء حسب قدره .

لقد كان الامر كذلك فيما يتعلق بانتصار حزب العمال في بريطانيا . اتجاهات الجماهير الانكليزية افرحتني ، لكني لا أرفع الى السماء حكومة اتلي ـ بيفن . أعطيك هذا كمثل .

حين يصبح الطقس اكثر برودة سأشرع بالعمل . في رأيي اننا سنبقى في السجن وقتا طويلا ، وسيسمح لنا فراغ الوقت بالعمل كثيرا ، ربما كان هذا عملا غير مجد ، لكنه افضل مع ذلك من العطالة .

(دون تاريخ)

كمال !

الواضح من جواب الوزارة هو انتفاء النية في نقلك الى بروصه او اي مكان آخر . لا تستطيع أن تتصور الى اي حد يزعجني ذلك . لقد رسمت مشاريع كثيرة وانا اتخيلك ستاتي .

.. الحر الشديد اخر عملي كثيرا .

.. لا اريد مالا ، فاذا قبضت مبلغا ما محرزا نسبيا ، ابعث خمس ليرات الى فوزي كوتشيز ـ في سجن سيفاس ، هـذا الصبي المسكين المصاب بالسل . انا ارسل له عشر ليرات كل شهر ، فاذا ارسلت له انت ايضا بعض النقود فان ذلك سيجعله مسرورا ، وسيتمكن من شراء ما يأكله.

.. كلما مرت الايام ، غضبت وانا اقول في نفسي انك لن تأتي . يبدو ان ضياء ميريتشن سيأتي الى بروصه ، وسارجوه ، مرة اخرى ، ان يتدخل لاجلك . يجب أن يعتبرونا ، نحن ايضا ، جديرين باجراء ديمقراطي ، وهو اجراء غير استثنائي رغم ذلك . غير انني أعلم ان كل شيء محال . لـن ينقلوك الى بروصه . ليس هذا تشاؤما ، انه ملاحظة .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

ارسل اليك قصيدة . حنيني الى بيرايه والى استانبول شديد الى درجة انني لا اتمكن من ضبط نفسي . كتبت هذه القصيدة الصغيرة حول زوجتي ومدينتي . ليس في القصيدة ما هو مثير ، لكن بوسعك إن تتأكد انها مخلصة . الاخلاص وحده لا يكفي ، لكن لا تكن قاسيا على القصيدة اكثر مما ينبغي .

(يورد بعد ذلك قصيدته التي يقـول في مطلعها : « لو ان مدينتي استانبولي ، ارسلت اليّ يوما صندوق عروس من خشب السرو » ، وقد وردت في القسم الاول من هذا الكتاب) .

(١٨ ـ ٩ ـ ١٩٤٥)

برقية

ارسل اليّ اخبارا عن صحتك .

عزيزي كمال !

سررت جدا اذ علمت انك تكتب اشياء جميلة ، وسررت أكثر لما حدثتني عنه حول اسلوبك . همة طيبة . علينا أن نحتل المكان الذي نستحقه فـي عالم الادب ، دون أن يخجل منا الرجال الذين هم في صفنا ، وذلك بـأن نبذل الجهد لنكون جديرين بهم .

.. اكرّس لزوجتي وقتي بين الساعة ٨ ـ ٩ من كل مساء ، واكتب لها قصائد صغيرة :

ولدنا مريض
ووالده في السجن
وراسك ملقى بين يديك التعبتين ،
ولكن ما يحدث لنا هو ما يحدث للعالم .
من الايام السود الى الايام البيض ،
سيحمل الناس الناس ،
وسيشفى ولدنا ،
ويخرج والده من السجن
وستضحكين في قرارة عينيك الذهبيتين .

(٢١ ايلول ١٩٤٥)

اجمل البحار ذاك الذي ،
لم نذهب اليه بعد (١) .
الخ ...

(٢٤ ايلول ١٩٤٥)

الساعة الواحدة والعشرون ..
الخ ..

. . .

أن نعيش ، يا حبيبتي ، فذلك عمل مليء بالامل
أن نعيش ،
فان ذلك لشيء جاد ،
كحبي لك .

هذه ، اذن ، ثلاث قصائد ، اخذتها لا على التعيين . انني كما ترى ، لا اتبع نصائح السيد غوته . أعمل بنفس طويل، من ناحية ، واشعر بالحاجة لان اكتب اشياء صغيرة ، من ناحية اخرى .

ستجري امي جراحة في العين الثانية ، وانه لعجيب أن ترسم بعين واحدة ، رؤيتها قليلة ، وأن ترسم افضل من السابق . ليس السبب انها لا ترى بدقة ما ترسمه . السبب ، غالبا ، هو انها لا تتعلق بالتفاصيل ، وتتخلص من الاكاديمية في الالوان ، وتغدو اكثر صدقا وتحررا . غير ان

---

(١) هذه القصائد وردت في القسم الاول من الكتاب ، لذلك اكتفي بالاشارة اليها. (ح.م.)

المسكينة قد شاخت بشكل رهيب في بحر سنة واحدة ، وهذا ما يسبب لي حزنا كثيرا حتى أكاد ابكي .

.. صحة محمد تتحسن يوما بعد يوم .. أقبلك بشوق ، أخي .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

لا يمكنك ان تقدر كم أشتاق أن اقرأ ما تكتبـــه ، لثقتي انه رائع . رشيد (١) قلق عليك ويعبر عن ذلك في كل رسالة منه . انه يسألني عمــا تكتب فأزوّده بأخبارك .

انا سعيد لان قصائدي الصغيرة اعجبتك ، يهمني جــــدا ان تعجبك القصائد التي أكتبها لبيرابيه . أنت على حق فيما يتعلق بموضوع القافية ، فهي ذات أهمية ، وبخاصة في قصائد صغيرة كهذه .

أعمل أيضا في « مشاهد انسانية » ؛ وكلما تقدمت في الكتاب كبر ، في الحقيقة ، شكي . لا ادري ماذا سيعطي هذا . ولاول مرة في حيـــاتي يستبد بي عملي ، فاحسّ بانني لست سيده ، وانه يسيطر عليّ ، ويرسم مخططه الخاص ، وهذا شيء سيىء جــــدا . انني أتساءل ، بعد خمس سنوات من الجهد ، عما اذا كان هذا الكتاب لن يتمخض عـــن ضجة ، عن صرخة لا شكل لها ، عن شكوى مزعجة ، عـــن وحش . اشكّ ، أقلق ، لكنني لا أستطيع الا ان أكتب . والكتاب يكبر ، يحطم أطره ، وبكلمة موجزة، يستعصي على كل نظام . واني لأسألك : الى اي حد يمكن لعمل غير خاضع للنظام أن يستحق الكتابة ؟

يا له من عالم غريب ، قسم من هؤلاء السادة الاشتراكيين ، يبدو كما لو انه يريد أن يأخذ مكان أولئك السادة الفاشيين ، وهذه ، في الحقيقة ، عادتهم القديمة ، والعادة هي طبيعة ثانية لا تنتهي الا بالموت .

أخيرا ، نحن فيعام ١٩٤٥ ، واني لاولي اهتماما كبيرا لكفاحالشعوب المستعمرة من أجل الاستقلال . يا لها من جلبة ، يا له من ارتباك ، لكـــن العالم يتبع طريقه الخاص .

سابعث اليك من الآن فصاعدا قصيدة أو قصيدتين في كل رسالة . وقد ارسلت القصائد في المرة الاخيرة . دون انتقاء ودوننظام . قل لي مـــا

---

(١) رشيد كمالي (كمال اورخان) الذي قضى محكوميته وخرج من السجن (ح. م.) .

هي تواريخهـا لابعث اليك القصائد الباقية بحسب التسلسل الزمني . ثم ان العنوان ليس قصائد ٨ ــ ٩ بل قصائد ٩ ــ ١٠ ، اي انهـا كتبت بيـن التاسعـة والعاشرة ليـلا .

.. انت خالي الوفاض بغير شك . قل لي ، ، ارجوك ، فاذا لم يكـن معك مال ، تدبرت امري لارسل لك ١٥ ليرة شهريا . وسأغضب جـدا واكـون حزينا اذا لم تقل الحقيقة .

ابعث اليك بقصيدة صغيرة اخرى :

على الجبل ،
غيمة ثقيلة من شمس غاربة
اليوم أيضا ،
تمرّ السـاعات دونك
كما لو ان الكون غير موجود الا بنصفه .
قريبا سيتفتح ،
زهر « شبّ الليل » الاحمر القاني
وتحمل أجنحة صامتة ، جريئة ، في الجو
فراقنا الذي يشبه المنفى ..

(٧ تشرين أول ١٩٤٥)

عزيزي كمـال !

كل ما تقوله عن قصائدي الصغيرة قد امدني بالشجاعة . انها لم ترق لرشيدي ، وقد انتقدهـا ، لكنه فعل ذلك بطريقـة الاطراء الشديد ، معلنا انها ليست جديرة بي . غير انني ، في هذا المجال ، أثق بك وببيرايبه ، اكتب كل ليلة تقريبا قصيدة من هذا النوع ، وهذا يقتضيني ساعة من زمن، وعلى ذلك فانـني لا اتسبب في ضرر لاي كـان ، اذ يمكنني ان احتفظ بهذه السـاعـة لنفسـي .

شوقي كبير لقراءة روايتك عن « ملاطيه » بعـد ان بلغني ما قلتهعنها. كل ما استطيع فعله هو تمني اطلاق سراحنا لنتمكـن من قراءة كل ما نكتب.

سأبعث اليك ببزتك ما ان تحاك وتخاط . كذلك اوصيت لك علىقطعة قماش نصفهـا قطـن ونصفهـا صوف من النوع الخشن والسميك لاجـل الشتاء ، وستخيطهـا هناك، وهي تصلح لبنطلون او سترة .

نبعث اليك مجلة TAN بانتظام ، وقد اخذ امين بك على نفسه ان

يرسل الينا الصحف ، وعليك ان تشكره على ذلك في احدى رسائلك .

لنتكلم على « مشاهدي » قليلا . ينبغي لي ان ابدل العنوان اولا ، لان الحوادث تجري خارج البلاد ، احيانا . ويخيل الي انه في ايامنا يستحيل ان نتكلم عن ايما شيء دون ان نتعرض للحرب . وهذه القناعة حملتني ، مرتين أو ثلاثا ، الى الجبهة الاساسية المثيرة للقرن العشرين ، وهي الثورات ، حركات التحرر الوطني والحروب العادلة . وعلى هذا فان علي ان اغير العنوان . لقد قمت حاليا ببعض التنظيم ، بعض الانضباط في الكتاب . كتبت ، حتى الان ، اكثر من ١٦٠٠٠ بيت من الشعر ، تشكل جزئين ، كل منهما يتألف من فصلين ، وعلي ان اكتب جزءا ثالثا يضم فصلين كل منهما في ٨٠٠٠ بيت ولسوف انتهي في اواخر الشتاء بغير شك . وفي رسالتي القادمة أبعث اليك بمخطط لكل ما كتبت حتى الان مع العناوين الفرعية . وهكذا يصبح في وسعي ان اعطيك فكرة عن الجزئين الاول والثاني ، واطلب رأيك فيهما .

ابعث اليك بعينات من قصائدي الصغيرة للساعة ٢١ ـ ٢٢ :

لقد أدركونا يا منوّر
فنحن الاثنين في السجن ... الخ ..

(٢٦ ايلول ١٩٤٥)

التفكير بك شيء جميل
شيء يبعث على الامل ... الخ (١)

(٣٠ ايلول ١٩٤٥)

الغيوم تمر ثقيلة محملة بالاخبار
والرسالة التي لم تصل أبدا ترتعش في كفي
والقلب على أطراف الاهداب ،
يتمنى لك سفرا سعيدا ،
نحو الافق الذي ينحدر
وانا ارغب في الصراخ : منوّر !
يا منوّر !

(٦ تشرين الاول ١٩٤٥)

---

(١) هاتان القصيدتان مرتا في القسم الاول من هذا الكتاب .

وبعـد ، هل تعلم ما يحدث يا كمال ؟ لقد اهتممت بصورة عامة ،بانواع من الشعـر جد صعبة ، او بالاحرى ، كانت جد صعبـة بالنسبة الي، الانواع التي كانت تتطلب مني كثيرا من الصبر والجهد والوقت ، بحيث وانا اتمخض الآن عن هذه القصائد الصغيرة ، اليومية ، او هي كذلـك تقريبا ، براحـة ، ودون جهد ، في مدى ساعـةواحدة ، اشرع بالشك فيجودتها .

اقبلك بحنين .. مع املي الدائم في ان نلتقي قريبا .

(دون تاريخ)

اخي العزيز !

تأخرت قليلا في الجواب . كنت اهيء لك عناوين الكتاب ، وعندمـا وجدت ان العناوين وحدها تستغرق خمس صفحات ، قررت ارسالها في مغلف آخـر .

انتهت حياكة القماش لثوبك وسارسله لك قريبا .

ظهرت مقالات في صحيفة او اثنتين تؤكـد ان ثمة « اتجاها فيصالح العفو عن السجناء السياسيين ظهر في المجلس الوطني ، وفـي حال نجاح هـذا الاتجاه .. »

كتب زكريا سرتل مقالا بعنوان « يجب العفو عن السجناءالسياسيين» سنقـرأه فـي مجلـة TAN وباختصار ، هناك اشاعات من هذا النوع بدأت تنتشر ، فاذا تحققت ، واذا ما اعتبرونا محكوميـن سياسيين (؟!) فسيكون بامكاننـا استعادة حريتنا .

الاسطر التي أوردتها لي من رسالة (....) راقتني كثيرا. لن نكونأبدا شعراء جيدين مثل نسائنا ، ايه ؟ أبعث اليك بمقطوعتين أو ثلاث مما كتبته فـي السـاعـة ٢١ ـ ٢٢ :

الريح تهبّ وتمضي
ونفس الريح لا تهزّ أبدا نفس غصن الكرز .
في الشجرة تغرد العصافير ،
واجنحتها تود ان تطير .
الباب مغلق :
فيتحتم اقتحامه ،
اذ تتحتم رؤيتك يا حبيبتي .
لتكن الحياة جميلة مثلك ،

ولتكن صديقة وحبيبة مثلك ،
أنا أعلم ان حفلة البؤس لما تنته بعد
ولكنها ستنتهي يوما .

. . .

حلمت بكِ الليلة
كنتِ جالسة على ركبتي
وقد رفعتِ رأسك ،
وأدرتِ نحوي عينيك الواسعتين الذهبيتين
وطرحتِ عليّ أسئلة .
وكانت شفتاك النديتان ،
تنفتحان وتنغلقان،
ولكني لا أسمع صوتك ،
في مكان ما من الليل ، تدقّ الساعة
كخبر مضيء ،
وانا أسمع ،
في الجو ، وشوشة اللانهاية ، الخلود .
وصوت كناري ، ميمو ، في قفصه الاحمر ،
وانفلاق الحبوب ، التي تدفع التربة ، وتنبت ،
في حقــل محــروث
وصخب الجموع القوية بحقها ، المنتصرة .
شفتاك النديتان تنفتحان وتنغلقان دون توقف
لكننـــي لا اسمع صوتــا .
افقت مغضبــا ،
كنت قد اغفيت فوق كتابــي ،
وانا اتساءل :
كل هذه الاصوات ، هل كانت صوتك انت ؟

(دون تاريخ)

عندما سنخرج من بوابة القلعــة
الى موعدنا مع الموت ،
فسنقدر يا حبيبتـــي ،
ونحن نرى المدينة لآخر مرة ،

ان نقول لهـا :
« برغم انك لم تجعلينا نفرح الا قليلا ،
فقد عملنا كل مـا في وسعنا ،
لاسعادك .
ان مسيرتك نحو السعادة مستمرة
والحياة مستمرة .
القلب هادىء
وفي النفس مذاق خبزك الذي نستحق ،
وفي عينينا حزن لفراق ضيائك .
لقد اتينا ، وها نحن نرحل ،
حظا سعيدا ، يا مدينة حلب !»

(١٨ تشرين الاول ١٩٤٥)

لننس اشجار اللوز المزهرة ،
فما فائدة ذلـك .
يجب الا نتذكـر ،
الذي لن يعـود مطلقا ..
جففي شعرك المبلل في الشمس :
ولتتوهج شقرته الندية والكثيفة
مع لدانة الثمار الناضجة ..
فيا حبـي ، يا حبيبتي ،
انـه الخريف .

(٥ تشرين الثاني ١٩٤٥)

مع الحنين ، والعاطفة اخي .

(٧ تشرين الثاني ١٩٤٥)

عزيزي كمـال !

مضى وقت طويل لم اكتب اليك . كنت طريح الفراش اعاني من دمل رهيب في ضرسي ، مع حرارة بلغت ٣٩،٥ درجة . اليوم تحسنت قليلا ، لكنني لا املـك بعـد القوة الكافيـة للكتابة . بعثت اليك اليوم خمسةامتار من « البوبلين » وعشر ليرات . اخبرني حال استلامها. ابعث اليك قصيدة صغيرة . اقبلـك واعود الى الفراش :

حارة وعنيفة كالدم الجاري في الاوردة ،
اخذت ريح الجنوب تصفر .
انني اصغي الى الهواء :
النبض تباطأ
وعلى جبل « اولو » يجب ان تنام الدببة ،
رائعة ، جذابة ،
فوق اوراق الكستناء الحمراء .
وفي السهل تتعرى اشجار الحور .
الخريف سينقضي ، مرة بعد مرة ،
والربيع سيعود ، مرة بعد مرة ،
ونحن سنقضي شتاء اخر ،
متدفئين بنار غضبنا الاكبر ،
ورجائنا الاقدس .

(١٢ تشرين الثاني ١٩٤٥)

كمال :

انا مفعم حبا واعجابا بشعبي ، وممتلىء غضبا ايضا ، الى حد انني غير قادر على شرح لماذا كل ذلك . لنكف عن الكلام حول هذا .

.. لم اتسلم بعد الكتاب الذي تقول انك ارسلته لي . قصة الثلاثة عشر زنجيا صغيرا ..

شيء او شيئان ينقصان قصيدتي الصغيرة الاخيرة التي بعثت بها اليك . هاك ما اضفته اليها :

النبض تباطأ
والثلج يتساقط على جبل « اولو »
وعلى السفح حيث اشجار الكرز
يجب ان تنام الدببة ،
الرائعة والاخاذة .

.. من المؤكد انني سأتحدث عنك في قصائد ٢١ ــ ٢٢ هذه. يستحيل علي الا افعل ذلك في القصائد الموجهة الى بيرايبه . انتما افضل اصدقائي .

.. بيرايبه في حال حسنة . ابنتها تعيش معها الان ، وعلى الام

والبنت ان تتحملا البرد معـا هذا الشتاء ، وستعوضهمـا حرارة قلبيهمـا عـن الفحـم .

عطر الليلك يزداد انتشـارا
وعجيج يتصاعد من البحر .
هذا هو الخريف ، بغيومه الكثيفة وارضه النابهة ،
ونحن ، يا حبيبتي ، قد بلغنا نضج العمر .
ويخيل الينا اننا عشنا مغامرة عمر بالف عام
لكننا ونحن نعدو ، اقدامنا حافية ، واليد باليد ،
تحت الشمس ،
ما زلنا اطفالا ، بعيون مفعمة بالدهشة .

(١٩٤٥/١١/٢٨)

استانبول ، يا استانبول (١)
يقولون ان البؤس فيـك ،
يفوق كل وصف ،
ويقولون ان المجاعة تحصد الناس ،
ويقولون انهم يذوون بالسلّ
ويقولون ان الصبايا في العراء ، وشرفات السينما ،
اخبار فاجعة عن مدينتي البعيدة
مدينة الشرفاء والكادحين والفقراء ،
مدينتي الحقيقية ، استانبولي ،
المدينة التي تقطنين فيها يا حبيبتي
المدينة التي احملها فـي كيسي ،
من منفى الى منفى ، ومن سجن الى سجن ،
المدينة التي احملها في قلبي كذكرى طفل ميت
وكصورتك في عينـي .

(١٣ تشرين الثاني ١٩٤٥)

هذا هو كل شـيء اليوم . لقد استولى علي الغضب . ولكن شعبـي وبلدي سيعرفان ، رغم كل شيء ، اياما جميلة . ان احدا من الناس ، لم

(١) هذه القصيدة وردت في القسم الاول من هذا الكتاب ، واعيدها لعلاقتها بالجـو النفسي الراهـن للشاعـر .

يحب هذا البلد ، في كل تاريخه الطويل ، كما أحببناه نحن .

كتبت مرات عديدة الى سجن سينوب ولم اتلق جوابا. اكتب لهم انت، وقل لهم أن يكتبوا اليّ بأقصى سرعة . الامر يتعلق بأدوات نجارة بعتها هنا، واحسب انــي اخطـأت في حساباتي ، ويجب تسوية هذه القضية ، فأنا اعتقــد انني مدين لهم ايضا ببعض الليرات .

... انه لشيء غريب . فقـد لاحظت اليوم ان لحيتي بيضاء كلها . يقال ان الناس يحزنون عندمـا يلاحظون مثل هذه الامـور ، امـا انا فلم يجعلني ذلك بائسا . لقد اقسمت ان ابقى شابا حتى ذلك اليوم الذي اموت فيه ، ولو تقوست حتى الاهداب .

الى اللقاء . اخـي العزيز ، ولا بد ، اخر الامر ، ان نلتقي . اقبلك .

(دون تاريـخ)

ابرق الي باخبار صحتك

(١٩٤٥/١٢/٢٧)

اخي وعزيزي كمـال

شكرا لله ، فقد تلقيت رسالتك . . انت تكتب ، ولا شـك ، اشيـاء جميلة ، كما هي حالك دائما ، وينبغي أن يفيد الآخرون من ذلك .

. . انا ايضا سعيد بخفض عام من محكومية فوزي . . ولو كنت اعرف عنوانه الحالي لارسلت اليه من خمس الى عشر ليرات شهريا . آمـل ألا يكـون ذلـك قد تأخر ، وان يكون في مقدوره ان يعيش ، هو الانسان المفيد لبلـده وشعبـه .

عدد قصائد ٢١ ــ ٢٢ بلغ ٣٢ قصيدة ، وقد وضعت النقطة النهائيـة لهذا الفصل . اكتب الان رباعيات ، واعتزم كتابة مئة منها .غير انـي لـم اكتب حتى الان سوى عشر رباعيات : قسمتها الى اربـع مجموعات ، كـل مجموعة ٢٥ رباعية . الاولى تتناول موضوعا فلسفيا ، والثانية موضوعـا اجتماعيا ، والثالثة موضوعا عاطفيا ، والرابعة موضوعا ساخرا.اعمل كذلك في ترجماتي ، وفي « مشاهد انسانية » وتبدو لي الساعات قصيرة ، كرة اخـرى ، هـذه الايام .

. . ابنتي سوزان تركت جدها وتسكن عند والدتها . صحـة محمـد تتحسن . بل يبدو انه سمن كثيرا .

هل تريد أن أعطيك عينات من رباعياتي :

هذه الحديقة ، هذه الارض الندية ، عبير الياسمين هذا ، وهذه الليلة القمراء .

كل هذا سيواصل بريقه عندما اكون قد تواريت،
لان كل شيء كان قبلي ، وسيكون بعدي ، ومستقلا عني ،
فأنا لا اعكس الا صورة عن الاصل .

ما زلت مترددا من حيث الشكل . القافية ضرورية طبعا ، ولكن ما نحتاجه هو شكل آخر من القافية . سنرى بالضبط اية نتائج سيعطي هذا الشيء .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

اذن فالمذنب الوحيد هو ميلي الى الدلال . قل لمديرك ان يعذرني . حسنا .. سأتابع روايتك في مجلة « الايام السبعة » . احببت مشاريعك الجديدة ، وبخاصة قصة حبة القمح . همة طيبة ايها الاخ ، ان لنا حظا ان نعطي شعبنا والناس الذين في صفنا بعض ما ندين لهم به .

غريب ! انا ايضا طلبت شراء ديوان « البستان » لسعدي الشيرازي ، واعيد قراءته . لم المكن بعد من حل قضية الشكل الذي ساعطيه لرباعياتي. فقد كتبت الرباعية الاولى مستخدما بوعي عناصر التربيع الكلاسيكي باعطائي اسلوبا للنغم الكلاسيكي، دون أن أغير مكان القافية، ومع الاحتفاظ بالجرس . اردت على هذا النحو ، الاعتياد على تقنية الرباعيات ، فكان هذا نوعا من التمرين ، وعلي الان ان اجد الشكل الجديد الذي يلائم المحتوى الجديد ، واستخدام العناصر الشكلية الكلاسيكية . غير انني كسول منذ اسبوع ، وهذا العيد من الكسل الذي سمحت به لنفسي انتهى اليوم . لقد استيقظت باكرا ، وانا ادشن ، كما ترى ، مرحلة جديدة من النشاط بهذه الرسالة .

.. ثمة كمية من قصائد ٢١ ــ ٢٢ لم ابعث بها اليك ، وهذا بعضها ، مع رباعية او رباعيتين .

ماذا تعمل الآن ،

الآن في هذه اللحظة .. الخ (١)

(١٩٤٥/٩/٢٣)

---

(١) هذه القصيدة وردت في القسم الاول من هذا الكتاب

ما زلنا نجد بعض الازهار النادرة في آنية القرنفل
لكن في السهل ، انتهت حراثة الخريف ،
وهم يبذرون الحب
وهم يقطفون الزيتون
ويستعدون للشتاء
ويحفظون مكان الاشتال للربيع .
وانا مليء بالحنين ،
ومثقل بنفاد الصبر الى الاسفار الطويلة .
وانتظر ، في سجن بروصه، كسفينة القت مرساتها .

(١٩٤٥/١١/٢٠)

اخرجي من صندوقك ،
الثوب الذي كنت ترتدينه يوم لقائنا الاول
تجملي كشجرة في الربيع ،
وبغدائرك ،
علقي القرنفلة التي ارسلتها لك ،
داخل مكتوب من السجن .
اكشفي عن جبينك العريض الابيض بتجاعيده
الجبين الذي ارغب ان اقبله ،
فليس هذا اليوم للانكسار ،
ولا للحزن ،
بل على العكس ،
يجب ان تكون جميلة كراية المعركة ،
رفيقة ناظم حكمت .

(١٩٤٥/١٢/٤)

الاشجار تلتمع في السهل بمجهود اخير :
شذرات ذهبية ،
نحاس ، برونز وذهب .
وقوائم الثيران تغوص بلطف في الارض الرطبة ،
والجبال تضيع في الضباب ،
رمادية كالرصاص مبتلة بالماء .

هــكذا ،
ينتهي الخريف اليوم ، ربما
فالبط الوحشي مر لتوه مسرعا ،
قاصدا بحيرة « ازنيك » بغير شك .
وفي الجو طراوة ،
ورائحة دخــان :
في الجو رائحة ثلــج .
وان نكون خارجــا الآن ،
ونطلق للحصان العنان نحو الجبال
ستقولين : انت لا تجيد ركوب الخيل »
ولكن دعــي المزاح ،
ولا تكونــي غيورة :
لقد تعودت في السجن ،
ان اكون مغرمــا بالطبيعة ،
ليس بمقدار غرامي بك ربما ،
ولكن بنفس القدر تقريبا .
وانت والطبيعة بعيدتان عنــي .
(١٩٤٥/١٢/١٢)

فجأة هطل الثلج في الليــل ،
وبدأ الصبــاح ،
مع الغربان التي تنتشر على الاغصان .
والشتاء على مدى النظر في سهل بروصه ،
ولا بد للانسان ، يا حبيبتي ،
ان يفكر باللانهاية ، بالخلود ،
لقد تغير الفصل ،
بقفزة واحدة ،
بعد تبدلات متناقضة .
وتمضــي الحياة .
تحت الثلج ،
فخــورة ،
دؤوبــة
(١٩٤٥/١٢/١٣)

ثمة ايضا ، كمية من هذه الاشعار ، لكن لانني لا اعرف ما هي الاشعار التي أرسلتها اليك ، فانني اتوقف هنا . نأتي الآن الى نماذج من الرباعيات. أكرر انها ليست سوى تجارب :

ـ ١ ـ

كان عالما حقيقيا ، وليس سديما ، ما كنت تراه يا جلال الدين
عالما فسيحا ، لم يخلق ، ولم يرسم ، بفعل سبب أولي .
ان اجمل رباعية ، هي المولودة من لحمك الشهواني .
وليست تلك التي تبدأ من « الصورة تساوي الظل »

. . .

الرحيل ، كل يوم ، يقترب اكثر
وداعا أيتها الارض الحبيبة
وصبـــاح الخير ،
أيها الكون .

ـ ٢ ـ

لا من نور ،
ولا من طين ،
حبيبتي ، وقطتها ، واللؤلؤة في عنق القطة ،
انا جميعا ، مع بعض الفروق ، من نفس العجينة .

ـ ١ ـ

املأ كاسك خمرا قبل ان تمتلىء جمجمتك ترابا ، قال الخيام .
والرجل ذو الانف الطويل ، والحذائين المثقوبين ، نظر الى حديقة
الورود ، وهو يمر امامها :
« اني جائع ، قال ، بينما الحبوب على هذه الارض اكثر عددا
من النجوم .
الخمر ؟ انني لا أملك ما اشتري به خبزا »

ـ ٢ ـ

ان نفكر بالموت وقصر الحياة بسوداوية لطيفة
ان نشرب خمرا في بستان خزامى تحت ضوء القمر

هذه السوداوية اللطيفة لم نعرفها في حياتنا كلها
في قبو بيت بسيط ، في احد الاحياء الفقيرة .

لدي ايضا ثماني او عشر رباعيات من هذا النوع . وساحاول ، هذا الاسبوع ، ان اجد حلا لمعضلة الشكل. اعمل كذلك في « مشاهد انسانية». رشيد كمالي وزوجه يرسلان لك تحياتهما . بيرايه تقبلك . قريبا تتم الجراحة لعين والدتي الثانية .

اقبلك بشوق وحنين ايها الاخ . هل لديك نقود؟ اذا لم اجد كتبا بالفرنسية سأرسل لك مجلات . الى اللقاء .

(دون تاريخ)

كمال !

تلقيت رسالتك التي تمدح فيها رباعياتي بشكل مبالغ فيه . انا لا اعتقد ان هذه الرباعيات شيء عظيم كما تؤكد انت ، لكنني اتصور الى اي حد انت بشوق الي ، وهذا ما يسعدني ، بعثت برسالتك الى بيرايه ، هذه الانسانة المسكينة تستشعر الوحدة بشكل رهيب .

سأقول لك شيئا احتفظ به بيننا ،انا اعاني من مرض غريب منذ شهر . في الصباح لا اشعر بشيء مطلقا ، وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر احس ببعض الحمى ، وبتوعك في الجسم ، وحاجة الى التمطي ، وآلام في الراس . وفي الثامنة مساء اتعرق قليلا ، وتزول اعراض النوبة في منتصف الليل . ستنصحني بمراجعة الطبيب فورا ، وهذا ما فعلته، فقال لي انها نوبة ملاريا ، واعطاني علاجا لم انتفع به . ساراجع الطبيب مرة اخرى اليوم . مرضي نوع من الملاريا بكل تأكيد ، لكن المزعج فيه انه يحول بيني وبين العمل . لم اخبر بيرايه بذلك ، ولن اخبرها قبل الشفاء ، اذ يكفي المسكينة مرض ابننا هما .

انا قلق بشأن الطفل الذي حدثتني عنه ، فما به ؟ يمكنني الحصول على الادوية اللازمة من بروصه او استانبول . اكتب لي عما يجب ان افعل . ابعث اليك صحفا ومجلات وعشر ليرات ، فابلغني عندما تصلك .

ثمة اشياء كثيرة من شعري لم ابعث بها اليك : رباعيات ، قصائد ٢١ ـ ٢٢ ، وبما انني لم اعد اذكر اي القصائد ارسلت اليك ، فابلغني، اذا كانت ما تزال لديك ، بالكلمة الاولى من كل بيت، لاستطيع ارسال الباقي .

انني مشوق لمعرفة اخبارك. وليس في مقدورك ان تتصور الى اي حد. هناك نوعان من الفضول : احدهما من نقص الثقة ، والاخر من الثقة الكلية. فضولي من النوع الثاني ، فانا اثق بك كامل الثقة . اعرف انك تكتب اشياء جميلة . لقد مضت سنوات منذ قرأت « ساجيدير » ، لكن شخصياتها ما تزال امامي .

والدتي لم تجر الجراحة لعينها بعد . اقبلك بشوق لا يوصف .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

خبر مرضك اقلقني . اعتن بنفسك جيدا . اذا لم يكن لديك نقود اخبرني فورا . في وسعي ان ارسل اليك زبدة او اي شيء من هنا اذا رغبت في ذلك ... سأتدبر امري .. ارسل لك عشر ليرات .

... فهموا مرضي ، اخيرا . انه تسمم . لقد شكوت من الم في الضرس ، وانت تذكر ذلك ، وقد استمر الخراج وسمم كل جسمي. اتخذوا الان التدابير اللازمة ، وكل شيء كما يجب ، انا في احسن حال . لا تقلق من اجلي . اعتن بصحتك وكن حذرا .

اضطررت الى العمل في الترجمة واهملت الباقي نوعا ما هذه الايام . لكني سأرسل لك قصيدتين ٢١ ـ ٢٢ في الرسالة القادمة . اكتب هذه الرسالة بالسرعة الكلية . لا تفكر بسوى صحتك . تذكر ذلك وقم بما يجب ، لا تدخن . كل جيدا . كيف تنام ؟ ارجوك ، اكتب لي بتفصيل عن صحتك .

.. اقبلك بشوق ، وانتظر بفارغ صبر رسالتك التي ستبلغني فيها انك تهتم جيدا بصحتك ، وتتطلب ان ابعث اليك ببعض الاشياء .

(دون تاريخ)

برقية

رسالتي لاحقة .

عزيزي كمال !

تسلمت برقيتك وابرقت اليك . اكتب هذه السطور مباشرة . اذن لم تتلق رسالتي التي كتبتها منذ خمسة ايام ؟.. صحتي جيدة . تلقيت رسالة من الرفاق في سجن سينوب . سيغدو سجنهم مشغلا ، وسيعملون

منذ الان لحساب الدولة .. حالتي بين بين . يصيبني البرد من وقت لاخر ثـم اشفى ..

(دون تاريـخ)

كمال ! اخـي

ستتلقى مع هذه الرسالة حوالة بريدية بقيمة ١٥ ليرة . أبلغني عند استلامها . انا في الفراش منذ ثمانية ايام وقد غادرته اليوم . اضطررت الى ملازمة الفراش بسبب من الم انتابني فجأة في الجانب الايسر ونزل حتى ثنية الفخذ . انه التهاب الكليتين ، وفيهمـا حصى . وقد استمرت النوبة ثلاثـة ايام ، ورجتني رجا قويـا ، فارتفعت حرارتي ، واضطررت الى اتباع نظام غذائي قاس وما زلت ، تحسنت حالتي اخيرا برغم انني لم اشف تماما .

يسعدني انك تلقيت أخبارا عن ابراهيم . لا تنس أن تبعث له بتحياتي . يخيل الي انهم لا يسلمونه رسائلي . أنا أهتم كثيرا بمشـاريعك ، وأنتظر النتائج الاولـى بثقة وفضول .

سأبحث عن كتاب أورخان فيلي وأرسله اليك . كان عندي ، أو بالاحرى اعاروني اياه ، فقرأته واعدته . انتبه يا كمال ! فيما يخص كل عمل فنـي ، وسواء تعلق الامر بالادب او فن العمارة او الموسيقى ، فـان السؤال الـذي اطرحه على نفسي في اخر المطاف هو : « ماذا يقول هـذا العمـل ؟ وكيف يعبـر ؟ » وهذان السؤالان لا ينفصلان عندي . « ماذا يقـول لنا هـذا العمل ؟ » هذا السؤال هو العنصر الحاسم ، والعنصر الحاسم الاخر ، كيف يقوله ؟ انني اقدر قيمة العمل بحسب الجواب على هـذا السؤال . ولا شك انه من الطبيعي والضروري طرح هذا السؤال بشكـل ملموس ، ولا ننسى السؤال : « ايـن ؟ في اي عصر ؟ » وعندمـا اطرح على نفسي هـذا السؤال بالنسبة لشعرائنـا الشباب ، واورخان فيلي بينهم ، فان الجواب الذي يقدمه معظمهم ، في كثير من قصائدهم ، ليس مرضيا في رأيي . انهم ، في الفترة الاخيرة خاصة ، يتعلقون بالشكل فقط ، ولديهم جواب على هذا السؤال : « كيف يقولون » . صحيح ان مايقولونه ، لا يقولونه بشكل سيء ، اي انهم يقولونه بمرح ، وفانتزيا ، وذكاء ، وبشكل مرض ، مسل ، امـا بالنسبة للسؤال الاساسي : « ماذا يقول العمل ؟ فلا جواب ، او انهـم يصرحـون قائليـن : « نريـد ان نكون ثملين ـ ميتين » او « ماذا يحدث لي؟

انني لن اكــون ابدا الشـخص ذاته ».. وهذرا من هذا النوع . وعندما نأخذ بالاعتبــار مستواهم الاجتماعي ، يمكــن فهم الاسباب التي تقودهم الى مثل هذه الضحالة ، غيــر ان تفسير الشيء ، هل يكفي لتبريره ؟ ثمة ،ولـلــه الحمد، في تركيا اليوم ، بعض الشعراء الشباب ــ مثل أ . قادر ــ الدين، في نفس المرحلــة ،والبلد ، وبقدر مماثل من الموهبة مـــن حيث الشكل ، يقولون الاشياء التي تستحق ان تقال .

انا أعرف تماما ،ان الاشياء التي تستحق ان تقال، لا ينبغي بالضرورة ان تكـون اشياء خارقــة وعظيمة ، ولكــن قصيدة مــا ــ والقصيدة بنيــة واحدة ــ تعبر عــن مثل هذه الفكرة : « انتهــى امري » او « لقــد ضعت » بشكل سطحي ولو بلباقة ، لا تقول ، في رأيي ، اشياء تستحق ان تقال .

هذا يكفي حول هــذا الموضوع .

قرات مؤخرا مقالا لاستاذ فرنسي يهاجــم ايليا اهرنبورغ . يبدو ان اهرنبورغ ، في معرض مديحه للشعراء الجدد الذين تغنوا بالنضال من اجل استقــلال فرنسا الوطني ، قد قال ان هتفــة من هتفاتهم تساوي قصيــدة بكاملهــا من قصائد « مالارميه » . وعلى هذا فانه اعتبر الشعــر اداة مــن ادوات الدعايــة ، لذلك فان الاستاذ الفرنسي غضب غضبا شديدا . لقــد فكرت بالامــر ، وانه لشيء غريب ان شعــــراء امثــال بودلير ومالارميه اوفيرلين ، عندمــا يقولون لنا ان الموت اجمل من الحياة او انهم يستسلمون للاقــدار ، او يتحدثون عن الحنين الى الماضي ، او الشوق الى حبيبتهـــم الخائنة ، او ميزات السكر ، او حتى عن اللواط ، وعندما يجدون امثـــال هذه الاشياء بلباقة ، فان ذلك كله لا يشكل دعاية ، اما اذا اكد شاعر مـــا عكس هذه الاشياء ، وبموهبة مماثلــة لموهبتهم ، فانه ليس سوى داعية . لناخذ مثلا بسيطــا على ذلك : ان يتغنى المرء بالخمر والعرق والسكر فذلك ابداع فني ، ولكــن اذا هــو مدح الكفاح فان ذلك دعاية سياسية . اليس هــذا بغريب ؟ ولانه ليس في افــواه الناس ســـوى كلمــات « جميل » و « جمال » ، فما هو الاجمل : ان يكون المرء ثملا ام ان يكون واعيا ؟ اننا نعرف تمامــا العوامل التي تتدخل في الامر ، ومع ذلك فليس في وســع المرء ان يمتنع عن الغضب او عن الضحك .

كمال ! في رسائلك ، احيانا ، اشياء عن بيرابيه لا اعرف ابدا ان اقولها انا . انني احسدك . وحين يتعلق الامر بالفن، والحب ، اشعــر بالحسد ،

والشخص الوحيد الذي استشعر الحسد نحوه هو انت . ومع ذلك ثمةقليل جدا من الكتب التي تعطيني اللذة التي احس بها عندما اقرأ ما تقوله عن بيرايه ، فلا تحرمني من ذلك اذن ..

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

كتبت لك رسالة طويلة منذ ثلاثة ايام . وصلتك بغير شك . اكتب لك اليوم كي ابلغك نبأ جميلا ، او بالاحرى سيكون جميلا اذا تأكد . اليوم بالذات تقدمت بطلب الى المجلس الوطني اثبت فيه بالقرائن الحقوقية اني كنت ضحية خطأ قضائي ولاشرعية مشهودة ، وأطلب الغاء العقوبة المحكوم بها . وفي ضوء النتيجة ـ واعتقد ان الحق لا بد ان ينتصر في النهاية ـ يمكنك ان تتقدم بطلب الى نفس السلطة . تمهل الان . سأقول لك عندما ينبغي ان تتقدم بطلبك .

ظني ان ما اقوله لك سيذهلك . وستساءل ما اذا كان الوقت مناسبا الان ، لكن الديالكتيك شيء عجيب ، ويمكن ان ينتصر الحق في وقت لا تتوقع انتصاره الا بأقل حظ ممكن .

آمل ان تسير الامور على افضل وجه . ابعث اليك ٢٥ ليرة . اقبلك بشوق . اني على قناعة ان العدالة ستحترم في النهاية . وسنلتقي قريبا .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي

لا تستطيع ان تتصور كم ازعجتني حكاية ابر الكلسيومهذه ، لكن ما ازعجني بخاصة هو قلقك انت ، اذ ان هذا الجرثوم قليلا ما يعيش في الهواء الطلق ، والا لكان هناكاناس مصابون بالسفلس اكثربخمس او ست مرات من عددهم الحالي في العالم . يضاف الى ذلك ان الابرة قد طهرت بالطبع ـ والتطهير ، حتى لو كان سطحيا ، يدوم دقيقة على الاقل ـ . ضعني في الصورة ، وتحسبا لكل طارىء اجر تحليلا للدم ، فهذا يطمئنك تماما .

انا سعيد لعلمي انك تعمل بانتظام . انتهيت من ترجمة الجزء الثالث لوزارة التربية ، ولم يبق علي سوى اعادةنسخها ، وسينتهي كل شيء

خلال ثلاثة اسابيع ، غير انني لن اقبض المال ، الا بعد ان ينتهي الشخص الذي يترجم بداية هذا الجزء .

بدأ الطقس يصبح حارا هنا . اني اكره الحر ، غير اني ، هذا الصيف ، سأعمل بجد كبير سواء كان الطقس حارا ام لا .

لا رسائل من الرفاق في سجن سينوب ، وانا متعطش لمعرفة ماذا يعملون ، وهل شرعوا بالعمل في مشغل السجن ؟

.. « العرق الانسر » عاد الي ، وهو مؤلم جدا ، وخاصة في الليل .. ربما فزت بنقاهة حر هذا الصيف ، وهذا سيلقي علي عبء مشكلة مالية. ارسلوني الى اللجنة الطبية دون طلب مني . يبدو انهم قدروا اني مريض ، فاللجنة اعطتني شهادة مرض ..

(دون تاريخ)

كمال !

أنا مسرور لكونك في عزّ العمل ، بينما أنا عكس ذلك ، فالجو حار بشكل لا يطاق ، واستشعر خمولا تاما . انت تعرف انني لا احتمل الحر، وقد تساءلت ما اذا كان عليّ أن أقلدك فأنام نهارا وأعمل ليلا ، غير ان هذا مستحيل بالنسبة الي ، بسبب من ان عيني تؤلماني حتى لتتعذر علي القراءة فكيف الكتابة .. مع ذلك سأحاول ، اعتبارا من الغد ، ان اتحدى الحر واشتغل بعد الظهر ايضا .

شكرا لله . تلقيت رسالة من سجن سينوب واجبت عليها فورا . لم يقولوا لي بانهم شرعوا بالعمل لحسابهم الخاص ، وانهم لا يعملون برأسمال استثماري ، بل أنت الذي أخبرني بذلك .

رشيد كمالي يؤدي خدمته العسكرية. تلقيت رسالة من فوزي الاعرج. لقد فاز بتأجيل تنفيذ عقوبته لمدة عام ،بسبب سل العظام، وهو الان في بلده « ارزنجان » ، يعاني بؤسا رهيبا ، اذ لم يجد عملا ، وهذا ما اوجع قلبي، واني لغاضب على نفسي لانني لا أتمكن من مساعدته .

مضى شهر ولم استطع ارسال نقود الى بيرايه ، غير ان لي املا في ان اتمكن من قبض بعض المال في فترة قصيرة عن الترجمة . كذلك فانهم مدينون لي بثلاثين ليرة ثمن القماش ، فاذا قبضت هذه المبالغ ارسلتها الى بيرايه وفوزي . يخيل الي انك انت ايضا لا تملك فلسا .

لنتكلم عن اشياء ألطف قبل انتهاءهذه الرسالة . اعمل جيدا ايها الصديق . للناس الشرفاء المجتهدين في بلادنا ، الحق بان يطلبوا اعمالا من مستوى اعمالك ، ومن غير المهم ان تكون رواية او قصة طويلة ، فهذه التصنيفات ليست سوى اصطلاحات في نهاية الامر ، والمهم ان نقول شيئا صادقا ، حقيقيا ، الى اللقاء .

(١٩٤٦/٦/١٨)

عزيزي كمال !

وصلتني رسالتك الصغيرة جدا ، ولم اعتب لعلمي ان لديك عملا كثيرا ، وسأفعل الشيء ذاته اليوم ، فأكتب رسالة صغيرة. غير انه لا يجوز ان نسمح لانفسنا بمثل هذا الاختصار الا عندما نكون مشغولين جدا . عذري اكثر من مجرد انشغالي الشديد ـ فالشغل لا ينقص ابدا ـ لكنه بسبب التيبس الذي اعاني منه ـ وهذا لا ينقصني ايضا في الفترة الاخيرة ـ وانا احدثك عنه بغير انقطاع . ان لدى هذا الضعف، وهو انني اشكو من اقل وجع . غير انني مريض فعلا ، وانا في السرير منذ يومين . .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي

انتظر بفضول كبير ، وثقة لايمكنك تصورها ، ما كتبته مؤخرا ،واني لاتخيل الفرح ، والفخر الذي سأشعر به يوم اقرأ ما كتبته ، حتى قبل ان ينشر . لقد قيل بان الخطوة الاولى، المنعطف الحقيقي ،في الروايةالتركية، ستحققه انت . يبدو لي انك كنت ستفعل ذلكحتى لو لم تدخل السجن، الا انه كان بالامكان ان تأخذ اتجاها اخر ، فالسجن جعلك تتعرف الى الرجال في بلدك عن كثب ، وافضل من اي مكان اخر . انا لا ازعم بانه أمر عظيم أن يسجن المرء ، لكني ألفت انتباهك الى ان موهبة ابن الانسان هي ان يعرف كيف يستخلص لنفسه مزايا وسعادة من اقسى المصائب.

الحر شديد جدا هنا. وبما انني لا اتحمل الحر ، فاني استسلم لكسل ثقيل وخانق .

تفكر والدتي بالحضور الى بروصه في شهر آب . لقد لاحظت، في المرة الاخيرة ، انها شاخت بشكل فظيع ، وانه لمحزن ان يرى المرء امه تشيخ الى هذا الحد . غير ان ثمة ناحية فيها تثير اعجابي . فبالرغم من عمرها،

ومرض قلبها ، وعينها التي لا تزال محجوبة ، تعمل بكل قواها في الرسم وكأنها مبتدئة . عندما يصبح العمل مصدر لذة وفرح وخلق فانه قادر على قهر الشيخوخة وحتى المرض .

بيرابيه مشغولة جدا باولادها . انها تعيسة لان ابنها مريض ، ولانها لا تتمكن من تزويج ابنتها ، مع ان محمد تقدم للامتحانات .

.. اقبلك بشوق . اريد ان تكتب روايات اجمل من كل ما كتبت ، واجمل من كل ما كتب حتى الان .

(دون تاريخ)

كمال !

.. احزر انك مفلس ، ولذلك فأنت لا تأكل جيدا .

.. نسجت ستائر من التول ، وربحت قليلا من المال ، فارسلت لك خمسين ليرة . انا اعرف ان هذا قليل ، وان عليك ديونا ، ولا تأكل ما يسد جوعك ، لكن هذا المال سيكون مفيدا لك مع ذلك .

... لا يزال لدي بعض القماش للستائر ، اذا تمكنت من بيعه سارسل لك حالا بعض المال . قل لي الى اية ادوية تحتاج . ساتدبر امري للحصول عليها من استانبول . انني اكرر ، اكتب الي باسماء الادوية التي تحتاجها. اعذرني ، فالانسان يصبح ثرثارا مع تقدم السن .

ان الاسلوب الوحيد كيلا نشيخ ، كي نعيش في هذا العالم ، هو ان نرتبط بشيء جميل ، بالمعنى الواسع ، وان نقيم علاقات نشيطة مع هذا الشيء . ان نحب ، بالمعنى الواسع للحب ، هو ان نقهر الشيخوخة ، والمرض والموت .

لابني رئة ما تزال متوقفة عن العمل ، متدرنة ، لكن حالته ليست خطرة في الوقت الحاضر . ابنتي سوزان كبرت ، هكذا يقولون ـ لاني لم ارها منذ سنوات ـ لقد اصبحت فتاة شابة كبيرة . عمرها حوالي الاثنين والعشرين عاما ، وقد بلغت سن الزواج وتجاوزته ، لكن ليس سهلا على فتاة ابوها في السجن ان تجد زوجا .

(١٩٤٦/٨/٢)

عزيزي كمال ! اخي

.. يخيل الي اننا نعود اطفالا عندما نشيخ ، ونحن ككل الاطفال، نحب المديح ، والثناء المنوحين باخلاص شديد .

بلغني ، انا ايضا ، نبأ موت يوسف الذي آلمني كثيرا ،وكما تقول ، لو ابدى اكثر قليلا من الارادة ، لكان باستطاعته ان يعيش عشر سنوات ايضا على الاقل .. وانا ارتجف لفكرة وصول النبأ عن موت نوري ، لانه اذا مات فلن يكون ذلك لضعف في شخصيته او لارهاق،بل من البؤس وقلة العناية .

بالرغم من كل شيء ، يجب أن نفكر بأشياء جميلة . اننا لن نقضي في السجن اكثر مما قضينا ، وعندي مشروع رائع : عندما اخرج من هنا سأجد بعض الدراهم لاشتري سيارة « جيب » واتنقل في كل مكان من بلدي العزيز ، في الاناضول ، في الرميلية ، وسأكتب مئة كتاب . اعانقك بشوق .

(١٩٤٦/٨/١٤)

عزيزي كمال

تأخرت في اجابتك ، او بالاحرى في كتابة رسالتي وارسالها. وسأقول لك لماذا : فور وصول رسالتك بدأت اتكلم معك ، وانا افكر بما سأقصه عليك في جوابي . وتناقشنا طويلا ، ولا ادري لماذا ، الى درجةان ذلك اصبح حديثا حقيقيا ، وفي اليوم التالي ، وانا مقتنع باني كتبت لك كل ذلك ، بدأت احسب اليوم الذي يصلني فيه جوابك . واليوم فقط ،ادركت ما حصل . هل اصابني الخرف ؟ ان حاجتي الشديدة الى ان اكلمك تجعل اللاشعور يرفض ان يستعمل الرسالة كوسيط ، معتبرا اياها غير كافية البتة .

الطقس هنا اكثر برودة ،وسأغرق قريبا في العمل . اولا، الحياكة لا تؤمن لي فلسا ، ثم الترجمة ــ ٣٥٠ صفحة ــ لا أتوصل الى قبض أجرها، ثم عمل جديد :اغطية المصابيح ، بعد تزيين الورق بالالوان المائية ، وجعله صقيلا كجلد الجمل بواسطة زيت الكتان ، وبعد ذلك اخيط الورق مع الحرير على قاعدة من الحديد واجعل منه غطاء ، واخيرا قصائدي ، وكما ترى ، بعد الكسل المخيف في اشهر الصيف ،اقبل على الخريف وانا اعمل كالمسعور ، والجانب « التراجيكوميدي » في حالتي هو انني مضطر ،حتى في السجن ، ان اكرس أكثرمن عشر ساعاتفي اليوم لاكسب عيشي .

بيرابيه مريضة ، وابننا مسلول ، وانا في السجن، وبالرغم من كل شيء ، يتقدم العالم نحو مستقبل افضل ، اكثر جمالا ، واني لاثق بذلك كامل الثقة .

(دون تاريخ)

كمال ، اخــي

قرأت روايتك دفعة واحدة في نهار وليلتين . سأحاول أن أقـــول لك انطباعي الاول في جملة واحدة ، ثم انتقل الى التفاصيل : لقد اقمـــت الاسس لعمل ضخم ، لكنك اكتفيت بان ترفع على هذه الاسس اعمدة البناء وتركت كل شـــيء . وعلى سبيل المقارنة فان رواية « ساجيدير » كـــانت عملا اقـــل شمـــولا ، لكنهـــا كانت عمـــلا تامـــا ، تشكل بصورة نهائية .

ما ارجوك ان تفعله هو ان تتم روايتك التي يمكن ان تصبح عملامتميزا، ليس فقط على مستوى البلد ، بـــل على المستوى العالمي . انك مدين بهـــذا كله الى بلدك ، والناس الذيـــن يعيشون فيه .

لننتقل الى التفاصيل ، وقبل كل شيء الى النواحي الناقصة حســب رأيــي .

١ ــ باستثناء ابنة الباشا والدة عائشة ، فان كل الشخصيات الاخرى، بمـــن فيها ماهر افندي ، لم تعالج الا جزئيا . وقد تساءلت لماذا ، وها هي الاسباب التي وجدتها : كافـــة الشخصيات ــ السلطان عبدالحميد اوعزت بيـــك او عادل ــ وحيدة الجانب . جميعهم اناس طيبون ، لا نرى ســـوى النواحي الايجابية فيهم ، الجوانب الطيبة . حتى عبدالحميد ، حتمـــا انت لا تحبـــه ، لكنه يبـــدو في الرواية كأحد سلاطين القصص ، مليئا بالطيبـــة والمسامحة . ان شجاعته موصوفة بالافعال ،وجبنه بالاقوال . وقد تساءلت ايضا لمـــاذا لا يتمكـــن ماهر افندي من ان يصبح شخصية حية ، ومـــع ان نموذج هذه الشخصية تعرفه جيدا ، فانك لا تصفه لنا كمـــا هو ، بل كمـــا تحب ان يكـــون .

٢ ــ شخصياتك عموما ، وبعضها عـــلى الاخص ، تتكلم طويلا ، وبشكل خطابي مبالغ فيه ، بالرغم من قـــــدرتك على استعمال أسلوب التخاطب . ثم انك تتدخل أنت نفسك . تغضب وتشتم بصورة مباشرة .

٣ ــ في روايتك شخصية رئيسية أو اثنتان على الاكثر . وفي رأيـــي ان هاتين الشخصيتين غير كافيتين في رواية لها هذه الاسس الواسعة .

٤ ــ بدأت بكتابة قصة ثم جعلت منها رواية ، مما أحـــدث تأثيرا سلبيا على العمل الروائي .

ان هذه الرواية يمكن أن تشكل تحولا في أدبنا ، وتبقى كالسمفونية

الناقصة ، وواجبك ان تجعل منها تحولا في فن الرواية في تركيا . انني أعرف ان الامر اكثر صعوبة عندما تراجع عملا اعتبر منتهيا ، وكتبت عليه كلمة « النهاية » ، لكننا في السجن لا عمل لدينا غير التغلب على الصعوبات من هذا النوع ، ويجب أن تفعل ذلك .

.. لو بقي هذا العمل في حدود القصة ، لكانت الشخصيات حية بشكل كاف . لكن عندما تتحول القصة الى رواية ، فان هناك فرقا بين شخصية القصة وشخصية الرواية. ومن أين يأتي هذا الفارق ؟ يخيل اليّ ان الشخصية تصبح شخصية رواية بقدر ما هي موصوفة في كل مظاهرها الاشد تنوعا ، وبردود أفعالها أمام الحد الاقصى من الاحداث . مثلا ماهر أفندي هو كامل كشخصية قصة ، لكنه ناقص كشخصية رواية ، وردود فعله كشخصية قصة أمام بعض الاحداث واضحة جدا ، لكنها كشخصية رواية ، وأمام هذه الكتلة من الاحداث ، تبقى غير واضحة . هل أجدت شرح ذلك ؟

يجب أن تغير قبل كل شيء عنوان الرواية. وسيظهر لك هذا التغيير انه من الضروري أن تزيد في التحوير والتحديد .

سوف تقوم بهذا العمل يا كمال ، فقليل من الجهد لا يمكن الاستغناء عنه لكي يصبح هذا الكتاب احدى اكبر رواياتك ، رواياتنا . اظهر لنا ما تستطيع أن تفعله يا كمال ، يا ابن طاهر .

(دون تاريخ)

كمال ، أيها الاخ !

تسلمت رسالتك وصورتك . ولانها أخذت في سجن « تشوروم » ، فقد بدت لي اكثر انسا . والكلام بيننا ، لقد تحمست لجزمتك . انها تثير لديّ احتراما ممزوجا بالحسد ، لأني لم ألبسها في حياتي .

.. يريد ولدنا أن يصبح مهندسا معماريا ، لكنه لم يحزم أمره نهائيا بعد ، سأكون مسرورا جدا اذا أصبح كذلك ، لانها احدى المهن التي أحترمها اكثر ما يكون في العالم . انني أعتبر الهندسة المعمارية أحد الفروع الاكثر أهمية في الفنون الجميلة . فليس هناك فن آخر اكثر فائدة للانسان ، واكثر استحقاقا لاسم « الفن الجميل » ، من الهندسة المعمارية ، ثم ان المبدأ الاساسي لها يشكل أساس الفنون الجميلة الاخرى كافة . فالموسيقى والرسم والادب دون هندسة معمارية هي جسم دون هيكل ،

كتلة هلامية ، فوضى حمقاء . لكن افهمني جيدا . أنا لا اتكلم عن الاطارات الجامدة ، بالعكس ، اني أعني هنا هندسة المادة في حركتها اللانهائية .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال ، يا اخي !

يؤسفني أن أعلم بأنك مريض . اليرقان ليس مرضا خطيرا ، فكثير من المعتقلين هنا اصيبوا به وشفي جميعهم بسرعة ، أنا واثق ان كل شيء سينتهي بعد بضعة أيام ، ولكني آسف مع ذلك . اما فيما يتعلق بسلوك هذا الطبيب تجاهك ، فماذا يمكن أن تقول ؟ هذا النموذج دخل ، بكامل قامته ، في تاريخ الادب التركي . وسأرد له هذه الخدمة من جهتي ، ولن يفوتك ذلك حتما . اني أتصور غرفة المعتقلين في السجن ، وهذا الجراح . هنا أيضا قاعة للسجناء ، ورئيس الاطباء جراح كذلك ، لكن أحدا هنا لا يشتم الكرامة الانسانية ، حتى ان النائب العام رجل ذو ضمير ويظهر اهتماما انسانيا حقا بالمساجين المرضى . لكن بلدنا هو هكذا ، مؤسستان في محافظتين ، وحتى في المحافظة نفسها ، يمكن أن تكونا مختلفتين الى هذا الحد ، كما لو كانتا في بلدين مختلفين .

انا أيضا في الفراش منذ أسبوع بسبب البرد ، واكتب لك هذه السطور من فراشي ، ولن يبقى بي شيء غدا أو بعد غد .

أفكر برئيس الاطباء الذي ينعتك « باليساري القذر » . ليس سهلا ان يكون المرء شريفا كما نحن ، ان يحب بلده وشعبه أكثر منا . ولاننا تعلمنا أن نحب بلدنا وشعبنا ، أن نكون شرفاء مقابل تضحيات مؤلمة وعظيمة ، وغالبا لقاء حريتنا وحتى حياتنا ، فان هؤلاء السادة المتأنقين ، الذين لا يحبون بلدهم ولا شعبهم ، لانهم يجهلون ما يعنيه هذا الحب ، ينعتوننا « بالقذرين » . انني افضل ان اكون « قذرا » في نظرهم ، على ان اكون مثلهم عدوا للوطن والشعب .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

اود كثيرا أن أساعدك في ملحمتك الاسطورية ، وسيكون ذلك مبعث سرور لي ، لكنني لا استطيع أن أفعل شيئا في هذا الوقت . أنا لا أكتب سطرا واحدا ، وقد كان عام ١٩٤٦ عاما ميتا بالنسبة الي .

وصلتني رسالة من سينوب ، وسررت بها جدا ، وسيكون جيدا جدا بالنسبة لنوري طاهر أن ينتقل الى « تشوروم » من الناحية المادية ، ومن ناحية معنوياتكما انتما الاثنين .

(دون تاريخ)

كمال !

.. لا أزال اعاني من الزكام القذر الذي حوّلني الى خرقة ، ترافقه تشنجات ، وقشعريرة في الظهر . ومع هذا فقد فحصني الطبيب وقال ان حالتي لا تستدعي القلق ، حتى انني ازددت سمنة في الآونة الاخيرة . لكنك تعرف جيدا بأنني أعجز عن كتابة سطر واحد متى كنت مصابا ولو بشيء من الدوار ، اذ يجب ان أكون بكامل نشاطي لكي أكتب ، بينما هذا التعب الغريب يعطل حواسي منذ العام الماضي، ولم تمر سنة جدباء كهذه. واذا صدقنا بيرابيه فقد كنت امرّ دائما بأزمات مماثلة ، قبل ان ابدا شيئا جديدا ، وقد تكون هذه المرة احدى تلك الازمات .

.. كل يوم يمر دون ان أتمكن من عمل شيء جديد وجميل لاجل شعبنا التركي ، هو يوم عذاب بالنسبة اليّ .

(٢٧ – ١ – ١٩٤٧)

عزيزي كمال !

اخيرا شخصوا المرض الذي جعلني كسولا خلال عام كامل ، قاطعا يدي وساقي . لاحظوا اثر أزمة صغيرة ان كبدي قد تضخم بحجم اصبعين او ثلاثة ..

أنت على حق . سيأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن اراكم وأتأمل وجوهكم كما اتأمل اجمل المناظر في العالم .

تقول انك سمنت ، وهذا ليس الا شحما رديئا سيختفي متى خرجت من السجن . مع ذلك عليك أن تتوقف عن السمنة الناتجة عن الجلوس الدائم وليس عن الاكثار من الاكل ، وعليك ان تتنزه في الباحة .

(٢٦ – ٢ – ١٩٤٧)

كمال !

هناك سؤال ينضج في لا شعوري منذ وقت بعيد ، هو هذا : لو قام رجل ميت منذ ٤٠٠ عام ، وطلبنا اليه ان يعدد لنا الفنون الادبية فلن

يذكر لنا الرواية بينها ، أريد أن أقول ان الرواية هي اكتشاف جديد ورائع، لكنها لن تكون الاكتشاف الاخير حتما . فالشروط الفنية والاجتماعية التي توفرت لولادة الرواية ونموها هي في سبيلها الى التغيير ، ويخيل الي بأن الشروط الفنية والاجتماعية الجديدة ستجعل ولادة فن متصل « بالكلمة » ، وغير معروف حتى الآن ، كما كانت الرواية في الماضي ، أمرا ضروريا ، ولا أدري اي اسم سيتخذ هذا الفن ، لكنه لن يكون الشعر وانواعه المختلفة ولا الرواية او القصة وانواعهما المختلفة ، بل سيكون شيئا آخر يختلف نوعيا ، وان تضمن العناصر الكمية لكل هذه الانواع ، واعتقد انه سيكون من الاسهل أن نخلق هذا النوع من ان نعرفه .

(٢٨ - ٣ - ١٩٤٧)

اخي كمال !

لنترك الكلام على المرض والآلام التي ازدادت .. ولنتكلم عن الافكار التي تضطرب في رأسي رغم انها لم تتبلور بعد . أولا ، كل الاشكال الادبية مرتبط بعضها ببعض ، من الشعر الى الحكاية الى الاساطير الدينية الى الرواية الحديثة . كل هذه الاشكال هي أصلا فن حكاية القصة . فالشعر يحكي قصة ، وكذلك الاقصوصة والرواية والمسرحية والسيناريو ، وفن حكاية قصة ما يشمل أيضا ، ومن وجهة نظر معينة ، الرسم والموسيقى وحتى الفن المعماري . لذلك فالفن اجمالا هو أن تحكي ، أن تسرد قصة ما. وما يميز هذه الانواع هو في الاصل الطريقة التي تحكى بها هذه القصة : التقنية والاساليب المستعملة . وفيما يتعلق بهذه التقنية والاساليب ، فان ما يدخل فيها ليس فقط الآلة الموسيقية أو النوتة او الدهان او المرمر أو الصوت أو الكلمة ، بل تدخل فيها أيضا الامكانات التي يحددها مستوى تطور الصناعة . مثلا الرواية ــ وأنت تعرف كل هذا لكنني أكرره لاجمع أفكاري ــ مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمطبعة ، وقد جعل تطور الطباعة ، من وجهة النظر هذه ، العلاقات الاجتماعية اكثر تعقيدا ، وتطورت في الوقت نفسه بقية فروع الصناعة ، بحيث ان القصة التي تجب حكايتها اصبحت اكثر تعقيدا من جهة ــ وهذه القصة المعقدة تطلبت شكلا جديدا فولدت الرواية ــ ومن جهة أخرى لعب الكتاب المطبوع نفسه دورا كبيرا في ظهور الرواية . وعندما لم تكن هناك رواية ، في المدنيات القديمة مثلا ، كان الشعراء يحفظون غيبا القصة التي يريدون حكايتها ، ويروونها أمام السامعين ترافقهم القيثارة . انتبه ! هذه نقطة مهمة ــ اني اقفز من

موضوع الى آخر فمعذرة .. الافكار تأتيني مجتمعة وكبدي تؤلمني ـ فان أسلوب ديكنز قد تغير منذ اللحظة التي أحسّ فيها بالحاجة ، أو اللحظة التي اضطر فيها الى قراءة رواياته بصوت عال أمام الناس في الاجتماعات. اذن فالرواية ككتاب مطبوع لم توجد لتقرأ بصوت عال ، ولا لكي يستمع الناس اليها ، انها تكتب لان القارىء سيقرأها ، وهي لا تحفظ غيبا . بينما القرآن مثلا ، بايقاعه الداخلي ، وقوافيه ، وتجانسه ، والوقفة بين سوره ، سهل الحفظ غيبا. لذلك فاذا أطلقنا تسمية « فرضية » على انواع الحكايات المصاغة شعرا ، أو مقاطع من الشعر للمدنيات القديمة ، التي كانت تحفظ غيبا وتلقى بانشاد وبرفقة قيثارة ، تصبح « الفرضية المضادة » هي الرواية المكتوبة نثرا والتي يقرأها القارىء لنفسه متتبعا الاحرف بعينيه في كتاب مطبوع. واليوم ، تجعل الامكانات الفنية الجديدة ، الاذاعة مثلا أو السيناريو من حيث الشكل ، والشروط الاجتماعية الجديدة من حيث المضمون فرضية جديدة ، تجمع الفرضية والفرضية المضادة ، ضرورة قائمة ، ان التفسير الآلي للجدلية يتطلب ذلك . ولنتابع هذا التفسير : في هذه الفرضية الجديدة نجد عناصر من الفرضية واخرى من الفرضية المضادة ، وعليه ستكون هذه الفرضية الجديدة مختلفة نوعيا . وسيتعلق الامر بطريقة لحكاية القصة يمكن حفظها غيبا ، كما يمكن قراءتها للجماهير ، في الاذاعة مثلا ، ومن قبل شخص واحد ، ويكون لها شكل الكتاب المطبوع ، وتستطيع ، من جهة أخرى ، استخدام كل الامكانات الجديدة لحكاية الانواع الحديثة في المسرحية والسيناريو الخ..

لا ادري اذا كنت قد أجدت التعبير . يقولون ، كما تعلم ، ان اللغة الشعرية اكثر صنعة من لغة النثر . أنا لا اشاطر هذا الرأي . اذا كان مقياس الصنعة والطبيعية هو اللغة المحكية ، فان النثر يمكن ان يكون على قدر الشعر نفسه من حيث الصنعة أو الطبيعية . هاك ما اريد قوله : ما هو أكيد في نظري ، ان تقنية هذا النوع الجديد ، ستستوحي تقنية الشعر في معناه الاكثر اتساعا ، وستستخدم الايقاع والقافية بمعناهما الواسع ، تماما مثلما يمكن ان يكون غياب القافية ايقاعيا . ولكن ـ وهذه مسألة فنية ـ كيف ستكتب الاسطر ؟ مفصولة بعضها عن بعض ، وموضوعة بعضها تحت بعض ؟ أم انه سيجري استعمال تقنية أخرى ؟ لا اعرف شيئا عن ذلك بعد . وهناك أشياء كثيرة أخرى أجهلها ، سيكون من الواجب دون شك اختيار التقنية التي تسمح بالقراءة ، والنظر بأكثر ما يمكن من السهولة. وستظهر الممارسة لنا قيمة ذلك . ان اكثر المعضلات التي أشرت اليها حتى

الآن متصلة بالشكل ، لان الحكاية التي تجب روايتها ، اصبحت على درجة من التعقيد يتوجب معها ايجاد شكل جديد يتلاءم مع هذا المضمون المعقد . والسبب الذي يدفعني الى محاولة تعريف معضلة الشكل هذه ، هو انني لا اتوصل ، باستخدام الاشكال الحالية ، الى رواية الحكاية التي اريد روايتها ، أو ان الطريقة التي ارويها بها لا ترضيني .

(١٩ – ٤ – ١٩٤٧)

كمال !

اجيبك بتأخير كبير . وستعذرني متى عرفت السبب . لقد أتت بيرابيه لتراني ، وانت تعرف جيدا انه عندما تكون زوجتي هنا أستسلم لسعادة انانية ، حتى انني اهمل الكتابة اليك .

لنتكلم الآن عن « سوبر – روايتي » . انت ترى ان هذا النوع سيكون مملا ، لانه سيتكوّن من الحركة فقط . أما في رأيي فانه سيكون عكس ذلك ، وأنا على يقين ان عنصر التحليل سيكون فيها على قدر عنصر الحركة .. وعلى كل حال فقد انتقلت الىالعمل وهيأت السيناريو لتجربتي الاولى .. والعمل وحده يسمح بالحكم على الانسان . سأنهي هذا العمل خلال هذا الصيف ، وعلى أبعد حد خلال هذا الشتاء، وعندئذ نحكم حسب النتائج . وبعد كسل دام سنة ، وبعد هذا العمل الطويل من « الهضم » ، فان فرحة العودة الى العمل تجعلني مرتاحا قدر الامكان .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

لقد ذهلت حقا : خبر جيد كهذا ، ولا تكلمني عنه الا في نهاية رسالتك . شقيقك نوري اذن بجانبك أخيرا ؟ انه لفرح عظيم ، واني سعيد بأن اقول لنفسي انك لم تعد وحيدا هناك .

.. والدتي تعرض لوحاتها في اضنة ، وهي تقدم لاهل هذه المدينة مجموعة من النساء العاريات في الحمامات ، وباقات من الزهر ، ولوحة أو اثنتين لفلاحين شباب ، وبعض المناظر من باريس . وقد لاقى المعرض نجاحا كبيرا على ذمة الصحافة المحلية التي تلحّ على نقطتين : ١ – انعرض نساء عاريات في مدينة كاضنة يشكل « ثورة حقيقية » . ٢ – ان هذا المعرض هو من نتاج سيدة عجوز في السبعين من عمرها ، لا ترى الا بعين واحدة ، وتستمر مع ذلك في الرسم . تسلمت رسالة منها ، كم هي

سعيدة هذه المرأة المسكينة ، وأنا أيضا مسرور جدا . باختصار ، حتى في سجن بروصه تجري الحياة بآلامها ومسراتها .

كما أعلمتك في رسالة سابقة ، بدأ العمل فيهذا النوع « الجديد » . وقد ارتكبت خطأ جسيما عندما انتقلت ، في بنـــاء نظريتي ، من معضلة المضمون الى معضلة الشكل في التطبيق . ومع هوسي في أن اعمل كل شيء بسرعة ، حاولت أن أذهب من الشكل الى المضمون ، أي حاولت أن اطبق الشكل أولا . وكانت النتائج جيدة تقريبا ، لكن جهودي كلها افضت الى نوع من الطبيعة الميتة . الآن يجب أن اعيد كل شيء .. (انت تعرف بأني أحب كثيرا قصة الالباني وكلمته الشهيرة : « امحو كل شيء ، اني ابدأ من جديد ») ومع ذلك فأنا لم أضع وقتي ، اذ يخيل الي بأني أكاد أحل واحدا أو اثنين من المبادىء الجوهرية المتعلقة بالشكل .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

لقد ذعرت من جهلي الضخم ، وكدت أبكي من الغضب الشديد . لقد فهمت الآن الى اي حد كنت جاهلا .. ليس لدي عن الطبيعة الا معلومات عامة فلسفية . فمعلوماتي عن النباتات والحيوانات والمعادن والفيزيولوجيا والفيزياء والكيمياء ، ومجموعة أخرى من الاشياء ، لا تتجاوز معلومات الهمجي ، أي انها صفر . انني أعرف القوانين العامة الجدلية لهذهالطبيعة التي تدهشني ، والتي أحبها بعمق ، لكني لا أعرف شيئـــا عن القوانين المادية والحياة الحقيقية لهذه الطبيعة ، واذا وضعنا جانبا بلدي وأوروبا ، فأنا لا اعرف غير الخطوط الاساسية لنـــوع الحياة والشروط الماديـة والاخلاقية التي تعيشها الكائنات البشريـــة في آسيا وافريقيا . وعندما يتعلق الامر بالتفاصيل المادية لهذا النوع من الحياة ، فان جهـلي يجعلني أحمر خجلا . بينما انا أدعي كتابة « رواية » اللحظـة المحددة واللانهائية للكون ، مع ازهاره وأرضه وجراثيمه ونجومه وذراته وطيوره وحيواناتـه المتوحشة ، واناسه بشروطهم الاجتماعية والنفسية . وكل هذا اريد حشره في كتاب من حوالي ۸۰۰ صفحة . كيف سأتوصل الـــى ذلك ، مع هذا النقص في المعرفة ؟ ولماذا احاول كتـــابة روايات اكثر سوءا (حتى على افتراض انها أجود) مع هذا الجهل ؟ وكيف تجرأت أن اكتب القصائد دون ان أعرف جيدا وبعمق ، الطبيعة والناس ؟ ان ما يجب ان افعله الآن هو

الا اترك عزيمتي للفتور ، وأن اطلب كمية كبيرة من الكتب واحاول ان اثقف نفسي قليلا .

(دون تاريخ)

كمال !

كان لاعترافي بالجهل لك ولنوري طاهر اثر لم أكن اتوقعه . لقد فسرتما هذا الاعتراف على انه شيء من اليأس والتشاؤم اللذين خلفتهما السنون التي عشتها في السجن . لهذا فقد اقترحتما ، كعلاج ، أن أذهب وانضم اليكما. انني اريد حتما أن اعيش الى جانبكما ـ أكثر مما تتصوران ـ لكنني لا اعتقد بأنني سأصبح عالما كبيرا عندما اضع قدميّ في سجن تشوروم ... وقد يكون فيّ ، كشاعر ، جانب رومانتيكي وطائش ، لكني كفرد واقعي جدا ، لست واهما عندما أتحدث عن جهلي ولا انجرّ الى اليأس والتشاؤم . جهلي هو واقع ، وخاصة في حقل العلوم الطبيعية، التي تسمى العلوم الصحيحة . وما يجب عمله لتدارك هذا الجهل هو أن اتثقف ، وقد باشرت ذلك فورا .. من جهة اخرى ، انا اعمل كالمهووس منذ شهر أو شهرين ، لكنني لم أجد بعد حلا لهذه الرواية التي يجب أن تكون شيئا آخر غير الرواية ، ولم يمنعني هذا من كتابة الشعر .. انني لم أشعر أكثر من يوم أو يومين بهذا العذاب الذي يسمونه الوحدة . لذلك لا تهتم من أجلي ، فأنا جاهل يعترف بجهله ، ويحاول أن يتغلب عليه ، ولا يشعر بأنه وحيد على الاطلاق ، وليس يائسا ولا متشائما ولا فاقدا شجاعته . لا تقلق عليّ اذن ، وكما يقول المثل : « الباذنجانات المليئة بالبذور لا تتأثر بالصقيع » .

اخي نوري .

تقول انك تحبني لذاتي وليس لمعارفي أو لمقدرتي كشاعر ، وانا اشكرك ، ولكن ما يجعل مني هذه « الذات » هو بمقدار كبير كوني شاعرا، وجاهلا ـ أو ـ عالما . وقد كنت تحبني اكثر لو كنت اكثر معرفة .. وهذا ما سأفعله ، وسيكون عندي خلال سنتين من المعارف اكثر قليلا مما يجب أن يملكه انسان متمدن .

انت هناك تفتح دكان نجار ، ونحن هنا في قمة الازمة ، لكننا سنجتازها في النهاية ، وستعود آلاتنا الى الطقطقة من جديد . اودعك بشوق يا ولدي العزيز .

(٢٠ ـ ٦ ـ ١٩٤٧)

كمال !

.. يخيل الي انا كنا ، نحن الاثنين ، مخطئين ، وانه من الافضل ان نقول : ليس هناك جمال مجرد بصورة مطلقة ، ولكن ليس هناك أيضا جمال مفيد للانسان مئة بالمئة . ومن الناحية العملية فان الجمال الاكثر تجريدا نفسه مفيد من ناحية للانسان ، وكل ما هو جميل حقا مفيد له ، والجمال المفيد يقدم حتما شيئا من الجمال المجرد .

بمقدار ما أشيخ يتملكني شعور غريب . مغامرة الجنس البشري بأسرها ، منذ البداية حتى المستقبل الاكثر بعدا ، أشعر بها في جسدي وفي قلبي ، بشكل ملموس كما لو كانت مغامرة آنية ، كما لو كانت قضية هذه السنة ، هذا الشهر ، هذا الاسبوع ، الاربع والعشرون ساعة الاخيرة ، مغامرة تخصني شخصيا .. المغامرة الانسانية مغامرة هذا اليوم ، مأخوذة ليس كنظرية ، بل كحدث ملموس ، أشاهدها ، لا في مخيلتي ، بل تحت عيني تقريبا ، تتصل بآلاف السنين في الماضي ، وبآلاف السنين في المستقبل ، وهذه المغامرة (هذا التعبير « مغامرة » شاعري قليلا ، وبدائي قليلا على ما أظن ، اعذرني ، فعندما أتكلم معك أخجل من التماس الدقة الكبيرة في الكلمات) هي تماما كالعلاقات بين الجنس البشري مع بقية قراباته ، العفوية وغير العفوية ، وخاصة قرابتنا العضوية ، مع كل فصائلها وانواعها ، « أشعر » بها فعليا وليس نظريا على الاطلاق . ان كل الحيوانات ، كل النباتات ، والنجوم ، وباختصار كل الاشياء المتعددة التي تملأ الكون ، بقدر ما أستطيع أن أحقق شمولية هذا التعدد ، تهمني بقدر ما يهمني الناس الذين لا يشكلون الا جزءا منه ، وهذا ليس اهتماما مجردا ، بالعكس ، انه اهتمام ممزوج بالحب ، بالامل ، بالغضب ، مما نشعر به ازاء الكائن الحي في معناه الاكثر اتساعا .

(دون تاريخ)

كمال !

.. أنا مريض قليلا ، ويبدو ان الامر لا يتعلق بالكبد أو المرارة . انهم يتكلمون الآن عن الذبحة الصدرية ، خطأ أو صوابا . لنأمل ان كل شيء سيسوى في النهاية . المهم أن نعيش بكل ما يمكن من الايمان والحب والامل ، وما تبقى ليس الا كلمات جوفاء .

(دون تاريخ)

كمال !

النسيج الصوفي الذي أرسل لك عينة منه، عرضه مضاعف ١٣٨ سم، وهو يباع في استانبول بسعر ١١ ليرة المتر بالمفرق ، ويمنعني من بيعه هناك نقصان المال والظروف . المتر الواحد يكلفنا ٨ ليرات ، فاذا وجدت مشتريا ب ٨،٥٠ فانني أبيعه بربح ٥٠ قرشا في المتر ، فحاول أن تعرض هذه العينة في السوق عندكم . اننا نصنع النسيج نفسه من عدة الوان .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

بيرايبه وسوزان ومحمد أتوا لزيارتي وبقوا ثلاثة أيام في بروصه ثم عادوا . هذه الايام الثلاثة كانت ثلاثة ايام في الجنة . أصبح محمد فتى كبيرا وقويا ، وانا لا استطيع ان أتصور ان احدى رئتيه لا تعمل ، وهذه الفكرة تعذبني . انه ذكي وعاقل ويتكلم جيدا . باختصار انه ابن من النوع الذي كنت أشتهي . وقد أصبحت ابنتنا جميلة جدا ، وهي جذابة ولطيفة.

.. المقالات موضوع البحث في المجلة ، يكتبها شخص يدعى رضا تشادولي ، كان قد سجن بتهمة الاحتيال أو بشيء من هذا القبيل . ويقال أيضا انه سجن بتهمة التجسس لحساب الالمان ، وأنا لا اعرفه ، لكنه حتما ذو خيال تحت المتوسط . كدت أغضب ، لكنني لم أتمكن من ذلك . تنشر اليوم ، في كافة ارجاء العالم ، أكاذيب وتهم باطلة من هذا النوع ، وبوسائل ضخمة ، لدرجة ان ما يمكن أن يختلقه انسان حقير ضد شاعر تركي يحب بلده ، يبدو تافها ، فضلا عن اننا لا نهتم لذلك . فلنستمر في محبة بلدنا وشعبنا والناس الشرفاء في العالم أجمع .

هل عاد نوري طاهر الى التجارة ؟ انا أقرأ واكتب بقدر ما استطيع.

(دون تاريخ)

كمال !

انا قلق على صحتك . ليس لديّ ما يكفي لارسال برقية ، لكنني قريبا سأفعل ، فقد بعنا بعض القطنيات ولم نقبض ثمنها بعد .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

قمت بالمساعي اللازمة لاجل مقالات المجلة ، لكن صاحب هذه الخرقة

التي تحمل اسم « الوطن » يدعى جمال كوتاي .. وسنرى في النهايـة ما يكـون .

أجد من وقت لآخر مجلات أدبية فرنسـية ، وأحاول قدر المستطاع أن أتابع الادب الفرنسي . ما يدعون انه جديد في مجال الشعر ، عملناه نحن الشعراء الاتراك منذ وقت طويل ، سواء من حيث الشكل أو المضمون. وما يحاول أن يعمله أراغون لاجل القافية ، طبقه بنجاح أدبنا الكلاسيكي .

عزيزي كمال

توصلت خلال الاعوام الاخيرة الى ملاحظة ان رجال معسكرنا يجب أن يتمكنوا من قراءتنا ، نحن الكتّاب ، لدى كل حالة فــي حياتهم ، وأن يجدوا الجواب ، من وجهة النظر الفنية ، على كل الاسئلة التي يطرحونها على أنفسهم . فعندما يحبون ، مثلا ، ويشعرون بالحاجة الى قراءة أشعار غزلية ، وعندما يقاتلون ويريدون قراءة أشعار حماسية ، وعندما ينهزمون ويحسون بالحاجة الى قراءة أشعار الامل ، وعنـــدما ينتصرون ويريدون قراءة أشعار مليئة بالنشوة ، وعندما تبدأ شيخوختهم ويفتشون عن حل لمعضلة السن ، وعندما يمرضون ويصغون الى الطبيعة ، ويرغبون في حل مشكلاتهم الإجتماعية ، وباختصار ، في كل لحظة من حياتهم ، يجب أن يتمكنوا من قراءة ما نقوله لهم في كل هذه المواضيع .. وعلينا نحن الكتّاب الواقعيين الجدليين ، أن نعالج كل مظاهر الروح الانسانية .

(دون تاريخ)

أخي كمال !

أنت تريد التفاصيل عن مرضي ، واذا كنت لا أعطيكها ، فليس لاني أجد الحديث عنها كئيبا ، وأكثر كآبة من المرض نفسه ، بل لان هذا لا يفيد في شيء ، الا في اقلاقك .

ليس ثمة تطور . فقد تضخم كبدي . لقد صغر حجمه في البداية ثم انتفخ من جديد ، رغم انني ألتزم نظاما شديدا فــي الطعام ، وأتناول أدويتي بانتظام . واذا كنت تريد تفاصيل أخرى فهذا مرض السكارى ، والذين يكثرون من المقليات ويحبون التوابل ، وأنا لم أشرب في حيـاتي ولم أحب التوابل ولا المقليات ، ومع هذا أصاب بهذا المرض . وقد بلغني ان جدتي ماتت بتشمع الكبد ، وهو شكل من أشكال هذا المرض ، ويمكن

ان تلعب الوراثة دورا هنا . انا افعل ما بوسعي لاتجنب التشمع ، فلا آكل تقريبا الا الحليب واللبن ، وعجينة البطاطا والجزر ، وكما ترى ، انها القصة نفسها ، اذا طلبت من مريض أن يتحدث عن مرضه ، يستحيل عليك أن تسكته بعد ذلك .

(٢٦ – ٩ – ١٩٤٧)

كمال !

تقول لي انك تكتب « لرجال اليوم وليس لرجال الغد » . من المستحيل أن تعمل العكس ، والذين يدعون ذلك يكذبون . ان ما تكتبه اليوم جميل وحقيقي من وجهة نظر المضمون والشكل ، وهذا يعني ان هذه الكتب قد كتبت لرجال الغد ايضا .

لقد كتب « دون كيشوت » لرجال عصره ، لكن عمله جميل وأصيل في كثير من جوانبه ، بحيث انه كتاب رجال اليوم والغد ، والامر كذلك في « الحرب والسلم » . يجب أن يعطى الواقع في كل جوانبه وفي شكله الاحلى والاكثر ملاءمة . وسأكون كاذبا لو ادعيت بأنني لا أشعر بأي حزن لاني فهمت متأخرا بأن القضية الجوهرية تكمن هنا .

(دون تاريخ)

كمال طاهر

.. قضيت هذا العام وأنا لا اعمل شيئا بنسبة ٩٩ ٪ ، وبنيت كومة من النظريات الخاسرة ، ولم افعل شيئا ملموسا . يجب أن اعمل عملا مضاعفا في السنة القادمة .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

احب كثيرا اعمال الرسام بدري رحمي – وهو شاعر أيضا – وخاصة الرسوم التي يستعمل فيها الصور الشعبية . قضيت ساعة كاملة وانا غارق في تأمل غلاف احد كتبه ، كما نصغي الى اغنية او نقرأ كتابا ، بل واكثر من ذلك . وقد أرسلت الكتاب الى ابني ، ومرّ شهران، فاستيقظت فيّ من جديد رغبة في أن أرى هذا الرسم ثانية ، وكتبت قصيدة طريفة ليس لها صلة بعيدة بصور الكتاب ، لكنها تذكرني به :

هي الصحراء ، والآثار على الرمال .
هو القطب ، والجليد الابيض الصامت ،
هو البحر ، والملح .
وتأتي السهول الواسعة ، سريعة كالارنب البري الرشيق ،
وتركض بسرعة السماء ..
وفي الليل ، من الحصن ، تنبثق ديار بكر
وشطآن دجلة ليلا ، وبطيخها الذي ينفجر ،
هو ذا الدلب ، وعصافيره التي تزقزق .
هو ذا السمك مع البحر ، وحراشيفه الفضية
هي ذي الوردة ، وخيلاء الغزال
هي ذي الافعى ، وعينها الحمراء القانية
هو ذا الانسان ، وكلمتان للحب .
ويقول ناظم : هو ذا بدري بن أيوب ،
بعنقه الطويل المائل ،
والوانه الحمر والخضر ،
وتقاطيعه الذهبية ،
وخطه الغريب ..

(دون تاريخ)

كمال ! ايها الاخ !

سأقص عليك خلفيات مجلة « الوطن » وما تنشره من أكاذيب ضدي، لانه يخيل الي انك تعلق عليها أهمية كبيرة . الاسباب نحن نعرفها ، أما الواقعة فهذه هي : ان طبيب السجن هنا الذي طلب مفتش وزارة الصحة تحقيقا اداريا بشأنه ، اصيب بالهلع لفكرة انه قد يفقد مركزه ، وطلب مشورة أحد المحامين من اقربائه على ما أعتقد . من جهة أخرى هناك شخص آخر كان لفترة من الزمن مديرا مساعدا يرغب في أن يعين مديرا. وقد كنت أحد الذين أدلوا بشهاداتهم خلال التحقيق حول الطبيب . اذن فالامر سهل : لكي نفسل الطبيب من كل الشكوك ويستطيع المساعد ان يصبح مديرا ، يكفي أن نهاجم ناظم حكمت ، وهذا ما يفعلونه... والخزانة التي وجدوا فيها مخبأ « لاخفاء السلاح » هي خزانة ملابسي ، وقد

اشتريتها منذ سنتين ، أمام شهود ، من سجين أطلق سراحه ، وكان يملك منسجا للجوارب ، ويستعمل هذه الخزانة لوضع عدته فيها . وقد كان تحت الخزانة رف ضيق جدا ، لم الاحظه ، والله يعلم ماذا كان يخبىء فيه هذا الشخص ، سكينا أم القطع الثمينة لمنسجه، لكن المساعد بدل أن ينقل افادتي الى النائب العام ، أرسلها الى الجريدة . هذه هي الوثائق والادلة موضوع البحث ، وكل ما تبقى أكاذيب حمقاء وفظة . وقد جاء مفتشان من وزارة العدل ، وهما يحققان أيضا في هذه المواد . وكما رأيت في صحيفة « أولوسي » ، فقد أقامت النيابة دعوى نشر أنباء كاذبة .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

.. علب الخياطة التي أرسلتها ستباع بشكل جيد ، لكن المصنوعات الاخرى ، كالعربات والسيارات ، لن تباع بالاسعار المبينة ، رغم انها تكلفكم جهدا ووقتا أكبر ... سأزين السيارات وأدهن الدواليب قبل أن أعرضها للبيع . علب الابر جميلة جدا ، وسنتمكن من بيعها مع المراكب الشراعية بسهولة .. انتبهوا الى الدهان ، فأنتم تعرفون ان شكل المعروض مهم جدا للزبون .

(دون تاريخ)

كمال !

.. أخطأت فأخبرت أمي وبيرابيه واختي باحتشاء قلبي ، فوصلن ملتاعات . كم سببت لهؤلاء النسوة المسكينات من هموم !

(دون تاريخ)

اخي كمال !

اقرأ الآن بالتركية « عناقيد الغضب » (١) ، وهو كتاب لاقى نجاحا كبيرا في أوروبا العام الماضي ، وقبله في اميركا ، حتى انهم صنعوا منه فيلما .. الفتك الى ميزة تقنية فيه جعلتني حزينا . ان الرواية مؤسسة على الحوار ، فيما يسمونه التجديد ، بينما أنت قد استعملت هذه التقنية في روايتك « ساجيدير » في الفترة نفسها ، ودون أن تعلم بوجود مؤلف

---

(١) للكاتب الاميركي جون شتاينبك (ح. م.) .

« عناقيد الغضب » .. وما جعلني حزينا هو ان العنصر الجديد الذي أتى به المؤلف الاميركي قد قدّر عاليا ، بينما عطاء كمال طاهر ظل مجهولا ، ليس في الخارج فقط ، وانما في تركيا نفسها .

(١٤ – ٤ – ١٩٤٨)

كمال ، اخي !

.. اذا كانت صحتي قد تحسنت ، فان لعودتي الى العمل دورا كبيرا في ذلك .. قررت ان أكتب ثلاث مسرحيات هذا الصيف ، وقد انهيت الفصل الاول من المسرحية الاولى التي عنوانها « فرحات وشيرين » .

(دون تاريخ)

كمال ، نوري ، يا اخواني !

.. تألمت جدا لقصة الافتراءات التي كنتم ضحيتها . لكنني لم أفاجأ بها لاني واجهت هنا الشيء نفسه أو ما هو قريب منه . وكان مفتشو الوزارة الذين أتوا للتحقيق اناسا شرفاء ، فهموا فورا حقيقة الامر ، وتحمل المفترون نتيجة عملهم . لقد كنت محظوظا . ومن المضحك التحدث عن الحظ عندما يتعلق الامر بالعدالة ، لقد نسيت ماذا يعني الغضب ، حتى اني أقدّر بأن هذا رفاه غير مفيد . ويبدو لي انه من المستحيل أن نغضب ، اذا كنا نفهم ، اذا كنا نعرف أو نرى .. كل ما يحدث للذين أحبهم ، حسب الاحوال ، يسبب لي السرور أو الالم ، لكني لا اكره حتى الاشخاص الذين لا احبهم ، وما أشعر به نحوهم هو احساس أقوى من الكراهية ، فأنا اراقبهم كما أراقب الحشرات تحت ضوء أشد برودة من الثلج . لدينا أشياء أخرى نفعلها في السجن ، فبامكاننا ان نعبر عن حبنا للوطن وللناس الشرفاء فيه ، بأن نقدم لهم أعمالا جديرة بهم ، وهذه الاعمال ستكون الصفعة الاكبر التي يمكن ان نرمي بها أعداء الشعب .

(١٤ – ٦ – ١٩٤٨)

كمال !

.. ما زلت أتلكأ فيما يتعلق بالقسم الذي يتحدث عن الحب بين « فرحات وشيرين » . يصعب عليّ أن اتحدث عن الحب الى شخص آخر غير بيرايه حتى في مسرحية . ومع ذلك فان الكلام على الحب ، وهو شيء سهل نوعا ما في الشعر ، يصبح صعبا للغاية في النثر .

(١٦ – ٧ – ١٩٤٨)

اخي كمال !

ثمة اقوال عن العفو ، لكنك تعلم بأنه ليس لديّ أوهام بهذا الشأن ، وان كنت لن أتراجع عن النضال في سبيل تصحيح العدالة. انني مستشار فلاحينا الذين يقولون : « اعمل لتحصد في الشتاء ، واذا كـــان الموسم ناضجا في الصيف فهنيئا لك » . أكثر من ذلك . أنا أحتاط للصيف كمـا للشتاء . هل تذكر هذا التفاؤل الواقعي عندي؟ كنت تعتبره غالبا تشاؤما.

.. أتانا مدير جديد للسجن ، وقد بادر الىحلاقة رؤوسنا . لي الآن مظهر مصارع في الحلبة . لقد حلقوا رؤوسنا منذ ستة أشهر بناء عـلى أوامر المفتش . والسجناء الفلاحون خاصة ، وهم أناس طبيعيون ، يحلقون شعورهم عندما يكونون أحرارا ، لكن هنا في السجن ، عندما يتواجدون في بيئة أكثر مدنية من قراهم، فانهم يطيلونشعورهم ويرتدون البنطلونات وحتى البيجامات .

(دون تاريخ)

عزيزي كمال !

انهيت مسرحية « فرحات وشيرين » .. وقد كنت مقتنعا بأن هذا العمل غير ناضج ، حتى انني غضبت عندما كتبت الفصل الثالث . لكـن عندما انتهت المسرحية وقرأتها من جديد ، بعد عشرة أيام ، لم أجدهـــا على هذه الدرجة من السوء .

.. انني أعمل جيدا هذه الايام . قصيدة كل يومين تقريبا . وقـد انهيت في يومين ، الفصل الاول من مسرحيتي الجديدة « صباحات » .

(دون تاريخ)

كمال ، يا اخي !

تأخرت في الجواب ، وهذا خطأي . أنت تعــذرني اليس كذلك ؟ لماذا تغضب هكذا بسرعة ؟ ان غضب الناس الشرفاء هو احدى القوى الاكثر جمالا في العالم والاكثر شرعية وكبرا . أنت أحد الناس الاكثر شرفا في هذا العالم ، لذلك لا يحق لك أن تبذّر غضبك هكذا . اما انا فلم أعـد استجيب الا للغضب الكبير جـــدا ، وقد تعلمت أن ابتسم بهدوء بدل الانسياق الى الغضب السريع . وفي هــذه الايام أقضي وقتي في كتـابة القصائد التي تتكلم عن الحب والطبيعة .

.. اعتقد انني على منعطف في حيـاتي الخاصة ، اتفهم ؟ حيـاتي الخاصة التي لا تهمّ احدا سواي .

.. بايجاز ، في حياتي الخاصة يمكن أن يحدث تغير يفجؤك اكثر من اي انسان آخر ، ولكنك تفهمه أيضا أكثر من أي انسان آخر .

. أكتب لك أشياء عجيبة فلا تندهش ، لا تحاول أن تعرف عنهـا المزيد ، ولكن عوّد نفسك على الاندهاش .

اكرر لك ان جميع ما ارويـــه لا يعني الا حياتي الخاصة ، حيـاتي انا وحدي .

.. وزير العدل جاء مؤخرا الىبروصه وزارني في زنزانتي، وتحادثنا لمدة عشرين دقيقة تقريبا ، وتكلمت معه عن الظلم الذي وقع عليّ ، وشكوت من ظروف الحياة في السجن ، وقد استمع اليّ بصبر .

انا لا اعمل هذه الايام اطلاقا . وعندما تشرع بكتابة أشعار الحب في سن السادسة والاربعين، وفي السجن ايضا، فان شيئا منالكسل يأخذك، شيئا من كسل يعذبك ولكن يسعدك ايضا

لا جديد حول صحتي . ليست أسوأ وليست أحسن . وليس لديّ اية رغبة في الموت .

(٦ – ١٠ – ١٩٤٨)

اخي كمال !

.. لم المس مكوك النسيج منذ سبعة او ثمانية اشهر . انا مديـن هنا ، ووضعي المادي يدعو الى الرثاء ، ولكن وضعك يؤلمني أكثر . ومـن جهة اخرى انني اتبع حمية خاصة وآكل بقدر ما يأكل عصفـــور ، بينما نوري رجل شاب ، وانت ايضا ، وكلاكما يحتاج الى تغذية جيدة .

بيرابيه لم تستطع الحضور لرؤيتي منذ ثمانية أشهر . لقد كـانت مريضة ، ثم لم يكن لديها نقود ، وتكلف الرحلة الى بروصه مصروف شهر من ميزانيتها .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

.. اود أن اكلمك عن مشكلة اقلقتك واحزنتك في رسالتي الاخيرة.
اعرف جيدا انني لا استطيع ان امتلك حياة خاصة بشكل مجرد ومطلق .

لكن مع معرفتي ذلك فان ثمة بعض الاشياء المتصلة بحياتي الخاصة التي لا تعني أحدا سواي ، وسوى الانسانة موضوع المشكلة في هذه العلاقة ، وأنـت .

اليك ما تعنيه هذه القضية : كـان عليّ أن أضع نهـاية لعلاقتي ببيرابيه . ان هذه العلاقة ، كما هي بين زوج وزوجة ، لم توجـد أبدا عمليا ، وكما حزرت أنت ، فقد اتخذت أنا هذا القرار . اني احترم بيرابيه كثيرا ، وأحترم نفسي أيضا . بيرابيه في نظري مخـلوق كامل جدا ، شجاع جدا ، وطيب جدا ، وهي الكائن الذي أنا مدين له بأجمل السنوات، وأفضل أعمالي ، بحيث لا أستطيع أن أكذب عليه ، ولا أستطيع أبدا أن أخدعه أخلاقيا ـ ماديا . وفي علاقاتنا ، حتى الزوجية منها التي قذفنا بها الى الخط الاخير ، فضلت أن أسبب لها ألما ، وألما فظيعا ، وأن أجعلها تعيسة ، على أن أخدعها أو أكذب عليها . أنا أيضا كنت تعيسا جدا ، وما أزال كذلك ، ولكن لنا ، هي وأنا ، شرفنا وكرامتنا ، ونفضل العذاب والالم على قلة الشرف وفقدان الكرامة .

أكرر لك ان بيرابيه هي الكـائن الذي كان أقرب النـاس اليّ ، وستظل كذلك ، ورغم كل شيء ، وحين تزول الضغينة والآلام والغضب ـ ولديها الحق أن تغضب وأن تشتمني ـ فان ما أتمناه هو ان يمر كل ذلك بأسرع ما يمكن ودون أن يهزها هزة كبيرة . انني أعتقـد ان صداقتنا وارتباطنا الاخوي يستطيعان أن يستمرا .

.. هل ثمة عفو ام لا ؟ واذا كان هناك عفو فهل نستفيد منه ؟ انني لا أفكر بكل ذلك ، لانه ليس مشكلة يمكن أن نحلها بالتفكير .

(دون تاريخ)

اخي وعزيزي كمال !

تلقيت رسالتك وأرد عليها فورا . أولا ، أنت مريض بشكل خطير ، وقد أخفيت ذلك عني ، وفي حين أتذمر كطفل حتى من اصابة برد ، فأنت تخفي عني وضعك الصحي ، وبالرغم من انني فهمت ـ الى درجة البكاء ـ الشجاعة التي احتجت اليها كي تخفي عني ذلك ، فأنا غاضب عليك غضبا شديدا بنفس الدرجة . كيف استطعت أن تخفي عني مرضك ؟ لقد سبب لي ذلك ألما شديدا ، ألما لا يتصور . ماذا ينبغي أن نفعل ؟ لا بد من اجراء تخطيط للقلب ، وحسب النتيجة نستعين بكل الوسائل الممكنة للعلاج .

.. اشعر بالخجل لانني عاجز عن فعل اي شيء ، وذراعاي ويداي مكبلتان ، في حين ان الذين هم أعز أعزائي يجدون انفسهم في حالة مثل هذه . للمرة الاولى في حياتي أخجل تقريبا من وجودي في السجن .

.. فاجأتني حين كتبت الي : « .. كما تقول في المقابلة التي اعطيتها للصحيفة » . هل صدقت فعلا انني وافقت على مقابلة غبية كهذه ؟ وكيف استطعت ان تتصور ذلك ؟ ما زلت أملك قواي العقلية ، ولم اصبح فاسدا الى الحد الذي يجعلني اقول اشياء خرقاء الى هذا الحد ، أو على الاصح فأنا لست فاسدا بتاتا . وستسألني لماذا لم اكذب هذا . أنت تعرف جيدا انني لم افعل ذلك عندما نشرت « الوطن » كل تلك الحماقات . ثمة مبدأ عندي في هذه النقطة ، فأنا قد أخادع نفسي ، لكنني لن اكذب ما نشر ابدا في هذه المرة بأكثر مما كذبت في المرة السابقة . انني ارى انه من غير اللائق أن اكذب بسطرين كذبات كبيرة بهذا الشكل .

زوجتي جاءت مع الطفلين ، ثم كتبت الي رسالة جميلة جدا ، ولا اعرف لماذا لم تعد تكتب الي البتة .

(دون تاريخ)

كمال !

كتب الي صهري من سجن « نيفشيهير » واعلمني ان نوري انتقل الى هناك ، وانك ستنتقل اليه قريبا .

اعاني منذ عام نوعا من الطفح في وجهي ، مغطى بقشرة واحمرار وبقع على الوجه كله . وهو يتناقص ويزداد ، لكنه لا يشفى أبدا ، ويتفاقم عندما أحكه . انه عذاب حقيقي لا اعرف سببه ولا الطبيب يعرف أيضا .

بيرايه كما كانت سابقا ، وانت تعلم أنني قررت أن اطلقها ، غير انني امسكت ، ولم أفعل هذا السوء نحوها ، لكنها هي تريد ذلك وتلح عليه ، ولديها الحل ، ولها آلامها ايضا .

سنحول السجن هنا ، الى مركز عمل . آمل ان يسمحوا لي بالعمل كي اكسب عيشي .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

ليباركك الرب . اشعر بحرارة في القلب لمجرد أن اقرا عناوين

رواياتك ، وربما انها روقبت ولم يجدوا فيها محظورا ، فقد أصبح بامكانها أن تنشر في مجلات أسبوعية على الاقل ، وتبرهن اننا نستطيع أن نكتب روايات رائعة كهذه ، بلغتنا الجميلة ، حول الشعب التركي ، أحد اشرف شعوب العالم . واتمنى أن تلعب دور الكتاب المدرسي بالنسبة لروائيينا الشباب ، وأن تعود عليك بقليل تعيش به .

شرعت منذ بعض الوقت بالرسم ، ولم أكن قد لمست أقلامي منذ خمس سنوات ، ثم تملكتني الرغبة فجأة ، وها انا ارسم باستمرار ، واهتم بشكل خاص بالطبيعة ونماذج الزخرفة الشعبية ، ولا افعل شيئا سوى الرسم بالزيت والماء والحبر الصيني والفحم على القماش والورق والخشب المعاكس ، وكما ترى فان الزمن لم يغير شيئا من مهارتي في أن أغرق ، وراسي في المقدمة ، في كل هذه الاشياء التي تهمني ، وفي هذه اللحظة الرسم ، بحيث أمرض حين يستحيل عليّ أن أرسم .

قرأت « جحيم » دانتي بالتركية والفرنسية مرة أخرى ، وكانت الترجمة رديئة ، أما العمل فقد راقني .

(دون تاريخ)

كمال !

.. انتقل الآن الى مشكلة التفاؤل ، اما التشاؤم فهو سهل في الفن ، ويبدو لي ، لاسباب معينة ، انه اشد ملاءمة للفن ، ويتراءى لنا ان المأساة لها نبلها أيضا . وهكذا فنحن نستشعر احتراما أكبر لشكسبير منا لموليير . ان التشاؤم ، كمقولة فلسفية وكوجهة نظر ، شيء فيه سهولة وقبح ، أما الصعب فهو أن تكون متفائلا في الفن وأن تمتلك الامل . وعلينا الا نخلط بين الحزن والتشاؤم ، ففن ممتلىء بالامل والتفاؤل يمكن أن يكون حزينا بدرجة مساوية .

.. التضرع الى زوجاتنا ! اي شيء اكثر طبيعية من هذا بالنسبة الينا ؟ زوجتي مثلا ، وبعد القصة التي تعرفها ، رجوتها بشدة والحاح أن تسامحني ، لكنها حتى لم تجاوبني . أنا لا أقول انها لا تهتم بي ، غير أن هذا الاهتمام لا يتجاوز حدود الاهتمام الصداقي .. ومع الزمن يعود كل شيء الى ما كان عليه . ولئن كنت مخطئا ، في هذه القصة ، بنسبة ٧٠ ٪ ، فهي مخطئة بنسبة ٣٠ ٪ أيضا .

(٢ – ٨ – ١٩٤٩)

كمال !

.. سارسل اليك بنطالا وقميصا او قميصين وسراويل الخ .. كلها مستعملة بما يكفي ، لكنني لا استطيع غير ذلك ، وما البسه أنا ليس اكثر جدة .

أصابتني هذا الاسبوع تشنجات قلبية في نقطتين ، لكنني أتحسن قليلا الآن .

انك تعمل بجد ، وعليك أن تكتب أشياء جميلة ، ليبارك الرب يديك. الشعب التركي له الحق أن يفخر بكتّاب مثلك .

كتبت مرة ثانية الى بيرابيه ولم تجبني أبدا . حملة تنظيف في السجن . انهم لا يجدون حشيشا ولا أفيونا ولا سكاكين ، والموقوفون الطيبون مدهوشون لهذا ، وأنا كذلك . انني أكثر هدوءا في هذا الوضع.

(٤ ايلول ١٩٤٩ – بروصه)

كمال ، اخي !

.. انني أعتبر التسامح والمحبة في كل ما يتصل بالفن والادب مؤذيين . لقد غدوت عنيدا جدا في كل ما يتصل بالفن ، الى درجة انني لم أعد أستطيع تقريبا أن أكتب . فبعد سن معينة وبعد نشاط فني معين أيضا ، يغدو الفنان ملزما بأن يخلق روائع . واذا كان لا يستطيع ذلك فيجب أن يعتزل . أنا لا اقول اني اعتزلت ، لكنني وعدت نفسي أن أبدع أعمالا منزهة عن العيب ، جديرة بشعبي وبالانسانية الشريفة ، وهذا يشرح لماذا أنا الآن عاكف على رصد السنوات العشر من ماضيّ الفني – من الوجهة التقنية . انني اجبر نفسي على تذكر كل ما كتبته ، والجزء الاعظم مما اتذكره لا يرضيني من الوجهة التقنية ، وكان بامكاني ان أجعله افضل بكثير . وقد كنت اعيد النظر في كل شيء ، لو كان هذا ممكنا ، الا اني لا أريد أن افعل كالسمان الذي يعود الى دفاتره العتيقة عندما يفلس .

أخيرا تلقيت رسالة من زوجتي . طلبت عنوان محاميّ في انقره . وابتدات الرسالة بهذه العبارة : « السيد ناظم » وختمتها بهذه : « اقدم اليك احتراماتي ايها السيد » . وواقع كونها لا تشفق أبدا ، كما قلت انت، لا يسوؤني . اعتقد بأنها لم تخدعني قط ، ومهما كان وضعها ، فانها في الحالة الراهنة وفية تماما ، لانه عندما كانت القصة القديمة للسيدة « س »

فقد قالت لي « اذا لعبت معي دورا مماثلا ، فسابقى على البعد صديقة لك، لكنني لن اكون زوجتك ابدا » . انها تتمسك بقولها دائما ، واعرف انـه من غير المجدي أن أتضرع اليها ، وكل الرسائل التي أكتبها لها لا تفيد .. واذا تحققت العدالة بعد اربع أو خمس سنوات وغدوت حرا ، فسنكـون قد شخنا تماما هي وانا ، ونستطيع دون شك أن نسوي هذه المسألة .

.. هل مثلت مسرحيتك في السجن ؟

(٢٢ أيلول ١٩٤٩ ـ سجن بروصه)

عزيزي كمال !

مع الاعياد تأخرت بالرد عليك . لقد احتفلنا ٢٦ مرة بهذه الاعيـاد في السجن « ليبارك الرب الوطن والامة ! » .

قلت لي ونحن نتحدث عن الصورة التي .. ارسلت اليك : « لقـد شاخت بعذوبة » . انك تبالغ ، والمسألة بالنسبة اليها ، ليست في انهـا شاخت بعذوبة او بألم ، فها هنا موضوع يجب أن تفكر فيه .. أن نتمكن من الشيخوخة بعذوبة : هذه سعادة كبيرة من غير شك ، أما فيما يتصل بي فأنا لا أبلغ ذلك قط . أنا تقريبا أخجل من أن أشيخ ، فضـــلا عن أن أشيخ بشكل جميل وجيد .. ويتراءى لي انه لكي نشيخ بشكل جيد فثمة شرطان لا يستغنى عنهما ، أحدهما أن تكون لك صحة جيدة ، وثانيهما أن تتابع عملية الخلق بشكل أو بآخر .

ارسلت لك ملابس هل تسلمتها ؟ أشياء قديمة كما أخبرتك ، لانـه ليس لديّ اشياء جديدة . الملابس تعمر اكثر من الرجـال ، لكنها تنتهي بأن تشيخ هي ايضا .. لقد امضينـــا خمسة عشر عاما في السجن حتى الآن ، والمهم الا نيأس .

(١١ ـ ١٠ ـ ١٩٤٩)

كمال ، اخي !

عليّ أن ابلغك فورا خبرا يسعدك : جاءت بيرايه وابني وابنتي وابن أخي لزيارتي أمس ، ولم يمكثوا سوى ساعة واحدة ، لكنني استشعرت ، خلال هذه الساعة ، سعادة العالم كلها .

وجدت بيرايه في حال حسنة ، وهي تعرف كيف تضحك وتلهـم الامل للآخرين ، بالرغم من كل الآلام التي عانتها .

رسائل الى سجن نيفشيهير

تشرين الثاني ١٩٤٩ ـ نيسان ١٩٥٠

عزيزي كمال !

انا سعيد لانك التحقت بأخيك في سجن نيفشيهير . ستكون الحياة هناك أكثر سهولة واقل كلفة . انني على وشك كتـابة مسرحية تدعى « حكاية يوسف السعيد » ، وهي مستوحاة من قصة يوسف في التوراة .

.. حلّ الشتاء أخيرا في بروصـه ، ولم نتلق صحف استانبول يومين متتاليين بسبب الثلوج .

يؤسفني الا استطيع نقل تحياتك الى بيرابيه ، لانني لا اتلقى منهـا اية رسالة برغم انني كتبت لها في مناسبات عديدة ..

(دون تاريخ)

اخي العزيز حمدي !

.. الآلام التي أعاني منها في صدري ورقبتي ، والمتسببة من سـوء عمل القلب ، عاودتني بتأثير الايام السيئة .

(دون تاريخ)

كمال ، اخي !

تلقيت رسائل من بيرابيه . انها ، بغير شك ، من افضـل الكائنات التي صادفتها في حياتي ، واكثرها ذكاء وطاقة . وقد اردت أن أبلغ بعض الجوانب من نفسها ووجدانها وارادتها التي يصعب جدا العبور اليهـا . قليلون جدا الرجال الذين الهموني هـذا الاعجاب وهـذا الاحترام الذي استشعره نحوها .

اصبت بالبرد ولم اشف بعد .. انني الزم السرير .

(١٥ ـ ١١ ـ ١٩٤٩)

كمال !

.. غادرت فراشي بصعوبة هذا اليوم ، لكنني ما زلت أجرجر البرد الذي اصبت به منذ شهر . ضغطك المرتفع اقلقني كثيرا ، لكنني شديد

السعادة ، شديد السرور ، اذ افكر بأن مرضك قد يسهل نقلك الى هنا . ولو حدث هذا ، وانتقلت الى بروصه ، لشعرت بانني حر تقريبا .

(٦ ـ ١٢ ـ ١٩٤٩)

عزيزي كمال !

.. لنتكلم قليلا عن التفاؤل في رواياتك . اليوم ، كل الاعمال الفنية الجديرة بهذا الاسم ، ينبغي ، قبل كل شيء ، ان تكون واقعية ، وكل الاعمال الواقعية لا تستطيع ان تقدم بشكل طبيعي ، الا جزءا ، شذرة ، من الواقع . اكثر من ذلك ، فان العمل الذي يستطيع بحق أن يوصف بأنه واقعي لا يكتفي اطلاقا باعطائنا واقعا جافا كل الجفاف ، لانه يغدو ، آنذاك، عملية لفظية مسجلة بأمانة . ثم ان خيال الكاتب يلعب دورا ايضا ، يشهد على مبادئه وتقنيته ، ويصنع من هذا العمل شيئا قابلا لان نقراه دون ان نضجر . وليس هذا كل شيء ـ فهذه الامور نعرفها جيدا ، وتكرارها لا يسيء ـ لان على الكاتب أن يلعب دور « مهندس النفوس » ، وهذا يعني ان عليه مسؤولية محددة ازاء القارىء ، واذا كان واعيا لهذه المسؤولية ، في الاعماق، فالواقعية الاشتراكية لا تستدعي بالضرورة ـ وبالرغم من كل شيء ـ اليأس والتشاؤم ، وابن الانسان المدفوع بضرورة اجتماعية ، يتجه نحو الجيد والجميل والعادل ، وعلى الكاتب ان يلزم نفسه بانقاذ قارئه الاشد تشاؤما ، من اليأس ، ان يجعله يتذوق الحياة ، اي ان يمارس عليه تأثيرا موضوعيا ، يساعده ويقوده .

.. وأن تكون الشخصيات في الرواية ـ والرئيسية منها بخاصة ـ مخلوقات شجاعة وذات فعالية ، فهذا ليس امرا سيئا ، بل هو حسن ، لقد ولدت مدرسة جديدة في الادب الفرنسي هي الوجودية . انهم يدعون انهم واقعيون ، في حين انهم لا يأخذون بعين الاعتبار الا المظاهر الشريرة للواقع والناس ، ويدورون في مستنقع اليأس ، ويضعون في الخط الاول كائنات مريضة نفسيا ، ويتقنون بشكل جيد عبث الرجعية . ان الشروط الاجتماعية في فرنسا ، غير منظمة ايضا وفوضوية ، لكنها تنضوي في تيار تاريخي محدد ، وتتجه باتجاه النظام والجودة ، وهذا التناقض موجود بشكل طبيعي لدى كل فرنسي ، والامر يتعلق بهذين المظهرين دفعة واحدة ـ من وجهة نظر انعكاسهما على النفس الانسانية واشكال التعبير التي يتخذانها ـ كما يتعلق بوضع احد هذين المظهرين في الصف الاول .

بمعنى آخر ، هذا الانتقاء نفسه للكاتب ، يكشف لنا وضعه الاجتماعي وما هو حقيقي ، ويسمح لنا الواقع ـ والشكر لله ـ أن نضع في الصف الاول المظهر الايجابي دون أن نغفل المظهر السلبي ، ودون ان نخفي أبدا كل جوانبنا السيئة ، واذ نقوم بهذا الاختيار ، فاننا لا نبتعد اطلاقا عن الواقع، بالعكس ، نقترب منه ، ونسمح له بأن ينعكس في العمل بشكل اكثر دقة.

ليس لك ، اذن ، أن تحمرّ خجلا مما صنعت ، فانت تروي للقارىء التركي ، وغدا لقراء العالم كله ، حكاية الانسان في بلدنا ، ولك أن تفخر بذلك . فالواقع ، رغم كل شيء ، يجعلنا متفائلين ، يجعلنا نأمل ، وهذا ما أريد أن تثق به .. استمر في تفاؤلك ، وفي أملك العريض .

(٢٧ ـ ١٢ ـ ١٩٤٩ سجن بروصه)

كمال !

.. كميات من الحكايات الكاذبة تظهر حولي في الصحف. لا تصدقها. لا تتركها تؤثر فيك . أنا جيد المزاج ومفعم بالامل ومقتنع بأننا سنستعيد حريتنا قريبا .

(٤ ـ ٣ ـ ١٩٥٠ ، سجن بروصه)

كمال !

.. آمل ألا تكون قد صدمت بسبب رفض العفو . أنا لم أخدع أبدا ، لانني لم أصدق هذا الكلام منذ البداية ، ولهذا لست مخدوعا ولا يائسا.. وباستثناء البرد الذي اصابني فليس لديّ ما أشكو منه صحيا هذه الايام.

لن يصيبنا شيء لامد طويل ، وسيتناول المجلس الوطني مشروع قانون العفو بغير شك ، وحتى دون عفو ، لن يكون عليك الا سنتان أو ثلاث على أبعد احتمال .

(٣٠ ـ ٣ ـ ١٩٥٠)

عزيزي كمال !

امينة أ. وصلت منذ قليل ، وذكرت لي انك قررت الاضراب عن الطعام ، لقد كنت تعيسا جدا ، وغاضبا جدا ، ومتألما منك . أرجوك ، اذا كنت تستشعر حدا أدنى من الصداقة نحوي أن ترجع عن هذا القرار غير المجدي ، ففي ذلك تصرف غير ايجابي .. انتظر بصبر وأمل ، رغم

كل الاخبار التي ستقرأها فيما بعد في الصحف . مرة اخرى ارجوك ، انت واولئك الذين ربما ارادوا ان يقلدوك، أن ترجع فورا عن قرار الاضراب عن الطعام . لا تجعل منه موضوعا انانيا ، فتقول لنفسك انك قد اعلنت قرارك هذا رسميا . كن حذرا وصبورا ولا تصنع شيئا لا يفيد .

(٥ ـ ٤ ـ ١٩٥٠ ، بروصه السجن)

كمال !

علمت انك قمت بالاضراب عن الطعام . لم أستطع ان اصدق ذلك ، اذا كان هذا صحيحا فقد حملتني اثما كبيرا ، تراجع من أجلي . أبرق لي حالا ، واخبرني بأنك قد أوقفت اضرابك عن الطعام .

(١٠ ـ ٤ ـ ١٩٥٠)

كمال !

توقفت عن الاضراب عن الطعام آنيا ، بعد أن علمت انهم أخذوا تظلمي بعين الاعتبار .

(١٠ ـ ٤ ـ ١٩٥٠)

(مقتطفات من رسائل ناظم حكمت الى اصدقائه فالا نور الدين ومزهو فانو ، في اللحظة التي كان يتأهب فيها لاعلان الاضراب عن الطعام) .

ـ ١ ـ

مزهر ، يا طفلي !

.. لنتكلم فورا عن عرفان أمين (١) ومحمد علي سيبوك (٢) . لقد تحدث عرفان أمين في انقره مع وزير العدل الذي طلب منه مرة ثانية اوراقي ، وكل الوثائق الضرورية التي يحصل له عليها . واكد الوزير انه سيدرس القضية .. تلقيت أيضا رسالة من محمد علي سيبوك . لقد توجه أمس الى المجلس الوطني ورئاسة الجمهورية ، واحيل التظلم الذي قدمه الى رئاسة الجمهورية الى مجلس المظالم . من ناحية أخرى تقدم

(١) عرفان أمين ، الصديق الصدوق لناظم حكمت خلال سنوات طويلة ومحاميه .

(٢) المحامي الثاني لناظم حكمت خلال الشهور الاخيرة من اعتقاله .

سيبوك بطلب طعن بالنقض . وهناك ، على ما يبدو ، اشياء كثيرة ممـا ترغب به . انا شخصيا لا أنتظر ابدا ان تنتهي كل هـذه الخطوات نهاية ايجابية . أريد ان أقول لك انني لا ارى حظا واحدا من مئة فـي استعادة حريتي ، وحتى لا أرى ذلك الى ما بعد سنوات . انني أخادع نفسي وهذا واضح ، لكن نبوءاتي في هذا المجال ، لم تخب حتى الآن .

(١ ـ ٣ ـ ١٩٥٠)

ـ ٢ ـ

مزهر يا بني !

اليوم هو السبت ١٨ آذار من عام الرحمة ١٩٥٠ . اذن فيوم الاثنين المقبل او الثلاثاء وقد يكون الاربعاء على أبعد احتمال ، سيجري ما يجري ، وسيرتسم قدري أسود أو أبيض . انا لست متشائما جدا ولا متفائلا جدا حول لون هذا القدر . لكن لنفرض انني تحررت ولنتصرف عـلى أساس من ذلك .

اصغ اليّ جيدا . كل ليلة ، في الساعة ٢٢ ، وسـواء ذكر ذلك في برامج الراديو وفي الصحف أم لم يذكر ، يبثّ راديو انقره برنامجـا يدعوه ساعة المجلس الوطني ، يقدم فيه تفاصيل المناقشات التي تكون قد جرت في المجلس ذلك اليوم والقوانين التي أقرها .. حين تتلقى رسالتي هذه تلطف بفتح راديو انقره في الساعة العاشرة كل ليلة والاصغاء لهذا البرنامج . ستستطيع أن تعلم باقرار قانون العفو بعد أربع ساعات مـن ذلك ، ومنذ ان تعلم به ، تعال في الغد بأسرع وسائل المواصلات الـى بروصه ، واحضر فورا الى السجن . ستكـون الاجراءات المطلوبة قد استكملت قبل وصولك ، أو انها تحتاج الى ٢٤ ساعة أخرى . في هـذه الحالة تقضي الليل في بروصه ، ونستطيع أن نغادرها في اليوم التـالي باكرا الىاستانبول العزيزة . واذا امكن ان تنتهي الشكليات في اليـوم التالي للتصويت على القانون ، فان بامكـاننا أن نشرع في السفر في المساء نفسـه .

ملاحظة : تقول في رسالتك الاخيرة انك « ستعتني بروحي » وهذا ما جعلني اضحك بصوت عال . الاهم أن تعتني بالحكة والاحمرار والطفح على وجهي ، واذا كان بامكانك أن تجد لي طبيبا يستطيع أن يفعل ذلك ، فسأباركك حتى نهاية ايامي . ان ما لا يستغنى عنـه ، وانت تعرف ذلك

جيدا ، ان يروق وجهي لاحد ما . وسأستشعر الاهانة البالغة اذا كـانت حبيبتي لا تستطيع النظر اليّ ، وستقول : « أي شدق له ! » . أما فيما يتصل بشعري فلا خوف اطلاقا . لقد ازداد عـــدد الشعرات الرمادية قليلا ، مما أفسد اللون بعض الافساد ، لكن أجمل فتاة في العالم لا تستطيع أن تعطي الا ما تملك . .

سأرسل لك برقية في كل الاحـــوال ، غير ان عليكم ان تشرعوا بالسفر ما أن تسمعوا باقرار قانون العفو ، وما اذا كان ينطبق على حالتي.

(١٨ ـ ٣ ـ ١٩٥٠)

ـ ٣ ـ

فالا ، يا أخي !

تلقيت رسالتك واجبتك فورا . قرات في صحف اليـــوم ، وقبل تسلم رسالتك ، العريضة الموجهة من قبل المثقفين فـــي استانبول وانقره الى رئاسة الجمهورية في العاصمة . ان الشجاعة التي شهادتهـــا بعض المثقفين من بلدنا جعلتني سعيدا ، لا لان هذه القضية تتصل بي شخصيا ، بل لانها تتعلق برفع مظلمة . ولم أفاجأ حين علمت بأن هلالي وشـــوكت وحتى عميد كلية الحقوق رفضوا التوقيع عليها ، غير ان رفض يحيى كمال التوقيع آلمني حقا . لا تسيء فهمي أبدا ، لقد تذكرت الرسالة التي كتبتها يوما الى هذا الانسان البائس ، واستشعرت ألما ممزوجا بالاسف .

أنا سعيد لاني علمت ان منوّر وعائشة كانتا تطوفان بهذه العريضة . تأمل صنيع هذه المنوّر معي . فقد تلقيت رسالة منها اليـــوم ، ولم تذكر كلمةً واحدة حول ذلك ، مرحى ! ان قولك عنها : « انها تبرهن عـــلى ارتباطها بك في كل حركة من حركاتها وكل كلمــــة من كلماتها » جعلني سعيدا جدا . وباختصار ، بدأت في الايام الاخيرة أكـــون سعيدا جدا ومسرورا ، واذا لم أمت ، واذا انتهيت الى اللقاء بك ، فسنفيد كثيـــرا من الحيـــاة .

أشعر انني تعيس جدا حين افكر بهموم أمي العزيزة واختي سامية. واذا كان هناك شخصان في العالم لم يبتسما قط بسببي فانهمـــا هما . ولم أكن ابدا ذا نفع من أي نوع لهما . أنا لا أستطيـــع أن أكتب لهمـــا ، وعاجز عن تقديم العزاء اليهما ، فقد منحتاني كل شيء ، وأنا لم أمنحهما

شيئا . آه يا أمي العزيزة ، يا عزيزتي ساموش ! لقد أعلمني محمد علي سيبوك في رسالته بأنك تعتزم المجيء لزيارتي . سيبوك الآن في أنقره ، ولا أستطيع ان أتنبأ بنتائج الجهود والمساعي التي يبذلها ، لكنني مثلك لا أفقد كل أمل ، فالحسّ السليم والضمير القومي ، ينتهيان دائما لنصر العدالة .

في الثامن من هذا الشهر سأعلن الاضراب عن الطعام ، وسأفعل ذلك بأمل وليس بيأس ، وحتى لو غادرت جلدي ، فذلك على أمل أن أعيش حتى آخر أنفاسي . أنتظر بفارغ الصبر الروايات البوليسية ، ولي بعض الرجاءات اليكم ، لمزهر ولك : عزّوا أمي وسامية عندما تتصلان بكم هاتفيا . اما منوّر فلا بد أن تكون الآن وحيدة جدا . أدعموها وامنحوها الشجاعة ، وسلوها ، في هذه الايام ، قليلا . كونوا ممتلئين بالامل رغم كل شيء ، وأنت خاصة يا فالا ، لا تفقد أعصابك ولا تشغل بالك كثيرا .. انني ممتلىء بالامل ، وأنا أسبح في فرح الاعلان عما هو عدالة ، ولي الفرصة في أن أقول لنفسي ان العدالة ستتحقق على أية حال ، حتى ولو متّ . ولي حظ أن أؤمن بذلك ، وأثق به كل الوثوق . تذكر جيدا : انني لا أنتحر أبدا ، ولا أمارس ابتزازا من أي نوع ، ولا أركب رأسي أبدا . كل ما أفعله هو ، ببساطة ، مشروع ، لانه لم يبق لي أي حل آخر الا أن أضع حياتي موضع مغامرة ، كي تتمكن السبل الشرعية من أن تنفتح أخيرا ، وكي يتصحح هذا الخطأ التشريعي الذي ينسحب منذ ثلاثة عشر عاما ... وداعا يا أصدقائي الاعزاء . أعانقكما أنتما الاثنين بشوق . أكرر انني واثق ومتأكد ، برغم كل شيء ، اننا سنلتقي قريبا ، لاني أؤمن بضمير الشعب .

(٥ نيسان ١٩٥٠)

— ٤ —

سلام أيها الاولاد !

كيف حالكم ؟ حالي حسنة ، والحكة على وجهي انقطعت . زارني سيبوك وتناقشنا في الموضوع . اود أن أعلن ، في الثامن من نيسان ، الاضراب عن الطعام ، كي أساعد على انتصار العدالة والقانون ، وكي ادفع السلطة الى الانسجام مع القانون ، وقد كتبت بهذا الى وكيلي الشرعي عرفان امين ، اذهبوا لرؤيته انتم ايضا ، على ان يكون على اتصال مع

سيبوك ، لا تقلقوا من أجلي . لقد كنتم شهودا على برودة أعصابي التي برهنت عليها أمام اخفاق قانون العفو . انتم تعرفون هذا تماما ، فأنا لم اصدق بتاتا بأنه قد يصوت عليه ، وانني ممتلىء الآن بالامل ، ومقتنع بأن الطرق الشرعية ستنفتح أخيرا . وستعاد الي ّ حقوقي ، كما ان هناك امكان موتي ، اننا لا نستطيع شيئا اكثر من أن نتحمل عذاب كوننا قد اصبحنا رمزا للظلم الواقع علينا ، وانه لاجمل بكثير ان اموت في سبيل انتصار العدالة . ارسلوا الي ّ فورا روايات بوليسية ، فعندما اغدو راقدا وجائعا ، ستخفف المتعة التي تمنحني اياها هذه الكتب الالم الجسدي . اكرر مرة اخرى : لا تقلقوا كثيرا . هناك أحد احتمالين : أن أجد حريتي وحقوقي بسرعة ، او أن اخلي للعذاب الذي يوقع علي ّ والذي نغامر بأن يدوم سنوات أيضا . اذا ما استعدت حريتي فان العدالة تتحقق وهذا أفضل ، واذا ما مت ّ فلا مشكلة ، اذ لن اتألم أبدا . وباختصار ، فان وضعي مضمون من كل وجهات النظر . هل رأيت منو ّر يا مزهر ؟ قل لها أن تكتب . عز ّها . يجب ألا تكون شديدة القلق . ينبغي ألا تشغل بالها كثيرا ، فمن يعلم ، قد القاها قريبا جدا .

(دون تاريخ)

ـ ٥ ـ

اخي العزيز ، اختي ، الى القلب الطيب جدا .

تلقيت رسائلكم وأجبت عليها فورا . ستكون رسالتي قصيرة . فعلى الرغم من انني أشعر بالحاجة الى اطالة الحديث ، لا أملك الشجاعة للاطالة في الكتابة حتى اليكم . انا متفائل بنسبة ٥٠ بالمئة ، واكرر لنفسي انه في اللحظات الاخيرة يمكن أن يسوء كل شيء ، ومن اجل هذا فانا لست عصبيا أبدا ، باستثناء انه يستحيل علي ّ الآن ان أكتب رسالة حتى اليكم . استطيع ان أؤكد لكم انني لم اكن قط على مثل هذا البرود ، واستشعر حزنا خفيفا ساخرا ، وباختصار ، في حسابي ان هناك ٥٠ بالمئة من الحظ ، وهذا كيلا اكون متشائما جدا ، كي تنتهي آلامي قريبا ، وعلى اساس هذه الـ ٥٠ بالمئة من الحظ أرجوكم أن ترسلوا لي فور تلقيكم لرسالتي هذه ، الكتب الثلاثين التي على مزهر أن يرسلها ، من ناحية اخرى ، أرى انه من غير المفيد ان تأتوا لزيارتي . سأبرق اليكم او سآتي لاقرع أبوابكم دون اعلام سابق بوصولي ، وسأرجوكم ان تمنحوني ضيافتكم

بعض الوقت .. لا تقلق كثيرا يا فالا . كن واثقا ومتاكدا من اني استطيع أن اذهب بنفسي الى استانبول دون ضجـــــة وحكايات ، ودون أن الفت النظرات المعادية لحالي . مزهر ! يا بني ، ويا بنتي ! لا تحزنا أبدا. وبالرغم من انني لا اشكو من شيء ، وبالرغم من انني تالمت كثيرا من أجلها، وبالرغم من كل شيء، وانت كنت اقرب شاهد على كل هذه الآلام، فأنا أشكو اليك ، ابكي كطفل ، فقد كل سلاح . قل لنفسك انني لو متّ دون أن اعرف كل هذه الآلام ، لكنت قد انتهيت دون أن أفهم مظهرا هاما جدا من مظاهر هذه الحياة . وفي هذا المجال ، والشكر لله ، فانا أشبه مولانا كثيرا .

كفى كلاما على كل هذا ، فما سيأتي سيأتي . اقبلكما انتما الاثنيـــن بشـــــوق .

(٨ ـ ٥ ـ ١٩٥٠ ، سجن بروصه)

برقية

لا تتحركوا ، انتظروا برقيتي .

اوسكودار

* * *

الى هنا تنتهي رسائل ناظم حكمت في السجن . في الثامن من نيسان اعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت أو يطلق سراحه ، وفي اليوم نفســـــه كتب الرسالة الاخيرة ، المنشورة اعلاه ، الى اصدقائه . وقد ذاع خبـــر اضرابه عن الطعام بسرعة ، وتخطى حدود تركيا لينتشر في العالم اجمع . وهبّت تلك الموجة العاصفة من الاحتجاج ، ودوّت اسلاك البرق في تركيا وهي تحمل آلاف برقيات الاستنكار ، طالبة من الحكومة التركية أن تطلق سراح الشاعر السجين .

البرقية الاخيرة ، تشير الى توقع حدوث شيء مفـــــاجيء . لقد تجاهلت السلطات التركية في البدء موجة الاحتجاج العالمية ، ثم ما لبثت، أمام اتساعها ، ان اضطربت وتراجعت ، وابلغت ناظم حكمت انها ستنظر في قضيته اذا ما توقف عن الاضراب عن الطعام ، لكن ناظم حكمت رفض ان يتراجع . . . وامام خطر موته ، وتحمل هذه المسؤولية امام الراي العام العالمي ، قررت الحكومة التركية الافراج عنه، حيث سيذهب الى استانبول، وينزل ضيفا على أصدقائه بعض الوقت .

ان رسائل ناظم حكمت هذه ـ في حدود المقتطفات التي أوردناها ـ تكفي لتلقي ضوءا على حياة الشاعر في السجن . فقد كان ، على مدى ثلاثة عشر عاما ، يعلم ، ويعلّم الآخرين ، كيفية الصمود في وجه الجلادين . كان واثقا ، شجاعا ، مناضلا بالفعل والكلمة ، يمتلك الامل والعزم ، ويمد بها السجناء من حوله ، وكان السجن ، على رهبته ، يتيح له أن يعمل ، ويكتب ، ويراسل أصدقاءه . ومن هنا يمكن القول انه كان سجنا ديمقراطيا اذا ما قورن بسجون هذه الايام .

ويقول عابدين دينو : « اننا نجد كل شيء في هذه الرسائل . الا ان المدهش فيها ، على ما يبدو ، هو تكرار بعض الموضوعات ، مثل الافتقار الى الدراهم ، والصحة السيئة ، وارادة العمل ، والحنين ، والشجاعة ، والحب الجنوني .. هذه الايماءات التي تؤثر في القارىء كبعض الاغاني الشعبية الاناضولية ، اذ تعود بعض النوتات بالتناوب فتحدث سحرا ايقاعيا يتملك المرء ويقوده الى ما هو ابعد منها .. يقوده الى اين ؟ الى سجن بروصه ، الى قلب المأساة » .

« وفي نهاية الرسائل يوحي بحب جديد ، بفراق محتوم ، يضاف اليهما الشعور بعسر في قلب يدقّ كيفما اتفق . ويوجد أيضا ترقب العفو الذي سيأتي » .

« سيأتي هذا العفو بعدئذ . وتتوقف الرسائل ويبدأ الاضراب عن الطعام . ان كمال طاهر يجهل ما يعرف ناظم : كيف ولماذا الوقت الذي اختاره . وناظم حكمت يخشى ما هو أسوأ للذين قرروا الانضمام اليه ، فيرى انهم مغامرون ، وعبثا يضحّون ، وهم في متاهة سجونهم البعيدة بعدا سحيقا ، فيرجو كمال طاهر أن يكفّ عن الاضراب مهما كلف الامر ، وأن يتركه وحده يغامر مغامرة الكل من أجل الكل .. ولكن عبثا ، فما أن بدأ ناظم الاضراب حتى تبعه الجميع » .

« ان رسائل ناظم حكمت موجهة الينا ، لكل منا شخصيا ، ولا يمكننا بعد الآن الاستغناء عنها .. وان الرسائل الاخيرة الموجهة الى كمال طاهر متباعدة زمنيا ، وتبدو غامضة ، فالتي تتعلق منها بالاضراب غير مفهومة لدى القارىء الذي يجهل التسلسل الزمني للوقائع ، وكون ناظم بدا الاضراب وحده ويريد أن ينهيه وحده ، ولهذا اخترنا بعض الرسائل الموجهة الى صديقه فالا نور الدين والى زوجه » .

ويبدو من الرسائل الاخيرة الى كمال طاهـر ، ان ناظم يحتاط لامر اضرابه عن الطعام ، فيطلب منه مسبقا الا يصدق ما تنشره الصحف ، غير ان كمال طاهر يعرف الحقيقة ، ويعلن الاضراب عن الطعام تضامنا معه .

ولا تحدثنا الرسائل عن تطور الموقف بين ناظم وبيرايه . ولا نجـد الا ذلك الاسف الكبير لدى الشاعر ، لان زوجته تنأى عنه ، لمجرد ان امراة أخرى تلوح في افقه . ونحن لا نعرف عن هذه المراة سوى ان اسمها منوّر ، وقد ورد ذكرها في الرسائل الاخيرة الى كمال طاهر ، ولكن متى التقاها ناظم ، وكيف نشأ الحب بينهما ، وهل كانت تزوره في السجن ؟.. ان كل هذه الاسئلة تظل بغير جواب ، كما يظل بغير جواب ذلك السؤال الـذي طرحناه : هل منوّر هي بيرايه ذاتها ؟ واذا لم تكن كـذلك ، فلمن وجّه الشاعر قصائده باسم منوّر ؟ وكيف تحدث عن ولديه : محمد وسوزان ، باعتبارها امهما ؟

لقد آثرت أن ادع الفصل الاول من هذا الكتاب عـــلى النحو الذي وضعته عليه قبل ستة اعوام ، وتمسكت بفرضية ان بيرايه هي منوّر ، وانها انفصلت عن الشاعر بعد خروجه من تركيا وزواجه من فيرا توليكوفا السوفياتيـة .

وتكشف لنا فيرا ، في مقالها « حكايات مــن حياة ناظم حكمت » كيف استطاع الشاعر ان يتخطى الحدود التركية بعد خروجه من السجن، وكيف كانوا يراقبونه ويريدون اغتياله ، وهذا ما يفسر تلك الحيطة التي اتخذها ناظم عند اضرابه عن الطعام ، وكيف طلب من اصدقائه ان يأتـوا الى بروصه لمرافقته اذا ما افرج عنه .

تقول فيرا : « قال لي ناظم مرة : « هل تريـدين أن تعرفي كيف ساعدني رفيقك بافلوف ؟ نعم ، هذا طريف فعلا . لقد حدثت محاولتـان لقتلي ، ومرة حاولوا دهسي بسيارة مسرعة ، وقد قالوا عندها انه كـان حادثا بطريق الصدفة ، ولكني اشكّ في ذلك ، لان الحادث كان مدبرا من البوليس ضدي .

« ومرة علمت عن طريق زوجة احد التجار الكبار انهم يريدون سوقي الى الخدمة العسكرية ، معللين ذلك بانه بسبب وجودي في السجن ، لم اقم بهذه الخدمة، وهناك ارسل لأخدم في صفوف قوات حرس الحدود، وعندها يقتلونني مدعين فيما بعد اني حاولت عبور الحدود هربا . هذه الاخبـار

كانت جديدة ، وبدأت في البحث عن مخرج ، وقرر رفاقي ان عليّ الفرار من البلاد .. ولكن كيف ؟ كنت محاصرا بسبعة من رجال الشرطة الذين يتناوبون مراقبتي ليل نهار ، وعندما أسقط في يدي تذكرت بافلوف ونظريته حول الفعل المنعكس الشرطي ، وأصبحت حياتي منذ ذلك الحين تسير بشكل لا يصدق من الدقة والتنظيم ، كالساعة تماما .. كل يوم استيقظ في نفس الساعة ، وفي نفس الدقيقة أفتح النافذة ، وبعد ذلك ، بخمس عشرة دقيقة بالضبط ، اخرج من البيت وأركب نفس الترام الذي يحملني كل يوم ، وأدخل باب الاستديو حيث كنت أعمل كمخرج في دبلجة الافلام الى اللغة التركية بعد خروجي من السجن ، وفي نفس الوقت بالضبط ، وأتناول طعام الغداء في نفس المطعم ايضا ، وعلى هذا النمط كان يسير نهاري من الصباح حتى المساء . لم أكن اسمح بأي تغيير على هذا النظام الدقيق طوال ستة أشهر ، وتعوّد « حراسي » على هذا النظام. وهكذا عندما أشار اليّ الرفاق بامكانية الهرب ، لم أستيقظ في اليوم المحدد في السابعة كما جرت العادة ، بل استيقظت في الرابعة ، ومررت بهدوء قرب رجال الشرطة النائمين ، الذين كانوا يغطون في سبات عميق ، ولم يتحرك واحد منهم . وصلت الى شاطىء البوسفور حيث كانت تهبّ عاصفة قوية ، جعلت ماء البحر يغلي في هيجانه . وأوصلني الاصدقاء الى زورق بمحرّك ، وأعطوني مرافقا كان عليه أن يوصلني الى عرض البحر ، بعيدا عن الشاطىء ، ثم يعود أدراجه .. وتقاذفتنا الامواج ، ورمت زورقنا من اليمين واليسار ، لكننا تابعنا طريقنا بسرعة كبيرة ، وكانت مقدمة الزورق تتجه نحو شواطىء بلغاريا » (١) .

لقد انتصر ناظم حكمت على كل اعدائه ، ليس بشجاعته وحدها ، ولا بقوة اعصابه وحدها ايضا ، بل بثقته في قضيته ، واستعداده للموت في سبيلها .

ان اضرابه عن الطعام كان آخر وسيلة في يديه للخروج من سجن بروصه ، وقد أقدم على استخدامها بدقة واحكام ، وعرف ، على هذا النحو ، آلام الجوع ، كما عرف قبلا آلام التعذيب وآلام السجن ، وهذه قصيدته التي كتبها أثناء اضرابه عن الطعام ، ووصف فيها مشاعره في اليوم الخامس لاضرابه :

---

(١) ترجمة عرفان عبد النافع ـ جريدة « البعث » ، ٢ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .

اليوم الخامس من الاضراب عن الطعام (١)

رفاقي !
اذا لم أستطع أن أعبر لكم بوضوح
عما أريد أن أقوله ، فلتغفروا لي ، يا رفاقي ،
لانني ثمل ، واشعر بدوار خفيف ،
لا من اثر الخمر ،
ولكن من اثر الجوع

* * *

رفاقي !
في أوروبا ، وآسيا ، وأميركا ،
أنا لست مضربا عن الطعام في حجرة السجن ،
ولكنني مستلق على العشب في هذه الليلة من نيسان ،
وعيونكم تتلامع فوقي مثل النجوم ،
وتصافح أيديكم جميعا قبضتي ، مثل يد واحدة ،
مثل يد أمي ،
مثل يد حبيبتي
مثل يد محمد .

* * *

رفاقي !
انكم لن تتركوني وحيدا أبدا ،
ولن تنسوني ،
ولن تنسوا وطني وشعبي ،
لانكم تحبوننا ،
انا أشكركم ، يا رفاقي .

* * *

رفاقي !
لا أريد أن اموت ،
ولكنني لو قتلت ،

---

(١) ترجمة عبد الوهاب البياتي .

فأنا أعلم ،
أعلم انني سابقى حيا بينكم ،
حيا في قصائد أراغون ،
ـ في كل قصائده التي تتغنى بالايام السعيدة الآتية ـ
حيا في حمامة بيكاسو البيضاء ،
وفي اغاني روبسون .
والابهى من ذلك ،
انني سابقى حيا في ضحك رفاقي الظافر ،
شغيلة مرفا مرسيليا .

* * *

رفاقي !
الحقيقة انني سعيد الى ابعد حدود السعادة .